الإمامان البروجردي و شلتوت

رائدا التقريب

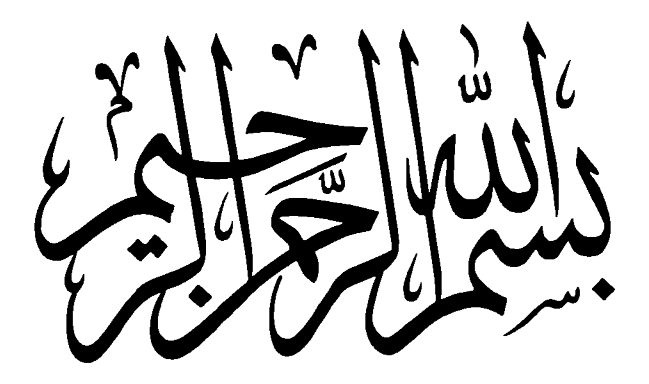
(مجموعة مقالات)

إعداد

المعاونية الثقافية

للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية




بسم الله الرحمن الرحيم

الإمامان البروجردي وشلتوت

رائدا التقريب

مجموعة مقالات الملتقى الدولي لتكريم الإمامين

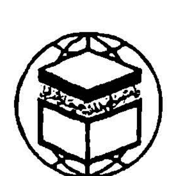
السيد البروجردي والشيخ محمود شلتوت

طهران ــ شوال المكرم ١٤٢٢ هـ

اعداد: المعاونية الثقافية للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

كنگره بين المللى بزرگداشت آيت الله العظمى بروجردى و شيخ محمود شلتوت (١٣٨٠ : تهران)
الامامان البروجردى و شلتوت رائدا التقريب: مجموعه مقالات الملتقى الدولى لتكريم الامامين السيد البروجردى والشيخ محمود شلتوت / اعداد المعاونيه الثقافيه للمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية ـ تهران : المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الاسلامية، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م / ١٣٨٢.
٢٩٦ ص. ١٥٠٠٠ ريال ISBN 964 - 7994 - 33 -8
فهرستنويسى براساس اطلاعات فيپا.
عربى.
١. بروجردى، حسين، ١٢٥٣ ـ ١٣٤٠ ـ ـ كنگره ها. ٢. شلتوت، محمود، ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م. Shaltut, Muhmud كنگره ها. ٣. وحدت اسلامى ـ ـ كنگره ها. ٤. تقريب مذاهب ـ ـ كنگره ها . ٥. مجتهدان وعلما ـ ـ كنگرد ها.
الف. مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى . ب .مجمع جهانى تقريب مذاهب اسلامى . معاونت فرهنگى
BP٢٣٣ / ٥ / ٩ ک ٢٩٧/٤٨٢
١٣٨٠

كتابخانه ملى ايران ٣٥٣٤٨ ـ ٨٢م



المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اسم الكتاب: الإمامان البروجردي وشلتوت رائدا التقريب
مجموعة مقالات الملتقى الدولي لتكريم الإمامين
السيد البروجردي والشيخ محمود شلتوت

الاعداد: المعاونية الثقافية للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية ـ مديرية النشر والمطبوعات

الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ . ق ـ ٢٠٠٤م

الكمية: ٢٠٠٠ نسخة

السعر: ١٥٠٠ تومان

ردمك: ISBN 964 - 7994 - 33 -8

العنوان: الجمهورية الإسلامية في ايران / طهران ـ ص . ب : ٦٩٩٥ ـ ١٥٨٧٥

الفهرس

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تحظى الحوزة العلمية في قم وكذلك جامع الازهر في القاهرة بموقعهما الجغرافي في طرفي العالم الاسلامي بمكانتين خاصتين في تبيين الفكر الاسلامي وبلورته من جوانبه المختلفة في الفقه والاصول والكلام وغيرها كما تتوليان هدي الجماهير المسلمة نحو المجتمع الاسلامي الهادف.

وينعكس أي تحول وتقدم يحصلان في الافكار السائدة على هاتين الحوزتين العلميتين الكبيرتين بشكل مباشر او غيرمباشر على مجمل العالم الاسلامي وستكونان مصدرا للتحولات. كما شكلت التحولات الفكرية العظيمة في الحوزة العلمية بقم مصدرا اساسياً لظهور الثورة الاسلامية الرائعة في ايران في بداية القرن الخامس عشر الهجري.

ولا يخفى في هذا الجانب دور القادة الفكريين وكبار الأساتذة في ايجاد النهضات والحركات والتحولات السياسية والاجتماعية الكثيرة مما يشكل ذلك دلالة واضحة على هذه الحقيقة.

ففي العصر الراهن وفي احلك المراحل التاريخية وبعد الحربين العالميتين الاولى والثانية حيث شهد العالم الاسلامي سقوط الدولة العثمانية واحتلال الاراضي الايرانية وايجاد الكيان الاسرائيلي غير المشروع وقد أدى ظهور المصلحين الكبيرين في الأمة الاسلامية في هاتين الحوزتين الكبيرتين الشيعية والسنية وطرحهما وجهات اصلاحية وتقدمية من جانبهما واهتمامهما الجاد بالمبدأ القرآني والوحدة الاسلامية وتبيين اسسهما العلمية على أساس الكتاب والسنة أدى الى دفع أنظار المسلمين نحوهما.

وترك كل من آية الله العظمى السيد البروجردي المرجع الشيعي الكبير دون منازع والعلامة الشيخ محمود شلتوت تأثيرهما المصيري في اهتمام المسلمين بهويتهم الاسلامية المشتركة من خلال اجراءاتهما الاصلاحية والوحدوية في العالم الاسلامي بشكل غير مسبوق وتأكيدها على ضرورة وضع الخلافات المذهبية الناجمة عن الجهل والتعصب ودسائس الحكام والمستعمرين جانباً.

وتعتبر الفتوى المعروفة للشيخ شلتوت في صحة تعبّد الشيعة والأخذ بالفقه الشيعي باعتباره مذهب رسمي اسلامي وتأسيس دار التقريب بين المذاهب بأمينه العام الشيخ محمد تقي القمي في القاهرة وعضوية كبار علماء الفريقين فيه ودعم آية الله العظمى البروجردي لذلك تعتبرمن نتائج هذا التحول الفكري الكبير في فكر القادة الدينيين المسلمين.

ولعبت دار التقريب بين المذاهب الاسلامية في حياته المثمرة جدا دورا كبيرا في التعارف بين علماء الشيعة والسنة ونشر ٦٠ عددا من مجلة (رسالة الاسلام) ونشر كتاب التفسير الكبير لمجمع البيان وكتاب المختصر النافع وكتاب حديث الثقلين وغيرها من الكتب.

واعتبر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية والذي جاء تأسيسه بأمر من سماحة آية الله السيد علي الخامنئي مد ظله العالي في عام ١٩٨٨ بامينه العام اية الله واعظ زادة الخراساني في ايران بعد ٤٥ عاماً من تأسيس دار التقريب بين المذاهب في مصر، اعتبر فلسفته الوجودية استمرارا للطريق الذي سلكه اولئك العظام ويعتبر نفسه استمرارا لوجود دار التقريب في مصر وعقد هذا المجمع في الذكرى السنوية لرحيل آية الله العظمى السيد البروجردي مؤتمرا لتكريم آية الله العظمى السيد البروجردي والشيخ محمود شلتوت بتاريخ شوال المكرم ١٤٢١ هـ . ق في طهران وقم شارك فيهما العلماء والمفكرون وكبار مراجع التقليد من ايران والشيوخ وكبار الاساتذة من جامع الازهر من مصر بدعوة من منظمي المؤتمر وتم فيه تبيين الاسس العلمية لأفكارهما الاصلاحية كخطوة جديدة في سبيل الوحدة الاسلامية والتقريب بين المذاهب الاسلامية.

وقد كان من بين المشاركين وفد علماني كبير من علماء الأزهر مؤلف من ٢٠ شخصاً من بينهم الشيخ محمود عبدالغني عاشور نائب شيخ الأزهر والشيخ فريد واصل المفتي المصري آنذاك وعمداء كليات الأزهر وصحفيون وأساتذة معروفين وقد اضفى هؤلاء الضيوف طابعاً مرموقاً على هذا الاجتماع. كما التقى الوفد المصري هذا بكل من قائد الثورة الاسلامية ورئيس الجمهورية كما حضر الوفد في صلاة الجمعة، والقى نائب شيخ الازهر كلمة مهمة جدا بين المصلين في صلاة الجمعة. كما التقى الوفد المصري في مدينة قم عددا من كبار مراجع التقليد والفضلاء والاساتذة واجروا معهم محادثات كما زار اعضاء الوفد المراكز المهمة في المدينة.

وحول أهمية هذا المؤتمر تكفي الاشارة الى ما قالته احدى الصحف المصرية المهمة حول المؤتمر إذ كتبت هذه الصحيفة: لم يعقد مثل هذا المؤتمر الرائع والمهم طوال التاريخ وبعد الحوادث المؤسفة في الصدر الاسلامي الاول وقد اجتمع قادة العالمين الشيعي والسني في مكان واحد. وكان لهذا المؤتمر اصداء واسعة في الصحف المصرية والايرانية والمنطقة العربية.

فعلى أية حال ينطوي هذا الكتاب على مجموعة من المقالات التي كانت حصيلة ذلك الاجتماع الكبير والذي تقدمه المعاونية الثقافية لمجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية وبجهود أخينا الفاضل حجة الاسلام والمسلمين أوحدي الى الشباب والفضلاء المحترمين في الحوزات العلمية والمراكز العلمية والجامعية ونأمل أن يتكرر عقد مثل هذه المؤتمرات الوحدوية في طهران والقاهرة وفي باقي البلدان الاسلامية وتؤدي الى نشر فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية.

سيد جلال الدين مير آقائي
المسؤول عن لجنة اقامة مؤتمر
تكريم آية الله بروجردي والشيخ محمود شلتوت

بيان الامام القائد آية اللّٰه

علي الخامنئي

بسم الله الرحمن الرحيم

حَمداً لله سبحانه وتعالى ان وفقكم انتم العاملينَ المحترمينَ على إقامةِ هذا الإجتماع لتكريم شخصيتين كبيرتين كان لهما السهمُ الكبير الذي لا ينسى في تحقيقِ امَلِ التقريب بين المذاهب الاسلاميّة.

هاتان الشخصيتان المرموقتان والممتازتان أحدهما كبير فقهاء عصره والمرجع الاعلى لجميع شيعة العالم في وقته، والشخصية الفريدة بين علماء الدين في العصور الأخيرة حضرة آية الله العظمى السيد البروجردي، والآخر فقيه كبير وإمام الافتاء لدى أهل السنة ورئيس شجاع ومجدّد للأزهر الشريف العلامة الشيخ محمود شلتوت.

تكريم هاتين الشخصيّتين الشهيرتين في عالم الاسلام ليس فقط تكريماً لإنسانين كبيرين بل الهدفُ من هذا التكريم هو ما قدّماه من خدمة عظيمة للامّة الاسلاميّة.

العالم الاسلاميّ، الذي يُشكل أعظم المجموعات العالمية من حيث مايحتويه من كنوز ماديّة وإنسانية وفكرية وتاريخية، بحاجة أكثر من أي وقت مضى الى الوحدة والتقريب. وإذا كانت أهداف وآمال كل مسلم خيّر يحمل هموم امّته تتمثل في تمركز المساعي والطاقات، وتوحيد جهتها، ودفعها باتجاه إنقاذ الأمّة الاسلامية، فلابدّ أن نعلم أنّ هذا الهدف لايمكن نواله إلا في ظل تقارب القلوب والأفكار والمعتقدات.

هذان الرجلان الكبيران تفهّما قبل قرابة نصف قرن هذه الحقيقة الوضّاءة، وبذلا من أجلها الجهود. ولو كان رجال العلم والسياسة قد واصلوا هذه المساعي بجد، فلعلّ عالمنا الاسلامي لم يشهد النتائج المؤلمة لما بين المسلمين من خلاف، ولعلّ ماساة فلسطين وسائر أوضاع العالم الاسلامي المزرية ماكانت قد احاطت بالعالم الاسلامي بهذا الشكل المأساوي المرعب.

في تلك الأيام كانت همة مرجع الشيعة الأعلى وعزمه وشجاعته، وحريّة إمام الافتاء في مصر قد تبلورت في خطوة رحبة وضرورة لعصرها. واليوم أيضا يتحمل كلٌ من الروّاد والمفكرين وعلماء الدين والمثقفين ورجال الافتاء والساسة مسؤوليات كبرى على هذا الطريق.

المجمع العالي للتقريب بين المذاهب الاسلامي في طهران يجب أن ينهض مثل دار التقريب بين المذاهب الاسلامية في القاهرة بمشروع عظيم خالد. أمواج تخريب علاقات المذاهب والشعوب المنبعثة من بؤر الفتنة في داخل العالم الاسلامي وخارجه تستهدف زيادة تشتت الشعوب والمذاهب الاسلاميّة. بذل الجهود المختلفة أمام أمواج الفتنة هذه واجب يتحمّله الجميع خاصة الواعون والمتعقّلون . بتمسّكنا بالقرآن الكريم وسنة الرسول – عليه أفضل الصلاة والسلام – القطعيّة مثل حديث الثقلين، واتباع أهل البيت (عليهم السلام) يُصبح الطريق أمامنا واضحاً لا لُبس فيه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقني وإيّاكم وكلّ العلماء والامة الاسلاميّة لانتهاج هذا الطريق.

في الخاتمة أرى لزاماً أن أشكر العاملين على إقامة هذا الاجتماع لما بذلوه من جهود، وأسأل الله سبحانه أن يتغمّد برحمته ومغفرته المرحوم العلامة الشيخ محمد تقي القمي مؤسس دار التقريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد علي الخامنئي

١٢ شوال ١٤٢١

آية الله البروجردي والخطوط العريضة لتراثه الفكري

الشيخ جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق (ع) ــ قم

تزامنت حياة الأمة الإسلامية بعلماء وعباقرة كانوا كالنجوم اللامعة في سماء العلم والعمل، وقد استضاءت بهم الأمة الاسلامية في مسيرها التكاملي، فانتعشت بهم حياة العلم والدين فصاروا بحق مصاديق للحديث المأثور عن سيد الرسل (ص) حيث قال:

(يحمل هذا الدين في كل قرن، عدول ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الغالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكيرُ خبث الحديد).[١]

ومع الاعتراف بفضل الجميع إلاّ أن مواقفهم كانت مختلفة.

فمنهم من سار على المنهج السائد في حياته في مجال العلم، فخدم الإسلام برايه وفكره، وقلمه وبنانه.

ومنهم من أحاط إحاطة تامة بالمنهج السائد ولم يكتف بذلك، بل طفق يبتكر اسساً تلبي حاجات العصر، وهم في كل عصر ومصر نزر قليل. ولو أردنا استعراض أسماء بعضهم نذكر على سبيل المثال: شيخنا المفيد في إبداعاته الكلامية ومناظراته العلمية، والسيد المرتضى ـ مضافاً الى أدبه الجم ـ في انتاجاته الأصولية، وتمليذهما شيخ الطائفة الطوسي في الحديث والفقه المقارن والتفسير، الى غير هؤلاء من العباقرة الذين خاضوا عباب بحار العلوم فأثاروا أمواجاً هائلة، وحالوا دون خمول العلم وركوده، فخرجوا بدرر وجواهر ثمينة أهدوها بكل تواضع الى الأمة الاسلامية.

وهكذا كانت سيرة فقيدنا الراحل السيد البروجردي (١٢٩٢ ـ ١٣٨٠ هـ ق) في حياته التي ناهزت قرابة تسعين عاماً، فلو غضضنا النظر عن مقتبل عمره وايام دراسته على مشايخه وأساتذته حتى استقلاله بالتدريس، نرى أنّ حياته العلمية حفلت بابتكارات قيمة، سواء قبل تسنمه المرجعية والزعامة الدينية أو بعدها، وها نحن نذكر الخطوط العريضة لتراثه الفكري.

١ـ رجال الكشي، باب فضل الرواية والحديث، ص١٠.

ابتكاراته وخدماته العلمية

إنه (قدس سره) تمتع بمواهب خارقة، فقد جمع بين الحفظ والفهم، والتصرف في الأفكار والآراء، والأخيرة منها عزيزة الوجود بين أوساط العلماء، فالسيد الراحل بفضل هذه الموهبة ـ أي موهبة التصرف في الأفكار والآراء ـ جاء بإبداعات تركت بصمات واضحة على العلوم الإسلامية لاسيما في الرجال والفقه والحديث.

أ. ابتكاراته الرجالية

كان السيد البروجردي متضلعا في رجال الفريقين يعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وتلاميذهم ومشايخهم، وقد لمس النقائص الفنية في الجوامع الرجالية للشيعة الإمامية مع ما لها من الأهمية البالغة، وإليك الإشارة اليها:

١. إنّ الخطة التي رسمها القدماء وتبعها المتأخرون في التوثيق والجرح لا تخرج عن إطار التقليد لأئمة الرجال، وليس طريقاً مباشرا للمستنبط بغية التعرف على أحوال الراوي بأن يلمس بفهمه وذكائه ويقف عن كثب على كل ما يرجع الى الراوي من حيث الطبقة والعصر أولاً، ومدى الضبط والاتقان ثانياً، وكمية روايته كثرة وقلة ثالثاً، ومقدار فضله وعلمه وكماله رابعاً، وهذا مما لا تفي به الكتب الرجالية الدارجة.

٢. لاشك أن التحريف والتصحيف تطرق الى قسم من اسناد الأحاديث المروية في الكتب الأربعة وغيرها، وربما سقط الراوي من السند من دون ان يكون هناك دليل يدلّنا عليه، وليست الكتب الرجالية بصورة توقفنا على طبقات الرواة من حيث المشايخ والتلاميذ حتى يقف الباحث ببركة التعرف على الطبقات على نقصان السند وكماله، لأنها كتبت وفق حروف المعجم مبتدأة بالألف ومنتهية بالياء، لا يعرف أصل الراوي وطبقته في الحديث ولا أساتذته وتلامذته.

٣. إنّ أسماء كثير من الرواة مشتركة بين عدة اشخاص، بين ثقة يركن اليه، وضعيف

ترد روايته، فعندما يلاحظ المستنبط الأسماء المشتركة في الاسناد لا يقدر على تعيين المراد.

ولأجل رفع هذه النقيصة التجأ العلماء الى تأسيس فرع آخر لعلم الرجال باسم (تمييز المشتركات).

٤. إن هناك رواة جاءت أسماؤهم في أسناد الأحاديث ولا نرى أثراً لهم في الكتب الرجالية، وصار هذا سبباً لوصف كثير من الروايات بالضعف للجهل بالراوي؛

٥. إن التصحيف والتقليب طرأ على الأسانيد عبر القرون، فكثيرا ما جاء محمد بن مسلم بصورة محمد بن سالم فأوجد غموضاً في الحديث، كما قلب الحسين بن خالد عن يعقوب بن شعيب الى يعقوب بن شعيب عن الحسين بن خالد.

٦. توجد إضافات بين الأسماء في (أبو علي الأشعري) المعروف بابن إدريس يروي عن علي بن الحسن الكوفي، ولكن ورد في بعض الأسانيد أبو علي الأشعري، عن (محمد بن) الحسين بن علي الكوفي، فما هو الميزان في التعرف على زيادة (محمد بن)؟

٧. ربما نرى أنّ الراوي يروي عمّن لم يدركه ولكن في روايات أخرى نرى أنه يروي عنه بواسطة شخص خاص.

كل هذه المشاكل كان يعاني منها السيد البروجردي، فعاد الى معالجة هذه النقائص الفنية في كتب الرجال بتأليف يعبّر عنه تارة بتجريد الأسانيد، وأخرى بترتيب الأسانيد، وثالثة بتنقيح الأسانيد.

ويتلخص عمله في أنه قام بتجريد أسانيد كل من الكتب الأربعة وسمّاها: تجريد أسانيد الكافي، وتجريد أسانيد الفقيه، وتجريد أسانيد التهذيب، وتجريد أسانيد الاستبصار، ثم انصرف الى تجريد اسانيد الأمالي والخصال وعلل الشرائع للشيخ الصدوق، وتجريد أسانيد الفهرست للطوسي، وأسانيد رجال الكشي والنجاشي وغيرها من الكتب، مراعياً فيها ترتيب الحروف، فباستيفاء الاسانيد وقياس بعضها مع بعض قام بحل كافة المشاكل التي كان يعاني منها.

بالنظر الى هذه الأسانيد المجردة، يتسنى الحصول على الفوائد التالية:

١. يعلم مشايخ الراوي وتلاميذه، ومن هو مشاركه في نقل الحديث وكان في طبقته.

٢ـ يعرف مشايخ كل هؤلاء الرواة وطرقهم الى الإمام.

٣ـ يعرف الفقيه وجود الواسطة الساقطة بين الراوي والمروي عنه.

٤ـ يعرف المصحَف عن الصحيح، والمقلوب عن غيره.

لا اقول إن السيد هو الوحيد الذي اختط هذا السبيل، بل سبقه المحقق الاردبيلي المعاصر للعلامة المجلسي مؤلف (جامع الرواة) فإنه يلتقط في ترجمة جملة من الأسانيد عن الكتب الأربعة وغيرها ويجعلها دليلاً على التعرف على شيوخ الراوي، كما تبعه السيد محمد شفيع في كتابه: (طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال) فإنهما بذلا جهدهما في رفع النقائص الفنية الطارئة على رجال الحديث، ولكن الذي قام به المحقق البروجردي يعد من أبرز الاعمال وأعظمها في هذا الحقل.

كما تبع السيد البروجردي في هذا المشروع، الزعيم الديني السيد الخوئي (قدس سره)، فقد رفع بعض النقائص في كتابه الضخم (معجم رجال الحديث وتفسير طبقات الرواة) حيث إنّ من خصائص ومزايا هذا الكتاب أنه ذكر في ترجمة كل شخص أسماء من يروي عنهم ومن روى هو عنهم في الكتب الأربعة. وقد يذكر ما في غيرها، ولاسيما رجال الكشي فقد ذكر أكثر ما فيه من الرواة والمروي عنهم، وبذلك خدم علم الرجال خدمة كبيرة (شكر الله مساعي الجميع).

ب. منهجه الفقهي

إن الوقوف على الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة وسائر أدلّتها، هو الفقه الذي كان يمارسه السيد البروجردي منذ شبابه الى رحيله، فقد قام بتدريس كثير من ابواب الفقه طيلة حياته، كما درس سائر الأبواب بنفسه مرة بعد أخرى، وكان يتمتع بذاكرة حادة بالنسبة الى المسائل الفقهية والآراء التي دارت حولها من قبل الفريقين، وهو حين إلقائه المحاضرات الفقهية يتبع النهج التالي:

١ـ إذا كانت المسألة ذات تاريخ عريق في الفقه الاسلامي من عصر الصحابة والتابعين والأئمة المعصومين الى يومنا هذا، درج في بيان سيرها التاريخي وما مرت عليه من مراحل

تاريخية، ولم يكن ذلك من خصائصه في الفقه فحسب، بل كان يدخل من هذا الباب في المسائل الأصولية ايضاً. مثلاً كان (قدس سره) يدرّس مبحث (العام والخاص) وكانت المسألة المعنونة هي: صيرورة العام مجازا بعد التخصيص وعدمها، فخاض في لباب تاريخ المسألة حتى وصل الى النتيجة التالية: بانّ المسالة عنونت في اوائل القرن الرابع، ثم ذكر الآراء من ذلك العصر الى يومنا هذا. وهذه من خصائصه فكان يرى أن الإحاطة بالأقوال من اركان الاستنباط، ومع انه كان يمتلك اكثر الكتب الفقهية للفريقين مخطوطها ومطبوعها، ولكنه كان يعتمد في نقل الآراء على كتاب (الخلاف) للطوسي و(تذكرة الفقهاء) و(منتهى المطلب) للعلامة الحلي.

وكثيرا ما ينقل الآراء الفقهية لأصحابها حسب تدرجها الزماني حتى يعلم تطور المسالة، وربما يشير الى مباني الآراء عند ذكرها اشارة عابرة.

٢ـ ثم إنه بفضل التركيز على نقل آراء فقهاء الفريقين والإشارة الى بعض الأدلة، كان لمنهج فقهه صبغة الفقه المقارن، فيذكر آراء الفقهاء وبعض أدلتهم وربما يصحح وأخرى يناقش بصدر رحب، وكثيرا ما يعتمد على كتاب (الأم) للشافعي و(الموطأ) لمالك، وعندما يجلس على منصة التدريس يحس الطالب أنه فقيه متضلع خبير بكافة الآراء الفقهية لجميع المذاهب الإسلامية، وهذا كان من أبرز سمات منهجه، ولم يكن استيعابه للصحاح والمسانيد بأقل من استيعابه للكتب الأربعة.

٣ـ إن السيد البروجردي كان يقيم للشهرة الفتوائية او العملية ـ على الفرق الواضح بينهما ـ قيمة كبيرة، فإذا كانت الرواية ممن أفتى بها القدماء من الفقهاء لم يكن يعدل عنها، بل انه يتبع هذا الاسلوب فيما لو كانت هناك فتوى مشهورة بين القدماء وإن لم تعضد بالدليل، وكان يقيم الأدلة على حجية الشهرة الفتوائية للقدماء بما لا مجال لبيانه.

٤ـ إنه (قدس سره) يذكر حول الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كلمة معروفة. مضمونها كالتالي: كما أن الآيات القرآنية شأن نزول، فهكذا لروايات أئمة أهل البيت أسباب ورود، ولا يعلم إلا بالرجوع الى فتاوى الفقهاء المعاصرين لهم، فبالتعرف على فتاواهم تعرف إشارات الإمام في كلامه ولطائف مقاله، كما تعرف بها الرواية الصادرة

عن مصلحة الراوي من الرواية الواردة لبيان الواقع، وكان تلاميذ الأئمة على اطلاع بكلا النوعين من الفتيا فإذا وصل إليهم فتاوى الصادقين يعرفون ما هو الوارد لبيان الواقع فيصفونه بأنه أعطام من عين صافية، وما هو الوارد على وفق الواقع لمصالح اقتضت ذلك، فيصفونه بأنه أعطام من جراب النورة.

٥ـ ومن مميزات منهجه الفقهي في استنباط الأحكام هو أنه كان يلتزم بقراءة كل رواية وردت حول المسألة في وسائل الشيعة والمستدرك وما في الصحاح والسنن، وكان يقرأ كل رواية بسندها التام، ويذكر خصوصية أكثر الرواة غير المعروفين وانه من اي طبقة من الطبقات، وكثيرا ما ينبه على سقوط الواسطة، او طروء تقليب، او تصحيف على الرواية او يشير الى عدد رواياته قلة وكثرة.

وفي ظل الإحاطة بالأسانيد كان يجهد في توحيد الروايات، فيرجع الروايات المتعددة ظاهرا الى أصل واحد، قائلا: بأن التكثر طرأ عليها من قبل الوسائط. وهذا كان من اختصاصاته في الفقه.

٦ـ كان (قدس سره) يجهد في ان يذكر لكل مسألة الدليل المهم الذي يمكن ان يستند اليه المجتهد، وينأى بنفسه عن ذكر الأدلة الضعيفة ومناقشتها صيانة لوقت الطالب.

هكذا كانت محاضرات سيدنا الأستاذ الراحل ومنهجه الفقهي الذي أصبح فيما بعد المنهج الرسمي السائد على الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة، وأما الكلام في منهجه الحديثي والخدمات التي أسداها في هذا المضمار، فنحيله الى وقت آخر.

ج. نشاطاته الاجتماعية

إن الإمام الراحل السيد البروجردي كان من أرومة عريقة ضربت بجرانها عبر العصور والقرون، فهو سليل الشجرة الطيبة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء، فلا عتب على اليراع إن وقف عن سرد محاسنه وفضائله، فإن سيدنا المترجم فذ في كل نواحيها. ونسبة الفضائل اليه كأسنان المشط لا تفاضل بينها، لأنه واقع في نقطة المركز من الدائرة، فخطوط الفضائل اليه متساوية، ومع ذلك نشير الى بعض ما للسيد من نشاطات ومواقف كريمة، وما كان يحمل من هموم الأمة وما قدّم لها من خدمات.

أ. دعوته الى التقريب

كان السيد الراحل من دعاة التقريب وعماده، وقد ورث فكرة التقريب عن أستاذه السيد محمد باقر الاصفهاني (المتوفى عام ١٣٤٢ هـ)، ويعلم مدى دعمه لمسألة التقريب انه قد كان للسيد مساهمة فعالة في تأسيس دار التقريب بين المذاهب، ودعم المعنيين بتأسيسها من دون فرق بين السنة والشيعة، وقد كان على صلة وثيقة بأخبار دار التقريب عن طريق مندوبه، أعني: الأمين العام لجماعة دار التقريب، الشيخ محمد تقي القمي، كل ذلك يدل على شدة اهتمامه بأمر التقريب ولم شمل الأمة كسائر رواده من معاصريه، نظير: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (المتوفى ١٣٧٣ هـ) والسيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (المتوفى ١٣٧٧ هـ) وغيرهم من اقطاب التقريب.

ولم يقتصر نشاطه على متابعة أخبار دار التقريب فحسب، بل إنه (قدس سره) راح يراسل شيخ الأزهر عبدالمجيد سليم. لما بعث اليه برسالة يستفسر فيها عن صحته بعدما سمع من المذياع أن صحته قد تدهورت، وقد اغتنم السيد الفرصة وبعث بجواب اليه، واليك نص رسالة شيخ الأزهر:

حضرة صاحب السماحة آية الله الحاج آقا حسين البروجردي

سلام الله عليكم ورحمته

أما بعد: فقد بلغنا ـ عن طريق المذياع ـ أن صحتكم الغالية قد ألمّ بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلك اشد الأسف لما نعرفه فيكم من العلم والفضل والإخلاص للحق، وإنا لنسأل الله جلت قدرته أن يعجل بشفائكم، ويلبسكم لباس العافية، حتى تتمكنوا من العود الحميد الى نشاطكم المعهود في خدمة الاسلام والمسلمين.

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون انا ايضاً في هذه الفترة مريضاً معتكفاً في بيتي أحمل همين ممضين: هم نفسي وهم قومي، وأطيل التفكير حالياً في حال امتنا العزيزة، فيأخذني من القلق والحزن ما الله به عليم، فأرجو أن تسألوا الله لي العافية كما أسأله لكم، والله يتولانا جميعاً برحمته.

إن الأمة الاسلامية الآن، أحوج ما تكون الى رجال صادقي العزم، راجحي الوزن، يجاهدون في الله حق جهاده، ليدرأوا عنها غوائل الفتن، ونوازل المحن، فقد تألبت قوى الشر، وتجمعت عناصر الفساد، وزلزل المؤمنون في كل قطر من أقطارهم زلزالاً شديداً، وكان قد أتى الزمان الذي أنبأ الصادق الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ـ: أن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، وإنما مثل أهل العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد راسية أو حصون منيعة ألقاها الله في الناس أن تميد بهم الأرض من فتنة او جهالة، أو كنجوم ثاقبة في ليل داج، ترشد السارين، وتهدي الحائرين. فادع الله معي أن يحفظ هؤلاء ويكثر في الأمة منهم، وينشر عليهم رحمته، وينزل عليهم سكينته، ويؤيد بهم الحق والدين، ويهزم بهم المبطلين والملحدين والمفسدين، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. [١]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٤ من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ

ولما وصلت رسالة شيخ الأزهر الى السيد الراحل قام بكتابة جواب يشكر فيه عواطفه تجاهه، وقال:

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم

شيخ الجامع الأزهر ـ دامت افاضاته ـ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد، فقد بلغنا كتابكم الكريم الحاوي للعواطف الاسلامية السامية، يحكي لنا أنه لما بلغكم عن طريق المذياع أن صحة هذا العبد قد ألمّ بها طارئ من المرض، أسفتم لذلك،

١ـ رسالة الإسلام: العدد الثالث من السنة الثالثة. وليست هذه الرسالة الوحيدة التي تم تبادلها بين شيخي السنة والشيعة، بل ثمة رسالة اخرى كتبها الشيخ عبدالمجيد سليم الى السيد في جواب رسالة شفوية حملها اليه الأمين العام لدار التقريب، وقد نشر الجواب على صفحات مجلة رسالة الاسلام، العدد الثاني من السنة الرابعة عام ١٣٧١ هـ.

ودعوتم الله تعالى ان يعيد له الصحة.

فأشكركم على ذلك، وأسأل الله تعالى أن يبدل التعارف والتعاطف بين المسلمين، مما كان بينهم من التناكر والتدابر والتقاطع، إنه على ما يشاء قدير..

ويحكي كتابكم ايضاً، انه قد المّ بصحتكم الغالية طارئ من المرض، كما المّ بي، فاعتكفتم في البيت حاملين لهمين ممضين: هم نفسكم، وهم قومكم، وأن إطالة التفكير في حالة الأمة، توجب لكم من القلق والحزن، ما الله به عليم.

هكذا ينبغي أن يكون رجال العلم ورجال الاسلام، مهما حاقت بالمسلمين زلازل الفتن، وأحاطت بهم نوازل المحن، فأسأل الله عز سلطانه، أن يلبسكم لباس العافية، ويوفقكم لخدمة الإسلام والمسلمين، ولما يوجبه الاهتمام بأمر الأمة في مثل هذا الزمان، من أمثال جنابكم الذين وقفوا لخدمة هذه الأمة، ودرء عوادي المفسدين والملحدين عنها، إنه قريب مجيب.

إنّ هنا أمورا كنت احب ابداءها لكم، لكن حالي لا تساعدني على ذلك.

والسلام عليكم وعلى من احاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته.

١٧ من رمضان سنة ١٣٧٠ هـ. [١]

كان السيد يترصد الفرص بين حين وحين لأن يدعم موقف التقريب ومن نماذج ذلك:

إن الملك سعود بن عبدالعزيز زار ايران وأرسل بهدية سنية للسيد البروجردي، وقام السيد ببعث كتاب الى سفير المملكة السعودية في طهران كإجابة لما أهدي اليه. وقد اشار في ذلك الكتاب الى أن مسألة الحج من أهم مظاهر الوحدة، فللمسلمين أن يؤدّوا مناسك الحج وفق الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، وإليك نصّ رسالته الى السفير:

١ـ رسالة الإسلام، العدد الثالث من السنة الثالثة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله عليكم ورحمته

أما بعد: فقد بلغنا كتابكم مع السيد يوسف بوعلي، ومعه حقيبة كبيرة ذكرتم أنها تحتوي على خمس عشرة نسخة من القرآن الكريم، وعلى قطع من حزام ستار الكعبة الشريفة، وعلى ... وأنّ جلالة الملك أمر بإرسالها إليَّ، فتحيرت في الأمر، لأن سيرتي عدم قبول الهدايا من الملوك والعظماء، ولكن اشتمال هذه الهدية على القرآن الكريم وستار الكعبة الشريفة، ألزمني قبولها. فأخذت نسخ القرآن الكريم والقطع من حزام ستار الكعبة الشريفة، وأرسلت الحقيبة (بما بقي فيها) الى جنابكم هدية مني الى شخصكم، لأكون على ذكر منكم في أوقات الصلوات والدعوات، ولما كان أمر الحج في هذه السنين بيد جلالة الملك، أرسلت حديثاً طويلاً في صفة حج رسول الله (ص)، رواها مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه ويستفاد منه أكثر أحكام الحج إن لم يكن كلها، لترسله الى جلالة الملك هدية مني اليه، وتبلغه سلامي وتحياتي، وأسأل الله عز شأنه أن يؤلف بين قلوب المسلمين، ويجعلهم يداً واحدة على من سواهم. ويوجههم الى أن يعملوا بقول الله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[١] وأن يجتنبوا التدابر والتباغض واتباع الشهوات الموجبة لافتراق الكلمة، وأن يلتزموا بقول الله: (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا).[٢]

و السلام عليكم ورحمة الله[٣]

١. آل عمران، ١٠٣.

٢. النساء: ٩٤.

٣. رسالة الإسلام، العدد الأول من السنة الثامنة.

ب. مواقفه السياسية

كان السيد الراحل منذ آوان شبابه الى أواخر حياته ملمّاً بالأوضاع السياسية التي تمر على المسلمين في انحاء العالم، وقد ابتلي المسلمون في أواسط القرن الماضي بفتنة اليهود وإنشائهم لدويلتهم الغاصبة في قلب الأمة الاسلامية وعلى مقربة من أولى القبلتين، وقد كانت هذه الفكرة تراود اليهود منذ عصر الامبراطورية العثمانية الى أن اتيحت لهم الفرصة في مختتم الحرب العالمية الثانية حيث أعانتهم القوى الكافرة بتأسيس تلك الدولة الغاصبة، فأخذوا يقتلون المسلمين رجالهم ونساءهم وأطفالهم ويشرّدونهم من أراضيهم الى أن استتب لهم الأمر بإنشاء دويلتهم عام ١٩٤٨م، وقد ضبط التاريخ جرائمهم في دير ياسين وغيره مما يندى لها جبين البشرية، وليس جرائمهم هذه الأيام غائبة عن أعيننا فقد أعادوا التاريخ بنفسه.

وقد قام السيد البروجردي يومذاك بإصدار بيان يندد فيه بتلك الجرائم النكراء، واحتفلت بسماع بيانه الحوزة العلمية وشارك هو (قدس سره) في ذلك الاحتفال، وقرأ البيان الخطيب المصقع الشيخ محمد تقي الاشراقي (١٣١٣ ـ ١٣٦٨ هـ)، وإليكم نص ذلك البيان:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تعالى في السراء والضراء وعلى كل حال، ونشكو اليه ما لقيه اخواننا المسلمون في زماننا هذا من المشركين بباكستان ومن اليهود بفلسطين، ولقد صدق عملهم بالمسلمين ما أخبرنا الله تعالى به في كتابه الكريم: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون).[١]

ولكن العجب والأسف كله من صنع اليهود، فإنهم بعدما كانوا تحت حماية الإسلام والمسلمين قريباً من اربعة عشر قرناً، محفوظين بنفوسهم وأعراضهم وأموالهم وشعائرهم

١ـ المائدة: ٨٢.

الدينية، قد أصبحوا في هذا الزمان ينتقمون من المسلمين ما صنعوه اليهم في تلك المدة المديدة من الإحسان، فجعلوا يقتلون رجالهم الصالحين بالفتك والغيلة والقتال، ويقتلون ذراريهم، ويهتكون أعراضهم، ويخرّبون معابدهم وبيوتهم ولا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون.

فنسأل الله تعالى أن ينصر المسلمين نصرا عزيزا، ويجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيرا، وان يخذل هذا القوم الذين لم يراعوا حق المسلمين، ويضرب عليهم الذلّة والمسكنة، ويجعلهم أذلّ الأمم، ونرجو من إخواننا المؤمنين ببلاد ايران وغيرها أن يجتمعوا في الدعاء عليهم بالخذلان، ولإخوانهم المسلمين بالنصر والغلبة.

اللهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم ومرابطيهم في مشارق الأرض ومغاربها، واخذل أعداءهم وفرّق بين كلمتهم، والق الرعب في قلوبهم، وأنزل عليهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين، وصل على اشرف انبيائك محمد وآله المنتجبين.

حسين الطباطبائي البروجردي

ج. مشاريعه الخيرية

كان السيد البروجردي بحق من مصاديق قوله سبحانه: (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)[1] فقد كانت له في القلوب محبة عريقة وود أصيل، وفي الوقت نفسه عظمة ومهابة، وكانت مهابته تملأ القلوب، وقد اكتسب ذلك الحب بخدماته الجليلة طيلة عمره لاسيما مشاريعه الخيرية، فقد بنيت بأمره وتحت إشرافه مساجد في ايران وخارجها ومدارس علمية ومستوصفات، حتى أنه (قدس سره) في عام المجاعة في بروجرد بذل جلّ ما يملك للفقراء.

ومن أهم مشاريعه العمرانية مسجد (هامبورغ) الذي هو ملجأ لعامة المسلمين في تلك البلاد النائية يقام فيه الجمعة والجماعة، وتحضره عامة الطوائف في مختلف الأوقات.

---

١. مريم: ٩٦.

د. نشر الإسلام

كان السيد البروجردي على إيمان بأن الغرب لو اطلع على حقيقة الإسلام لرغب اليه بشوق، فإن الغرب وإن كان نهض ضد القيم الأخلاقية، إلا أن فيه رجالاً وأعين لو وقفوا على الاسلام لاعتنقوه، وفي ظل تلك العقيدة بعث نخبة من فضلاء الحوزة الى المانيا، فصار ذلك سبباً لتوثيق الصلة بين جامعة قم الاسلامية والمراكز العلمية فيها، كما بعث دعاة الى سائر نقاط العالم.

هـ. احياؤه للتراث الشيعي

إن علماء الإمامية قاموا بخدمات جبارة من خلال تأليف موسوعات وكتب ورسائل في مختلف العلوم، لكن مما يؤسف له أن اكثر هذه الكتب رهينة محبسين: رداءة الطباعة، وعدم اطّلاع المحققين على هذه الكتب، فشمّر (قدس سره) عن ساعد الجد وقام بنشر كثير من المخطوطات التي لم تر النور، ويمكن أن تعد الكتب التالية من ثمرات جهوده على هذا الصعيد:

- (الخلاف) للشيخ الطوسي فقد طبع في جزئين في مجلد واحد.
- (قرب الإسناد) للحميري.
- (مفتاح الكرامة) للسيد محمد جواد العاملي: الجزء التاسع والعاشر.
- (جامع الرواة) للأردبيلي.
- (النص والاجتهاد) للسيد عبدالحسين شرف الدين العاملي.

ومن اهمّ ما قام به هو أنه أشار الى الشيخ محمد تقي القمي الأمين العام لجماعة دار التقريب أن يقوم بنشر (المختصر النافع) للمحقق الحلي، فقد كان لنشر هذا الكتاب صدى عظيم في الأوساط العلمية في القاهرة، حتى نفذت نسخه الناهزة ستة آلاف خلال شهرين. [1]

---

١. انظر كيفية نشره ومدى تأثيره في الأوساط العلمية في مصر، رسالة الاسلام، العدد الثالث من السنة التاسعة.

و. حبه للعلم والعلماء

كان السيد البروجردي يحب العلم والعلماء من كافة الطبقات، وكان يقدم الحوار العلمي على سائر الحوارات، ومع كبر سنه إذا دخل مجلسه كبير من العلماء يقوم له احتراماً ولو بمعونة الآخرين.

وبما أنّ كاتب هذه السطور أدرك من حياة السيد قرابة خمسة عشر سنة، وتتلمذ عليه سنين عديدة، فإنه يحتفظ بذكريات عطرة عنه يضيق بنقلها المجال.

هكذا كانت حياة سيدنا الراحل، فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حياً.

المرجعية الدينية والتقريب بين
منهج الفقيه المحقق السيد البروجردي (ره)
المذاهب الاسلامية
في بحث ولاية الفقيه

الشيخ محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكومة الاسلامية من ضروريات الدين

لا أعرف فقيها يعتبر الحكومة الاسلامية واقامتها من ضروريات الدين، بما تحمل هذه الكلمة من مدلول فقهي خطير. فان ضروريات الدين هي الامور التي يلازم انكارها انكار الدين رأسا، وهو بمعنى الارتداد، وذلك أن التشكيك في الامور الثابتة عن رسول الله(ص) بالضرورة بمعنى الشتكيك في الرسالة والنبوة. والتشكيك في الرسالة والنبوة من الارتداد باتفاق كلمات الفقهاء.

وقد لاحظت في كلمات آية الله الفقيه المحقق السيد البروجردي رحمه الله اعتبار الحكومة الاسلامية من ضروريات الدين.

ورأيه هذا يذكره عنه تلاميذه الذين كتبوا دروسه التي القاها في بحث صلاة الجمعة.

اجمال البحث

يقرر السيد البرورجدي رحمه الله هذه الحقيقة ضمن أربع نقاط:

النقطة الاولى: أن للحياة الاجتماعية متطلبات وضرورات لا يمكن ان ينهض بها الأفراد. ولا يتأتى الا من قبل الانظمة السياسية والادارية (الحكومة والدولة) مثل شؤون الامن الداخلي والخارجي والقضاء.

النقطة الثانية: إن الشريعة الاسلامية لم تهمل هذه المتطلبات بالضرورة. واولاها اهتماما كبيرا في صلب التشريع ولابد أن تقرر الشريعة لهذه الضروريات من ينهض بها في المجتمع لإدارة المجتمع وتنظيم حركته السياسية.

النقطة الثالثة: أن الشؤون الأدارية والسياسية في المجتمع لا تكون مفصولة في الاسلام عن الشؤون الدينية للمجتمع مثل إقامة صلاة الجمعة والعيدين وشؤون الدعوة. وقد اقترنت هاتان المهمتان بعضها ببعض منذ عهد رسول الله(ص) الى نهاية عصر الخلافة، وتلقاها المسلمون من مسلمات أحكام هذا الدين.

النقطة الرابعة: أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يتولون من أمور اتباعهم وشيعتهم ماكان يتولاه الخلفاء من أمور عامة المسلمين. وكانوا يرون أن التصدي للولاية والزعامة العامة من حقهم، ويعرف ذلك كل من قرأ سيرتهم وأحاديثهم. وكان اصحابهم وشيعتهم يرون أنهم (عليهم السلام) هم المرجع الذي يجب أن يرجعوا اليهم في شؤون دينهم ودنياهم كما يردع الناس الى الخلفاء. ولسنا نشك أن الائمة كلهم كانوا يتصدون من امور شيعتهم واتباعهم ماكان يتصداه الخلفاء من امور عامة المسلمين.

والنتيجة المترتبة على هذه النقاط الاربعة أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا يتصدون من أمور اتباعهم وشيعتهم مايتصداه الخلفاء والحكام يومذاك، وكانوا ينصبون لأتباعهم وشيعتهم في شؤون دنياهم ودينهم من يتولى امورهم اذا كانت الظروف الامنية والسياسية لا تسمح لشيعتهم بمراجعتهم واخذ حكمهم ورأيهم في المسائل العامة. فلم يكن يتيسر لاتباع اهل البيت(ع) مراجعة أئمتهم (ع) وذلك للظروف الامنية التي كانت تحيط بهم غالبا، والتي كانت تجعل من العسير مراجعتهم بالاضافة الى أن اتباع اهل البيت(ع) كانوا قد توسعوا وانتشروا في البلاد من آسيا الوسطى شمالا الى المغرب الافريقي غربا الى بلاد خراسان الواسعة في الشرق، ولم يكن من الميسور لشيعة اهل البيت في هذه الاقطار البعيدة مراجعتهم (عليهم السلام). ولم يكن من الممكن لهم أهمال الشؤون التي تتطلب الولاية الشرعية مثل الولاية على اموال القصر والتصرف فيها وجباية الاموال العامة التي يعود التصرف فيها إلى أمر ولي امر المسلمين وإذنه مثل الاخماس والزكوات وما أشبه ذلك. كما لم يكن من الجائز مراجعة الحكام الجائرين والخلفاء الذين كانوا أهل البيت ـ ع ـ ينهون شيعتهم واتباعهم من مراجعتهم والركون اليهم، ويرون أن ذلك من الركون الى

الظالمين الذين نهانا الله تعالى عنه.

فلا محاله لابد أن يعينوا وينصبوا لشيعتهم من يتولى هذه الامور من علماء اصحابهم.

هذا في عصر الحضور.

اما في عصر الغيبة، حيث كانت تنقطع العلاقة بينهم (ع) وبين اتباعهم بشكل كامل.. كانت تبرز الحاجة الى وجود مثل هذه المواقع المسؤولة من شؤون الناس العامة (الولاية العامة) اكثر من ذي قبل.

وقد كان الائمة (عليهم السلام) يعدون شيعتهم لمثل هذا العصر ويخبرونهم عنه وبأن هذا العصر سوف يطول.. فلم يكن من الممكن أن يهمل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) امر اتباعهم الذين لا يرجعون في شؤون دينهم ودنياهم الى غيرهم طيلة هذا العصر من غير أن ينصبوا لهم على نحو الخصوص او العموم من يرجعون اليهم في عصر الغيبة، كما لم يكن ذلك من الممكن في عصر الحضور، الا أن هذه الحاجة تبرز اوضح واقوى في عصر الغيبة.

كل ذلك واضح لانشك فيه، ولا نشك أن أصحاب الائمة (عليهم السلام) كانوا يسألون عما يصنعون في شؤون ديناهم في عصر الغيبة وفي عصر الحضور ايضا عندما لا تتيسر لهم مراجعتهم والوصول اليهم.. وان الائمة (عليهم السلام) كانوا ينصبون لهم في عصر الحضور والغيبة من يتولى امورهم، ويملك فيهم الولاية الشرعية التي يحتاجها الناس في دنياهم.. غير أن هذه المراجعات والاجوبة قد فقد اكثرها ولم يبق في المجامع الروائية غير عدد يسير منها مثل مقبولة عمر بن حنطلة ومارواه ابو خديجة في هذا الباب وغيرهما.

اشتراط الفقاهة في ولي الامر

واذا ثبت ذلك كله، ولسنا نشك فيه، نقول انه لم يعمد من احد من الفقهاء القول بنصب غير الفقيه لهذا المنصب. وكل من قال بالولاية في عصر الغيبة بالنيابة عن الامام المعصوم(ع) ففد اشترط الفقاهة في ولي الامر. بالنيابة، في عصر الغيبة.

فالامر يدور بين عدم نصب احد للولاية في عصر الغيبة بالنيابة عن الامام المعصوم، وهو

ما تثبت بطلانه، أو تخصيص النصب للولاية بالفقهاء خاصة، ولا قائل بالفرض الثالث وهو نصب غير الفقيه للولاية.

واذا دار الامر بين الفرض الاول والثاني فلا محالـه يتعين القول بالفرض الثاني لبطلان الفرض الاول، وهو إهمال النصب وإهمال شؤون المؤمنين من اتباع أهل البيت(ع) في عصر الغيبة او الاذن لهم بمراجعة الحكام الظلمة الذين نهى اهل البيت(ع) اتباعهم عن مراجعتهم والتحاكم اليهم، وعدوا ذلك من التحاكم الى الطاغوت الذي نهى الله تعالى عنه بقوله تعالى (الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت، وقد أمروا ان يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (النساء/ ٦٠).

فلابد اذن أن يكون الفقهاء، هم المنصوبون في عصر الغيبة لولاية أمر المسلمين عامة بموجب المقدمات المتقدمة.

هذه خلاصة اراء السيد البروجردي (رحمه الله) في ولاية الفقيه في عصر الغيبة، أنطلق فيها الى القول بولاية الفقيه دون ان يلجأ الى الاستدلال بالروايات والاحاديث التي لا تخلو من مناقشات ومؤاخذات علمية، والتي يقول عنها الشيخ الانصاري (ره) إن الاستدلال بها أشق من خرط القتاد.

وفيما يلي تفصيل وايضاح وبسط لبعض النقاط المتقدمة الذي يحتاج الى بسط وتفصيل.

تفصيل النقطة الاولى

للحياة الاجتماعية حاجات ومتطلبات ضرورية لايمكن أن ينهض بها الفرد في أي مجتمع من المجتمعات. وأهم هذه الضرورات ثلاثة.

أولا: الخدمات الاجتماعية البالغة حد الضرورة، وهي تحتل مساحة واسعة من حياة الناس مثل الخدمات الصحية والتربية والتعليم والمواصلات، وامثال ذلك، وهذه الخدمات تتوسع وتزداد وتتعقد كلما تقدم الزمان، وتطورت حياة الانسان.

ثانيا: القضاء وحسم الخلافات والمشاكل التي يتعرض لها الناس في علاقاتهم وتعاملهم عادة.

ثالثا: توفير الامن في حياة الناس من العدوان الداخلي وهو عدوان بعضهم على بعض، والعدوان الخارجي، وهو يتطلب وجود رقابة اجتماعية قويه وانزال العقوبات القانونية لحماية أمن الناس من الداخل، وحفظ اموال الناس وأعراض الناس وحفظ أموال القصر والأموال والثروات العامة من الضياع والتلاعب والعدوان، كما يتطلب وجود قوة عسكرية نظامية لحفظ أمن المجتمع من الخارج.

وليس من شك في ضرورة هذه الحاجات في الحياة الاجتماعية، وإختلال الحياة الاجتماعية من دونها، كما لاشك أن هذه الحاجات لايمكن ان ينهض بها الفرد إطلاقا. ولا يتيسر القيام بهذه الحاجات إلا من خلال الهيئة الحاكمة والنظام السياسي والاداري للمجتمع.

إن الدولة بكل مكوناتها هي المؤسسة الوحيدة التي تستطيع القيام بهذه المهمات في حياة الناس، وضرورة هذه الحاجات في حياة الناس تساوي ضرورة قيام الدولة في المجتمع للقيام بهذه المهام.

يقول امير المؤمنين علي(عليه السلام) (لا يصلح الناس الا أمير بر أو فاجر).

قالوا: يا امير المؤمنين ، هذا البر فكيف بالفاجر؟

قال: «إن الفاجر يؤمن الله به السبيل، ويجاهد به العدو، ويجني به الفيء، ويقيم به الحدود، ويحج به البيت ، ويعبد الله فيه المسلم حتى يأتيه اجله»[1].

تفصيل النقطة الثانية

تتناول الشريعة كل الشؤون التي ذكرناها في النقطة المتقدمة بشكل واسع ومنظم وتتشابك الاحكام التي لا يمكن تنفيذها الا من خلال وجود سيادة شرعية (دولة ونظام) في ابواب الفقه المختلفة حتى يكاد ان يكون هو الطابع العام لأوسع مساحة في الفقه.

ففي العبادات، وهي تخص العلاقة بين العبد وربه نجد أن طائفة واسعة من العبادات

١- كنز العمال ٥/٧٥١/ الحديث ١٤٢٨٦.

مصممة لكي تتم ممارستها من خلال وجود نظام سياسي واداري وسيادة شرعية، مثل صلاة الجمعة والعيدين والحج.

وتربط الشريعة نظام علاقة الانسان باسرته في شؤون الزواج والطلاق والنفقه والميراث وهي مايسمى اليوم بـ (الاحوال الشخصية)، ولا يمكن تنفيذ هذا النظام بشكل كامل من دون (القضاء).

وتتناول الشريعة تنظيم علاقات الناس بعضهم بعض في الأموال والحقوق وهو (الاحكام المدنية) و(المعاملات)، وهي كذلك تحتاج الى رقابة الدولة القضاء.

وتتناول الشريعة احكام الرقابة الاجتماعية للمجتمع ولاجهزة الدولة بالتشريع وهو نظام (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(الحسبه).

كما تنظم الشريعة علاقات الناس بالحاكم والهيئة الحاكمة وهي (الاحكام السلطانية) وتتناول (القانون الاداري) و(الحقوق الدستورية) وتنظم الشريعة واردات الدولة ومسؤولياتها المالية وهي (النظام الدولي) واحكام الزكاة والخمس والانفال والفيء كما تتناول الشريعة ما يحدث على الناس من الخلافات بالتشريع والتفصيل، وتحدد الجزاء والعقوبات بشكل دقيق وهو (باب القضاء) وقانون (العقوبات والجزاء). كما تنظم الشريعة علاقة الدولة الاسلامية بالدول الاخرى، في السلم والحرب، وهو مايسمى بـ (القانون الدولي).

.. ولا نريد أن ندخل في تفاصيل البحث عن هذه النقطة فهي كثيرة، وكما قلنا سابقا تشتبك احكام الولاية والسيادة السياسية والحاكمية بابواب الفقه المختلفة حتى تكاد أن تغطي أوسع مساحة في الفقه من العبادات الى المعاملات والعقود والايقاعات والسياسات.

الخطابات الشرعية الموجهة الى الهيئة الاجتماعية

استطرادا في هذا البحث ذكرت في كتاب (ولاية الامر) [1] إن الخطابات الشرعية الموجهة الى الذين آمنوا أو الى الناس على ثلاثة أنحاء: فقد يتعلق الحكم بعامة الناس، ولكن

---

١ - ص ١٦ – ١٨ و ص ٢٦ - ٣٩ من كتاب ولاية لكتاب هذا المقال ط المركز العالمي للبحوث ١٤١٦.

على نحو البدلية، فيسقط الحكم بامتثال البعض له، وهي الواجبات الكفائية التي تحقق فيها غاية لحكم بامتثال البعض بمافيه الكفاية كالطبابة والتعليم واغاثة المنكوبين وما اشبه ذلك، ومثال ذلك في القرآن قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم واذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون).

والنحو الثاني من الخطاب الشرعي ما يتعلق الخطاب بالجميع على نحو الاستغراق، ولايسقط الواجب بامتثال البعض له كما في (الواجبات الكفائية)، ولكن لكل فرد من المكلفين امتثال خاص وعصيان مستقل عن غيره، وينحل الخطاب في امثال هذه الموارد الى خطابات عديدة كثيرة عدد المكلفين، ويكون لكل مكلف خطاب خاص به، وامتثال او عصيان يخصه.

مثل قوله تعالى (وأن اقيموا الصلاة واتقوه) الانعام/ ٧٢.

(اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل). (الاسراء/ ٧٨).

(كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم) (البقرة/ ١٨٣).

(واتموا الحج والعمرة لله) (البقرة/ ١٩٦).

وهذه طائفة واسعة من الخطاب الشرعية تعم المكلفين على نحو الاستغراق، وتنحل الى خطابات عديدة وكثيرة عدد الملكفين.. وهذه هي الواجبات العينية في مقابل (الواجبات الكفائية).

وطائفة ثالثة من الخطابات تتوجه الى العموم، ولكن على النحو الجمعي (المجموعي) دون أن تنحل الى خطابات عديدة عدد المكلفين المخاطبين بهذا الخطاب، وذلك أن هذه الطائفة من الخطابات لا تتوجه الى الافراد أساساً، كما في الطائفة الاولى والثانية، وانما تتوجه الى الهيئة الاجتماعية (مجتمعة) ولايكون له امتثال واحد او عصيان واحد، ولايمكن فيها أن يتعدد العصيان والامتثال عدد المكلفين.

وهذه الخطابات تخص الامور التي لا تتأتىمن الافراد عادة، مثل اقامة الحدود والأمر بالقتال. فلا يمكن أن ينهض فرد واحد بإقامة الحدود والقضاء، وانما المخاطب بالقتال

والقضاء وامثالهما من الاحكام الهيئة الاجتماعية، وذلك لان التنفيذ الفردي لهذه الاحكام يؤدي الى اختلال واسع في الحياة الاجتماعية، والحالة الصحيحة لتنفيذ امثال هذه الاحكام وهي كثيرة الحالة الاجتماعية المركزية.

ومثال ذلك في القرآن قوله تعالى:

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) (المائدة/ ٣٨).

(الزانية والزاني فأجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) (النور/ ٢).

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) (الانفال/ ٣٩).

وامثال ذلك في القرآن كثير.

ونحو قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) (آل عمران/ ١٠٤).

فليس كل المسلمين مقصودين في هذه الاية بالخطاب لمكان قوله تعالى (ولتكن منكم امة) و(من) في الآية الكريمة ظاهرة في التبعيض والأمة هي الجماعة، فالآية تخص جماعة من المسلمين، وليس كل المسلمين في مقابل الآيات التي تعمم حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل المسلمين، مثل قوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) حيث توجه الحكم الى عموم المؤمنين. ونحن نفهم من هاتين الآيتين أن للامر بالمعروف والنهي عن المنكر منهجين واسلوبين: المنهج العام وهو مؤدي الخطاب الثاني، والمنهج الخاص الذي يتم من خلال هيئة مسؤولة من قبل الدولة في مراقبة احوال الناس ويمتلك صلاحيات التأديب والتعزير، من قبل القائمين بنظام الحسبه في المجتمع.

وتنفيذ امثال هذه الاحكام، وهي كثيرة وواسعة في الشريعة يحتاج الى حالة نظامية يتوفر فيها ثلاثة امور:

١ـ القوة والنفوذ اولا .

٢- والشرعية ثانيا.

٣- والمركزية ثالثا.

وهي مقومات (الدولة) بتعبير دقيق.

النقطة الثالثة

إن السيرة الثابتة منذ عهد رسول الله(ص) الى آخر ايام الخلافة هي وحدة الزعامة الدينية والسياسية. وعندما هاجر رسول الله(ص) الى المدينة اقام في المدينة حكومة ورئاسة بالمعنى الدقيق للكلمة، وتولى هو (ص) رئاسة هذه الحكومة الى جنب الاعمال الدينية الاخرى التي كان يقوم(ص) بها من اقامة الجمعة والجماعات والدعوة الى الله، والتبليغ والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وكان (ص) يمارس القضاء، ويقود الجيش ويحكم البلاد، وينصب القضاة والولاة وقادة الجيش، وتجتني اليه الاموال، وكان المسجد هو مركز وموقع رئاسة الدولة. وجرى على هذه السيرة الخلفاء من بعده، ورغم كل الظلم والانحرافات التي حصلت في جهاز الخلافة آيام بني امية وبني العباس لم تتغير هذه السيرة، وكان الخليفة يتولى شؤون الناس الدينية وفي نفس الوقت يتولى الزعامة السياسية ورئاسة الدولة.

واستقرت هذه السيرة في نفوس المسلمين تعمقت خلال فترة الخلافة الاسلامية في التاريخ.

ورغم اختلاف المسلمين وتفرقهم في أمر الخلافة بعد رسول الله(ص) لم يختلف المسلمون في امر هذه السيرة، وهي وحدة الزعامة الدينية والزعامة السياسية في المجتمع الاسلامي.

والنتيجة التي نستنتجها من هذه النقاط الثلاثة هي أن قيام الرئاسة والحكومة الاسلامية في المجتمع الاسلامي. ووحدة الزعامة الدينية والسياسية من الضروريات المركوزة والثابتة في اذهان المسلمين منذ هجرة رسول الله(ص) الى المدينة الى آخر عصر الخلافة الاسلامية.

النقطة الرابعة

كان أئمة أهل البيت (عليهم السلام) يعتقدون أن الامامة والخلافة من بعد رسول الله(ص) لهم، وكان اتباعهم وشيعتهم يتعاملون معهم بعنوان ائمة المسلمين وخلفاء رسول الله(ص) . واذا أخذنا بنظر الأعتبار النتيجة التي استخلصناها من النقاط الثلاثة المتقدمة.

عرفنا أن أتباع اهل البيت(ع) كانوا يرجعون الى أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فيما كان يرجع فيه عامة المسلمين الى الخلفاء، من شؤون دينهم ودنياهم: وهذه النتيجة في سياق النقاط السابقة قطعية. فلم يكن يعرف اتباع اهل البيت وشيعتهم مرجعاً لهم في الشؤون الى تتطلب تدخل ولي الامر مثل الأموال العامة وأموال القصر والغائبين، غير ائمة أهل البيت(عليهم السلام). والاخبار الواردة عن اهل البيت عليهم السلام والاسئلة والأجوبة بينهم وبين شيعتهم حافلة بهذا المعنى، ولسنا نحتاج الى التوقف اكثر عند هذه النقطة.

النتيجة

والنتيجة الى تستخلصها من النقاط المتقدمة أن الائمة عليهم السلام كانوا ينصبون لشيعتهم في البلاد من يتولى امور دنياهم في عصر الحضور.. فلم يكن من الميسور لشيعتهم مراجعتهم كلما ارادوا وكلما احتاجوا اليهم في شؤونهم.

فقد ضيق حكام بني العباس على اهل البيت تضييقاً شديداً، وحبسوهم ومنعوا عنهم الزيارات واخضعوهم لرقابة أمنية مشدده مما جعل اللقاء بهم غير متيسر دائما، كما أن شيعة اهل البيت(ع) كانوا قد توسعوا في البلاد في هذه الفترة، ولم يكن من الممكن لهم أن يتلقوا بهم عليه السلام كلما ارادوا. ولذلك نجزم نحن أن الائمة (ع) كانوا قد نصبوا لشيعتهم وكلاء عنهم يتولون من امور دينهم ودنياهم ماكان يتولاه القضاة والحكام المنصوبون من قبل الخلفاء في البلاد، هذا في عصر الحضور.

في عصر الغيبة

أما في عصر الغيبة فإن الحاجة الى تعيين وكلاء منهم(ع) لأدارة شؤون اتباعهم وشيعتهم يكون اوضح واظهر.

ونحن نجزم انطلاقاً من النقاط الاربعة المتقدمة أن أهل البيت عليهم السلام كانوا قد

نصبوا لشيعتهم في عصر الغيبة، نصباً خاصا وعاماً من يتولى امورهم، غير أن اكثر هذه النصوص قد ضاع فيما ضاع من تراث اهل البيت(عليهم السلام) ولم يبق سوى روايات قليلة مثل:

مقبوله عمر بن حنظلة ورواية أبي خديجة وغيرهما، والروايات التي تدل على نصب النواب الاربعة في عصر الغيبة الصغرى.

ونحن لا نستند على هذه الروايات كي نواجه التشكيك في أسناد هذه الروايات ودلالاتها.. وأنما نستشهد بهذه الروايات على صدق النتيجة التي توصلنا اليها من خلال النقاط الاربعة :المتقدمة.

البدائل

واستطرادا لهذا البحث نود ان نذكر هنا ماذكرناه في كتاب (ولاية الامر) [1].

وكتاب (علاقة الحركة الاسلامية بولاية الامر) في هذا الباب[2].

فقد قلنا أننا نجزم بان اهل البيت(ع) قد نصبوا لشيعتهم من يتولى امورهم في الاموال العامة والقضاء والقضايا السياسية وغيرها من شؤون الحكم والسياسة والادارة. والان نقول أن البديل لهذا النصب هو أحد امرين، لا نشك في بطلانهما، وهما:

قبول الفوضى في الحياة الاجتماعية والاداريةوالمالية. من غير نظام ولا سيادة، ولا قرار مركزي، وهو أمر نقطع ببطلانه وفساده، ونجزم بأن الشارع يرفضه رفضا قطعيا .. هذا أولا، والبديل الثاني، هو قبول ولاية الظالمين وسيادتهم، والدخول في طاعتهم والتعاون معهم والركون اليهم، وهو ايضا باطل بضرورة الكتاب والسنة المتواترة – فيما ورد من حرمة التعاون مع الظالمين.

---

١ - ص ٤٦ – ٤٨ من كتاب ولاية الامر لصاحب هذا المقال.

٢ - ص ٣٢ – ٣٨ من كتاب (علاقة الحركة الاسلامية بولاية الأمر) لصاحب هذا المقال.

واذا عرفنا بطلان البديل الاول والبديل الثاني، بضرورة الدين فلا يبقى الا الفرض السابق، وهو صدور النصب من قبل الأئمة عليهم السلام لعصر الغيبة، بالنصب العام او الخاص، وليس هناك فرض رابع في البين.

ادلة حرمة قبول ولاية الظالمين

ولا نشك في حرمة قبول ولاية الظالمين والدخول في طاعتهم وقد دلّ على ذلك الكتاب ومتواتر السنة.

يقول تعالى: (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) (هود/ ١١٣).

والركون هو السكون اليهم. وهو محرم بصريح الكتاب. وليس من شك ان قبول ولايتهم والدخول في طاعتهم والاطمئنان الى مؤسساتهم الامنية والسياسية والادارية والخدمية من أبرز مصاديق الركون.

ولاشك أن الحكام الذين يحكمون بغير ما انزل الله تعالى ظالمون، وعملهم من أبشع الظلم وأقبحه.

يقول تعالى: (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) (البقرة/ ٢٢٩).

ويقول تعالى: (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون). (المائدة/ ٤٥).

وقد نفى الله تعالى ان يكون للكافرين على المؤمنين سبيلا.

قال تعالى: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (النساء/ ١٤١).

والسبيل هو السلطة والنفوذ. والنفي هنا نفي تشريعي ، وليس تكوينيا. بدليل وقوع السبيل تكوينا للكافرين على المؤمنين كثيرا. فلابد أن يكون المقصود من النفي (لن يجعل الله) النفي في التشريع، وهو الحرمة.

ومن ذلك قوله تعالى: (الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك، وما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن

يضلهم ضلالا بعيدا) (النساء/ ٦٠).

والطاغوت كل متعد وكل معبود من دون الله[1].

ومن ذلك قوله تعالى: (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) (الكهف/ ٢٨).

ويقول تعالى (فاصبر لحكم ربك، ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (الانسان/ ٢٤).

والآيات والروايات بهذا المعنى كثيرة، نقتصر منها على ماذكرنا.

وبهذا يتضح أن ـ الدخول في طاعة الظالمين من غير ضرورة ولا ضرر ـ حرام بضرورة الكتاب والسنة.. واذا كان الامر كذلك، وعرفنا أن الشارع يرفض للناس الحياة من دون نظام وسيادة وقانون. فلا يبقى امامنا الا افتراض أن الشارع قد نصب للمسلمين إماماً وامرهم باقامة الدولة، وتمكين اولياء الامور من الحكم والولاية.

شرط الفقاهة

واذا ثبت النصب، فلابد أن يكون النصب عاما، لعدم ثبوت النصب الشخصي والنصب الشخصي لا يثبت الا بالتنصيص والتصريح، وهو منتف قطعاً في عصر الغيبة الكبرى.

ولابد أن يكون النصب العام خاصاً بالفقهاء، لأن أحدا من الفقهاء لم يقل بولاية غير الفقيه

والامر يدور بين انتفاء النصب رأساً، وبين نصب الفقهاء خاصة، لعدم وجود رأي ثالث وهو (نصب غير الفقهاء).

واذا عرفنا بطلان الاول يثبت لنا الفرض الثاني بالضرورة لأنحصار الامر فيهما. فلا نعهد من أحد من الفقهاء القول بنصب غير الفقهاء لهذا الامر.

وبهذا يتم الاستدلال على شرط الفقاهة في ولي الامر.

---

١ - المفردات للراغب ٣٠٥.

وبعد، على هذا المنهج العلمي يبحث الامام المحقق السيد البروجردي رحمه الله مسألة ولاية الفقيه، دون أن يلجأ الى الاستدلال بالروايات الواردة في الباب من قبل المقبولة ورواية أبي خديجة وامثالهما، وأنما يستشهد بهما وامثالهما من الروايات لتأييد مايذهب اليه من الرأي.

وقد حاولنا أن نتبع في هذه الدراسة الموجزة منهجه رحمه الله في الاستدلال، الا بعض الاستطرادات التي اصفناها الى الدليل،واشرنا فيه الى الاستطراد، وليس من إفادات الامام المحقق البروجردي.

المرجعية الدينية والتقريب بين المذاهب الاسلامية

السيد محمد باقر الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ فكرة الوحدة الاسلامية والتقريب بين المذاهب الاسلامية، وبالأحرى فكرة التعايش المذهبي بين المسلمين والاحترام المتبادل بين اتجاهاتهم المذهبية والاجتهادية، من الأفكار التي كانت موضع الاهتمام الخاص والقبول لأئمة أهل البيت عليهم السلام واتباعهم منذ البداية وفي الصدر الأول الاسلامي، وذلك عندما وجدت ظاهرةالاختلاف في الفهم للاسلام والاجتهاد في تفسيره سواء على المستوى الفكري والنظري او على المستوى السياسي والاجتماعي.

ولم يكن ذلك – كما قد يتصور – بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بهم حيث كانوا فيها الطرف المستضعف والأضعف سياسياً واجتماعيا، بل كان ذلك بسبب الايمان النظري بقيمة الحرية الفكرية والسياسية ضمن الضوابط والقواعد الاسلامية العامة، لذلك نشاهد منهم هذا القبول والاحترام للرأي الآخر، والتعايش معه فكرياً وسياسياً حتى لو كان هذا لرأي بعيدا عن الحق والصواب في نظرهم، وفي زمان القدرة والقوة السياسية التي كانت تتحقق لهم في بعض الأحيان والمراحل.

ويشهد لذلك سيرة الامام علي عليه السلام أيام خلافته مع مخالفيه، وهو بحث تناولت جانباً منه في (كتابي الوحدة الاسلامية من منظور الثقلين).

كما يشهد لذلك أيضاً – في زمن أئمة أهل البيت(ع) – موقف الامامين محمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، والاحترام المتبادل بينهما وبين العلماء في فترتهما الزمنية ممن تحولوا بعد ذلك إلى أئمة للمذاهب الاسلامية، أوكان لهم دور كبير في

وصول هذا التراث الاسلامي الغزير الذي نجده الآن بين أيدي جمهور المسلمين.

فقد أخذ عن الامام الباقر (ع) مجموعة كبيرة من العلماء والرواة الموثوقين، كما أخذ عن الامام الصادق(ع) علماء آخرون منهم الامامان المعروفان أبو حنيفة محمد بن النعمان ومالك بن أنس.وقد كان كل من الامامين الباقر والصادق(ع) في موضع من القوة والعزة الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر مالا ينكره أحد من المسلمين حتى عرضت الخلافة في زمن ضعف الأمويين على الامام الصادق (عليه السلام) من قبل أبي مسلم الخراساني – كما يذكر المؤرخون – فلم يقبلها.

ويؤكد هذه الحقيقة موقف بعض مراجع الدين المتميزين الكبار من أتباع أهل البيت(ع) الذين كانوا ولازالوا يمثلون موقع الرمز والقدوة بين علماء وأتباع أهل البيت عليهم السلام. حيث نلاحظ فيهم وراثة هذا الاهتمام والفهم النظري والموقف العملي من قبل المرجعية الدينية – التي هي (موقع ديني واجتماعي خاص) يحظى بالاحترام والقدسية والاتباع لدى شيعة أهل البيت(ع) من الامامية الاثني عشرية – وذلك منذ الغيبة الصغرى للامام المهدي عجل الله فرجه الشريف وهو في عقيدتهم الدينية الامام الثاني عشر والمولود في سنة ٢٥٥ والذي لايزال حياً وغائباً عن الأنظار يقوم بدور الامامة في مثل هذه الحالة الاستثنائية.

وامتياز هؤلاء الاعلام بهذا الاهتمام بصورة واضحة قد يكون لأسباب عديدة ومختلفة تتعلق بأشخاصهم وظروفهم الخاصة أو ظروف المجتمع الاسلامي الذي كانوا يعيشون فيه، ولكن في الوقت نفسه يعبر عن اتجاه فطري وعملي لدى الامامية كلهم.

فمن الرعيل الأول بعد الغيبة الصغرى نجد الشيخ محمد بن أحمد بن الجنيد الاسكافي البغدادي، والشيخ محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصدوق، والشيخ محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد والسيد علي بن الحسين بن موسى المعروف بالشريف المرتضى والشيخ محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي.

وجاء بعدهم أعلام آخرون في القرون الأخرى مثل الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن

الطبرسي صاحب كتاب التفسير المعروف بـ (مجمع البيان)، ومحمد بن الحسن نصير الدين الطوسي الذي كان له الفضل الكبير في المحافظة على العلم والعلماء من جميع المذاهب والتراث الاسلامي لجميع المذاهب الاسلامية في زمن الهجوم الوحشي الثاني للمغول على العالم الاسلامي بقيادة هولاكو.

والحسن بن يوسف بن المطهر المعروف بالعلامة الحلي الذي كان له دور كبير في احياء الفقه المقارن والحوار المذهبي العلمي، والشهيدان الأول والثاني اللبنانيان: محمد بن جمال الدين مكي العاملي وزين الدين الجبعي العاملي، اللذين ذهبا ضحية التآمر الطائفي لما كان يتمتعان به من روح الحوار والتقريب والتسامح المذهبي. والشيخ بهاء الدين محمد بن عبد الصمد العاملي المعروف بالشيخ البهائي والسيد مهدي بن صالح الطباطبائي المعروف بـ (بحر العلوم) والشيخ جعفر بن خضر الجناحي المعروف بـ (كاشف الغطاء) والسيد ميرزا حسن الشيرازي المعروف بالمجدد الشيرازي الكبير صاحب قضية تحريم التنباك المعروفة، وغير هؤلاء عديدون ممن يمثلون ادوارا مهمة في تاريخ المرجعية ويحظون باحترام خاص متميز في أوساطها وأوساط اتباع اهل البيت عليهم السلام.

وقد كانت أدوارهم في مجال التقريب والاحترام للرأي والاجتهاد الآخر والموقف المخالف تتراوح بين: الحوارات التي كانوا يعقدونها بصورة علمية مضبوطة محفوفة بالاحترام المتبادل، وتأليف كتب الفقه أو التفسير أو الحديث المقارن، أو الاستفادة والأخذ والعطاء من علماء المذاهب الأخرى أو الافادة والعطاء لهم، أو الحماية والاسناد والمحافظة على وجودهم وتراثهم وجماعتهم. أوالاصلاح بين الحكام من المذاهب المتعددة عندما يختلفون لتجسيد الموقف الواحد أمام أعدائهم، أو في رعاية أمتهم الاسلامية، أو تحقيق الوحدة الاسلامية في اطار الموقف الواحد للأمة تجاه قضاياها المصيرية.

ولاشك أن تناول هذا الموضوع التاريخي وإن كان موضوعاً هاماً ولكنه يحتاج إلى بحث واسع لا مجال له في مقالنا هذا، وانما احاول هنا أن أذكر بعض النماذج والأمثلة لتوضيح هذه الفكرة بمقدار ما يرتبط بموضوع مؤتمرنا القائم، من خلال تناول محورين للحديث:

أحدهما: يتناول موضوع المرجعية الدينية عند الشيعة الامامية الاثني عشرية بصورة موجزة لعلاقته بهذا البحث بحيث انه موضوع يمكنه أن يلقي بعض الضوء والوضوح على الموضوع الرئيس في مؤتمرنا وهو آية الله العظمى الامام السيد البروجردي الذي كان من المراجع العظام في عصره، وشيخ الأزهر الامام الشيخ محمود شلتوت الذي يمثل أهم منصب ديني لدى جمهور المسلمين في العصر الحاضر.

ثانيهما: يتناول بعض النماذج والأمثلة للمراجع الدينيين الهامين التقريبيين من الرعيل الأول والعصر الحاضر لتصبح الفكرة واضحة نظرياً وعملياً.

المحور الأول – المرجعية الدينية[1]

من الممكن أن نكوّن تصورا اجمالياً عن المرجعية الدينية لدى الشيعة الامامية الاثني عشرية من خلال دراسة الأبعاد التالية:

الأول: الخلفية العقائدية والاجتماعية السياسية والفكرية الفقهية للمرجعية، حيث إنّ المرجعية الدينية في بعدها العقائدي تنطلق من فكرة الامامة لدى الامامية الأثني عشرية، وانّ المرجع يمثل بصورة عامة نائب الامام الغائب الحي وإن كان يختلف المجتهدون في حدود صلاحيات المرجع ونسبتها إلى صلاحيات الامام المعصوم نفسه.

وبذلك يتبين أنّ للمرجعية خلفية اجتماعية وسياسية أيضاً لأنّ الامامة لها هذا الدور، فالمرجع له مستوى من الولاية العامة، كما انه الوقت نفسه له حق القضاء وفصل الخصومات بين الناس، ويتحمل أيضا بصورة أساسية مسؤولية الارشاد والتربية والتزكية والقيادة للجماعة كما تتحملها الامامة أيضاً.

وللمرجعية دور آخر وهو دور الرجوع إليها والأخذ منها في فهم الاسلام وعقائده وأفكاره وكذلك الرجوع إليها في معرفة الأحكام والمواقف الشرعية وتفاصيل الشريعة الاسلامية

---

١ - لقد تناولت بحث المرجعية الدينية في كتاب مستقل تحت عنوان (المرجعية الصالحة) طبع جزء منه بصورة محدودة والباقي منه تحت الاعداد.

وطريقة معالجتها للحوادث والمشاكل.

ويلخص الحديث المروي عن الامام الثاني عشر المهدي المنتظر (عج) المعروف اصطلاحاً بالتوقيع وهو قوله عليه السلام عند سؤاله عن الموقف في غيبته الكبرى عندما ينقطع حبل النيابة الخاصة بعد نوابه الأربعة [وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله].

الثاني: شروط ومواصفات المرجعية، وذلك لأنّ المرجع لايكون مرجعاً إلا إذا توفرت فيه شروط أساسية مهمة، وقد اهتمّ أئمة أهل البيت عليهم السلام وجماعتهم وشيعتهم الاثنا عشرية بالتخطيط لتوفير هذه الشروط والمواصفات في جماعة من الأشخاص في كل جيل من الأجيال بحيث لم تنقطع مطلقاً الحركة التكاملية لوجود هذه المواصفات وتطورها في كل الأجيال بالرغم من بعض الظروف الصعبة التي كانوا يمرون بها.

وهذه الشروط والمواصفات هي:

أ – الدرجة العالية من الاجتهاد والقدرة على استنطاق القرآن الكريم والسنة النبوية واستنباط الحكم الشرعي منها، بحيث يكون قد مارس ذلك بصورة مستوعبة لجميع أبواب الفقه والشريعة والعقيدة الاسلامية والفكر الاسلامي ذات العلاقة بها، وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بـ (الاجتهاد المطلق الفعلي) في المعرفة الاسلامية، في مقابل الاجتهاد الجزئي أو حصول ملكة الاجتهاد دون ممارسة الاستنباط فعلاً.

ويضعون موازين وضوابط دقيقة لإحراز هذه الصفة عن طريق أهل الخبرة والمعرفة.

ب – التقوى والورع في الأخلاق والسلوك، ووجود الملكات الروحية والنفسية بدرجة عالية تؤهله لهذا الموقع وتجعله قريباً من درجة العصمة التي يعتقد بها شيعة أهل البيت الامامية الاثنا عشرية على انها صفة لازمة في أئمتهم عليهم السلام.

ولذلك يخضع المرجع لإمتحان طويل الأمد في جميع أدوار حياته: في التلمذة، والتدريس، والتبليغ، والاجتهاد وفي جميع أبعاد سلوكه في العبادة، والعلاقات الاجتماعية، والتعامل مع الناس. وقضايا الأمة، ومع الأهل والعشيرة والأصدقاء تخضع في كل ذلك وغيره إلى إمتحان

دقيق ورقابة مشددة من الأمة وأبنائها الذين يرجعون إليه ويراقبون فيه ذلك أكثر مما يراقبونه في أنفسهم وأهليهم، أو في خاصتهم ومن يعتمدون عليه في أعمالهم، ويتشددون في ذلك أكثر مما يتشددون في علمه ومعرفته حيث انهم يسعون لمعرفة ذلك بصورة شخصية.

ج — (العقل) بمعنى حسن التدبير والخبرة في إدارة الأمور العامة، والفهم الصحيح للواقع السياسي والاجتماعي وكيفية التمييز بين الصالح والأصلح، والفاسد والأفسد، والمهم والأهم، وكيفية التعامل مع هذه الأمور من خلال التجارب العملية، والمنهج الصحيح الذي يتمثل باستخدام الحكمة والرؤية النظرية والعملية للحركة السياسية والاجتماعية.

د — التصدي الشجاع والفعلي للأمور العامة وللدفاع عن الاسلام والأمة الاسلامية ومصالحها والوقوف في وجه الأعداء والمخاطر التي تحيط بها.

والشرط الثالث والرابع يشترط عادة في المرجع الديني السياسي الذي يتصدى للأمور العامة وللقيادة والولاية.

الثالث: كيفية انتخاب المرجع، انَ انتخاب المرجع يمثل عملية معقدة حيث يقوم كل فرد من أبناء الجماعة بالفحص عن الشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط لتقليده والارتباط به، وتكون هذه الشروط هي الأساس في شرعية هذا الانتخاب، ولابد أن يكون هذا المرجع هو الأفضل والأعلم بين الجميع، فهي عملية يمارسها الأشخاص بصورة ذاتية، ويمثل هذا الفحص بهذه الصورة والارتباط به واجبا شرعياً حيث لا تصح عباداته ومعاملاته بدون ذلك، وانَ أي فساد في العبادة والمعاملة دون هذا الارتباط يتحمل المكلَف مسؤوليته الشرعية ولا يكون معذورا فيه.

صحيح انه يمكنه أن يستعين في عملية الفحص بأهل الخبرة الذين يثق بهم ويعرفهم بصورة شخصية بعلمهم وبتقواهم، ولكنه في كل الأحوال يتحمل مسؤولية ذلك بصورة ذاتية، وقد يقع هذا الشخص أو ذاك تحت تأثير عوامل أخرى شخصية أو اقليمية أو ذاتية، ولكن جميع الفقهاء والعلماء يؤكدون بصورة واضحة ان هذه العوامل لا تجيز ولا تبرر

التقليد.

وهذه الطريقة في الاختيار أدت إلى وجود عدة ظواهر:

إحداهما: ظاهرة تعدد المرجعية في العالم الشيعي لطبيعة اختلاف القناعات في الوصول إلى تحقق هذه الشروط أو الوقوع تحت تأثير العوامل الأخرى، ولكنها في الوقت نفسه ومن خلال التجارب أثبتت هذه الثقافة العامة في اختيار المرجع انها أفضل ضمانة لعدم الانحراف كما كانت أفضل طريقة لتطور المرجعية وتكاملها من خلال التنافس الشريف الواجب في الوصول إلى أعلى درجات الكمال في توفير هذه الشروط حيث يجب الرجوع إلى الأفضل والأعلم من المراجع.

ثانيها: وجود ظاهرة مراجع عامين ترتبط بهم الجماعة من مختلف أقطارها الجغرافية عندما تثبت التجارب وطول المدة الأفضلية لأحدهم على الآخرين، ومراجع خاصين أو محليين ترتبط بهم جماعة محدودة من الناس في هذا المكان أو ذاك لأسباب موضوعية بسبب الاختلاف في القناعات أو لأسباب ذاتية بسبب الوقوع تحت تأثير العوامل الأخرى.

ثالثها: ظاهرة تجدد المرجعية وتطورها وتحولها من مكان إلى آخر بحسب تطور المرجع أو الحوزة العلمية التي يعيش فيها أو تطور الظروف الاجتماعية والسياسية التي تسمح للمرجع أن يعبّر عن وجوده وتطوره وحركته ويكشف عن مواصفاته المطلوبة، فلا تتقيّد المرجعية ببلد أو قطر.

رابعتها: ظاهرة وجود التنوع في المرجعية بين المرجعية الدينية الفقهية، والمرجعية الدينية الاجتماعية السياسية، حيث يظهر على بعض المراجع الكفاءة العالية — لأسباب شخصية أو موضوعية — في الجانب العلمي فيرجع إليه المقلدون في معرفة الأحكام الشرعية.

ويظهر على بعض المراجع الآخرين الكفاءة العالية في الجانب الاجتماعي السياسي لأسباب شخصية أوموضوعية فينقاد إليهم المقلدون وأبناء الأمة.

المحور الثاني ـ المرجعية والتقريب

ومن أجل توضيح الموقف العام للمرجعية الدينية تجاه فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية والتعايش الفكري والاجتماعي بينها، أشير إلى أربعة أمثلة للمراجع بشيء من التوضيح.

المثال الأول والثاني اخترتها من الرعيل الأول للمراجع، حيث يمكن أن يعبّرا عن الجذور العميقة لهذه الفكرة، والمثال الثالث والرابع من الرعيل المعاصر، حيث يمكن أن يعبّرا عن الموقف الحقيقي الذي تراه المرجعية في الظروف الفعلية التي تعيشها أمتنا الاسلامية.

وسوف يتبين من خلال الحديث عن هذه الأمثلة انّ هذا الاختيار يمثل أمرا واقعياً في حركة المرجعية، كما هو يمثل في الوقت نفسه ابعادا في قضية الوحدة والتقريب والتعايش.

الرعيل الأول للمرجعية

يمثل كل من الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه والشيخ ابن الجنيد محمد بن أحمد بن الجنيد البغدادي الاسكافي نموذجاً للرعيل الأول للمرجعية، حيث انهما عاصرا الغيبة الصغرى في بدء نشأتهما، وكانت مرجعيتهما في بداية الغيبة الكبرى.

كما انّ الشيخ الصدوق يمثل في شخصيته وتربيته ونتاجه العلمي وانتمائه المدرسي مثالا للمدرسة الفقهية الحديثية السائدة في العالم الشيعي آنذاك ولاسيما في بلاد (قم والري)، وانّ الشيخ ابن الجنيد يمثل في شخصيته وتربيته ونتاجه العلمي وانتمائه المدرسي مثالاً للمدرسة الفقهية الناشئة التي تقوم على أساس التفريع والاستنباط والاستنتاج والتي كانت ولادتها في بغداد. ويعتبر أحد مؤسسي هذه المدرسة، وإن كان قد سبقه نسبياً وعاصره فيها ابن أبي عقيل العماني الذي لا يظهر بصورة واضحة مكان استقراره ونشاطه العلمي.

١. الشيخ الصدوق

يمثل الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالصدوق مثالاً متميزاً للمرجعية الصالحة لدى الامامية الاثني عشرية، حيث كان والده علي بن الحسين من المراجع الوكلاء المحليين في عهد الغيبة الصغرى، وإلى جانب نائب الامام الحجة (عج) الحسين بن روح النوبختي، وهو يحظى باحترام متميّز أيضاً في عالم الحديث لدى الشيعة، مضافا إلى ماكان يحظى به من احترام متميز لدى الشيعة القميين والرازيين في عصره وهم نخبة الشيعة في ايران كلها، كما انّ أسرته برمتها كانت من الأسر العلمية المتميزة في ذلك العصر.

وقد كانت ولادته بين سنة ٣٠٦ – ٣١١ بدعوة من الامام المهدي (عج) في قصة معروفة تؤكدها الروايات التاريخية الموثوقة، ولذا فهو بذلك يحظى بقدسية خاصة.

وكان يتميز منذ حداثة سنه بحفظ الأخبار وروايتها بحيث (سمع منه شيوخ الطائفة وهو حديث السن) كما يذكر ذلك الرجالي المعروف بالنجاشي القريب من عصره، كما كان يتميز بكثرة الأسفار والرحلات إلى الحواضر العلمية مثل بغداد والكوفة ونيسابور وبلاد ما وراء النهر ومكة مضافا إلى قم مسكنه والري وهي أصله ومدفنه وغيرها من المناطق.

كما كانت له مراسلات كثيرة مع مختلف مناطق العالم الاسلامي مثل واسط وقزوين ومصر والبصرة والكوفة والمدائن ونيسابور وبغداد، بحيث ألف كتباً في هذه الرسائل اختص كل مِصرٍ منها بكتاب.

وامتاز ايضاً بكثرة المؤلفات في مختلف العلوم الاسلامية (العقيدة والفقه والتفسير والحديث والرجال والتاريخ) حتى قال الشيخ الطوسي عنه انّ له نحو ثلاثمائة مؤلفاً ورسالة، وبكثرة الشيوخ ومن أخذ عنهم حتى عد بعض المترجمين له مائة وثمانية وتسعين شيخاً من مختلف المذاهب والبلاد الاسلامية.

كما عرف أيضا بالحفظ للحديث والنقد له وللرجال.

وهو في شخصيته وعمله وتاريخه يمثل نموذجاً واضحاً لبداية مراحل المرجعية الدينية لدى الشيعة الاثني عشرية من ناحية، كما هو وارث مدرسة الحديث القمية من ناحية أخرى، وهو أمر يمتاز به على معاصره الآخر الذي سوف نشير إليه في المثال الثاني. كما انه يمثل الرمز في سعة الاطلاع والحركة والعلاقات بما بتناسب مع ذلك العصر، وكان ولايزال يحظى باحترام وقدسية خاصة لدى جميع أجيال شيعة أهل البيت(ع) وعلمائهم، ومن ذلك اعتبار كتابه (من لا يحضره الفقيه) أحد الكتب الأربعة المتميزة.

وقد كانت وفاته سنة ٣٨١ هجرية في مدينة الري، حيث كان ولازال قبره مزارا عاماً للمؤمنين، وقد ظهرت له كرامات عديدة.

الشيخ الصدوق والتقريب

وإذا أردنا أن ننظر إلى الشيخ الصدوق من زاوية التقريب والتعايش بين المذاهب الاسلامية، يمكن أن نلاحظ - باختصار – هذه الأبعاد التي يمكن ان تكون منهجاً وقدوة في مجال التقريب الفكري والفقهي والنظري.

الأول: العلاقات الواسعة مع مختلف الأوساط العلمية والاجتماعية في العالم الاسلامي، وهو أمر يؤكده جميع مترجميه وتؤكده كثرة أسفاره وطول المكوث فيها، بحيث انه أقام في بلاد ماوراء النهرين لمدة أربعة سنوات ألف فيها كتابه القيم الفريد (من لا يحضره الفقيه)، وعرف عنه انه قد قضى اكثر حياته في التنقل والسفر، وقد يكون في ذلك شيء من المبالغة، ولكنها تعبّر عن حقيقة هذه العلاقات الواسعة في ذلك الوقت الذي كان السفر فيه صعوبات كبيرة ولاسيما للعلماء.

ولم يكن يفرّق في أسفاره هذه وعلاقاته بين المذاهب الاسلامية إلاّ بقدر ما تفرضه طبيعة التربية العلمية والاستفادة منه والعلاقة به من امتيازات.

الثاني: الأخذ والعطاء، حيث أخذ وسمع الشيخ الصدوق من شيوخ كثيرين ومن مختلف الأقطار والمذاهب الاسلامية عدّ منهم بعض المترجمين له مائة وثمان وتسعين، كما أخذ منه

منذ حداثته شيوخ طائفته، كما اخذ منه عدد آخر من شيوخ المذاهب الأخرى.

وقد هيأت له كثرة اسفاره وتنقلاته فرصة واسعة لذلك.

الثالث: الحرية والاستقلال في التفكير بعيدا عن التعصب، ويلاحظ ذلك بوضوح في الشيخ الصدوق من خلال بعض آرائه التي يخالف بها جمهور الشيعة الامامية.

مثل القول بسهو النبي (ص)، حيث يروي ذلك كما يرويه محدثو جمهور المسلمين.

وكذلك الموقف المتشدد ضد الغلو والغلاة، حيث يبدو منه انه يرى الغلو في المغالات بنسبة الأوصاف أو الكرامات حتى مايكون منه معقولا ومقبولا، ولكن لابد فيه من الدليل والاثبات.

ويمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح عندما نقارن بين النتائج التي توصل إليها في كتابه (الاعتقادات) والنتائج التي توصل إليها تلميذه الشيخ المفيد، مما يؤكده وجود هذه الصفة في الاستقلال والحرية الفكرية بعيدا عن التعصب.

الرابع: قبول فكرة الحوار العلمي سواء على مستوى العقائد أو الفقه والممارسة له عمليا، حيث ينص المؤرخون على انه قد جرت بينه وبين علماء العامة في مجلس ركن الدولة الحسن بن ابي شجاع خمس مناظرات[1].

٢- إبن الجنيد الاسكافي البغدادي

ويمثل ابن الجنيد الاسكافي مثالا آخر للمرجعية الدينية الصالحة، ولكنه مثال يحيطه شيء من الغموض والالتباس، وقد يكون ذلك للأسباب التي سوف نشير إليها.

ويبدو أن ابن الجنيد من حيث الولادة والوفاة متقدم على الشيخ الصدوق بعقد من الزمن أو يزيد قليلا، حيث لم تثبت ولادته ووفاته بصورة دقيقة.

---

١ - رجال النجاشي / ٣٩٢ – ركن الدولة هذا كان امير (الري) ووصفه ابن الأثير بقوله كان حليما كريما واسع الكرم كثير البذل حسن السياسة لرعاياه وجنده رؤوفا عادلا بهم في الحكم بينهم وكان متحرجا من الظلم.. إلى أن قال في وفاته: اصيب به الدين والدنيا جميعا لاستكمال جميع خلال الخير فيه – الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ٦٧٣.

ولكن ولادته كانت في النهروان قرب بغداد، فهو من أبناء المدرسة البغدادية، حيث أن هذه المنطقة كانت تخرج أعداد المعلمين والكتاب والمحدثين، كما يذكر ذلك بعض المؤرخين[١].

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار ان ولادته ونشأته العلمية الأولى كانت في عصر الغيبة الصغرى وفي زمن نيابة النائب الثالث الحسين بن روح النوبختي، وقد كان مقره في بغداد، فان ابن الجنيد يكون بطبيعة الحال قريبا من المنبع الرئيسي الذي يرجع إليه أتباع أهل البيت(ع) في قضاياهم الدينية.

وقد عاش ابن الجنيد في سن الرشد العلمي والفقهي ظروفا سياسية جديدة شهدتها بغداد عند دخول آل بويه إليها واستلامهم للسلطة فيها وسياسة الحرية المذهبية والعلمية والسياسية التي اتبعوها في البلاد، وسياسة الموازنة في الانتماء المذهبي بالرغم من تشيعهم لأئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقد أدت هذه الحرية السياسية والمذهبية من ناحية وسياسة الموازنة من ناحية أخرى إلى حدوث صراعات وفتن في الشارع الشعبي بين المتعصبين من أبناء المذاهب الذين كانوا يحاولون أن يعبروا عن آرائهم وشعائرهم ومراسيمهم المذهبية، بحيث أدى إلى وقوع صدامات مادية تتسم بالقسوة والوحشية أحيانا.

ومع قطع النظر عن التحليل السياسي لخلفية قرار آل بويه باتباع هذه السياسة وعدم انتهاجهم السياسة المتبعة في ذلك الوقت من فرض الراي والموقف بقوة السلاح بعد أن كانوا هم المنتصرين، وكانت الأوضاع السياسية في ايران ومصر وسوريا أوضاعا تلتزم بهذا المنهج السياسي، حيث كانت دولة الفاطميين في مصر والحمدانيين في سوريا وآل بويه في ايران ومنها امتدوا إلى مراكز الخلافة الاسلامية، وهل أن ذلك يعبر عن الخلفية الفكرية لمذهب أهل البيت(ع) انعكست على آل بويه، أو ان ذلك بسبب الاحساس بالضعف والخوف من وجود حركة شعبية مضادة تطيح بنفوذهم الجديد، فحاولوا أن يجمعوا بين المصالح السياسية

---

١ - معجم البلدان ١/ ١٤٨.

من خلال هذه الموازنة، أو غير ذلك من الأسباب، ولكن هذه السياسة كان لها آثارها العميقة على الأوضاع الفكرية والمذهبية في الوسط البغدادي الذي كان يعيش عصره الذهبي الثقافي والفكري في ذلك الوقت.

ونلاحظ هنا أن ابن الجنيد قد حظي وحصل على شهادات قيمة في حقه من كبار علماء الشيعة الامامية الاثني عشرية، سواء في الوثاقة أو المستوى العلمي والاجتماعي، وذلك من أمثال الشيخ النجاشي الرجالي المعروف والعالم الكبير العلامة الحلي أو الألمعي المتميز السيد بحر العلوم وغيرهم من كبار علماء الرجال والتراجم أو الفقهاء المتبحرين أمثال المحقق الحلي والسيد صفي الدين محمد بن سعد أو الشهيد الأول والثاني، بل نجد أوصاف مثل (فقيه الرافضة ومتكلمهم) يطلقها عليه بعض علماء العامة كما يقول عنه ابن النديم واسماعيل باشا البغدادي بأنه كان من (أكابر الامامية).

كما أن مؤلفاته العديدة التي يسردها الشيخ النجاشي والشيخ الطوسي تدل بصورة واضحة على غزارة علمه وسعة اطلاعه وتنوع العلوم التي خاض البحث فيها والعلاقات الواسعة التي كانت لديه بالأوساط الشعبية والرسمية.

ولكن مع ذلك كله نواجه في شخصيته قضيتين ومهمتين تثير الجدل والغموض والنقاش حوله. وتؤدي إلى اتخاذ بعض المواقف السلبية الحادة تجاهه في عصره وبعده:

القضية الأولى: هو ماينسب إليه من اعتماده على القياس كدليل من أدلة استنباط الاحكام الشرعية، وهو مما لم تقل به الامامية الاثنا عشرية.

القضية الثانية: نسبة القول باعتماد الرأي والظن في استنباط الحكم الشرعي، بل نسبة اعتقاده بأن بعض ماصدر عن أئمة أهل البيت(ع) انما هو من باب الرأي والاجتهاد.

وبالرغم من كل ذلك لانجد إلا القليل جدا ممن ينتقص من شخصيته بسبب ذلك، وانما يحاول بعض العلماء أن يشكك في هذه النسبة أو يجد التفسير لها أو التبرير.

ومع قطع النظر عن هذه الأبعاد من البحث التي لا نرى لها مجالا للحديث هنا، يمكن أن نلاحظ في شخصيته الملاحظات التالية:

الأولى: انه يعتبر من كبار المراجع والعلماء في عصره.

الثانية: إن ابن الجنيد يعتبر أحد المؤسسين المهمين للمنهج الاجتهادي السائد الآن، وانه تمكن من أن يحقق تطورا وانتقالا في منهج الاستنباط لدى الشيعة الامامية من منهج الحديث أو التقيد بنصوصه إلى منهج التفريع وتطبيق القواعد والتوفيق والجمع بين الأحاديث.

الثالثة: انه كان يحظى أيضا باحترام الأوساط الشيعية العامة.

الرابعة: انه كانت له علاقة وطيدة بالدولة الحاكمة القوية وهي دولة آل بويه، والتي كانت تعيش ظروفا استثنائية وتتبع فيها سياسة التوازن الطائفي والحرية والسياسية والمذهبية.

الخامسة: إن ظهور شخصيته كانت في بداية الغيبة الكبرى للامام المهدي (عج) التي أصبحت الحاجة فيها للرجوع إلى العلماء في تفاصيل الأحكام الشرعية امرا ملحا.

وهذه الأمور الخمسة بمجموعها يمكن أن تقدم لنا تفسيرا علميا موضوعيا عن شخصيته التقريبية والتي تتمثل بالأبعاد التالية:

أ — الافتاء العام لجميع المذاهب الاسلامية من موقع المسؤولية الشرعية والأخلاقية التي كان يفرضها الوضع السياسي والاجتماعي له والفراغ العلمي.

ب — العمل على تقريب وجهات النظر وتخفيف حدة الصراع المذهبي بين المسلمين من حلال تقديم الحكم الشرعي مدعوما بالأدلة التي يعتمد عليها جميع المسلمين، ومنها دليل القياس أو الظن لاسيما وان الأحناف كانوا يمثلون القاعدة الكبيرة بين المسلمين في بغداد ذلك الوقت.

ج — اتباع المنهج الجديد في الاستنباط، وهو منهج التفريع والتطبيق للقواعد، والذي كان قريبا من منهج جمهور المسلمين في التفريع والتطبيق وأصبح بعد ذلك هو المنهج السائد بين الامامية أيضا. كان ذلك سببا لإثارة النقد والتجريح في حقه، وقد توقف هذا النقد بعد أن أصبح هذا المنهج هو المنهج المعروف.

يقول أحد العلماء في حقه بلحاظ هذا المنهج ممن كان قد اطلع على أحد كتبه العلمية المعروفة والمفقودة في الوقت الحاضر (وقع إلى من هذا لكتاب — تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة — مجلد واحد، وقد ذهب من أوله أوراق وهو كتاب (النكاح)، فتصفحته ولمحت مضمونه. فلم أر لأحد من هذه الطائفة كتابا أجود منه ولا أبلغ ولا أحسن عبارة ولا أدق معنى، وقد استعرض فيه الفروع والأصول وذكر الخلاف في المسائل وتحدث على ذلك واستدل بطرق الامامية وطرق مخالفيهم...).

ثم يشهد العلامة الحلي بعد نقل هذا الكلام عن السيد صفي الدين محمد بن سعد: (وأقول أنا: قد وقع إلي من مصنفات هذا الشيخ المعظم الشأن كتاب [الأحمدي في الفقه المحمدي] وهو مختصر هذا الكتاب، وهو كتاب جيد يدل على فضل الرجل وكماله وبلوغه الغاية القصوى في الفقه وجودة النظر، وإن ذكرت خلافه وأقواله في كتاب مختلف الشيعة في أحكام الشريعة) [١].

د — الابتعاد عن التعصب في الحركة العلمية والثقافية والاستفادة من جميع الامكانات الفعلية. ومنها استخدامه طريقة المعتزلة في الحوار والمناظرة، بحيث أدى ذلك إلى اتهام بعض علماء الجمهور المتعصبين له بسرقة هذا المنهج من المعتزلة، مع ان منهج الامامية في حرية التفكير والمناظرة له تاريخه العريق والمتجذر الذي ينتهي إلى تاريخ أئمة أهل البيت(ع) وعصر الصادقين (عليهما السلام) على الأقل.

وبذلك نخلص إلى تبين وجود مثال آخر تقريبي يمثل مدرسة أخرى، وهي مدرسة البغداديين التي تبلورت بعد ذلك على يد الشيخ المفيد والسيد المرتضى، واستقرت على يد الشيخ الطوسي. كما انه مثال يعبر عن المرجعية السياسية الدينية العامة التي يعتبر من أهم معالمها تقديم مصالح الأمة على مصالح الشخص والجماعة.

---

١ - ايضاح الاشتباه ٢٩١ - ٢٩٢.

الرعيل المعاصر للمرجعية

يمثل المرجعية الدينية في العصر الحاضر عدد كبير من المراجع الدينيين منذ بداية القرن الرابع الهجري وحتى يومنا الحاضر، حيث كانوا يتميزون بصورة واضحة في منهجهم التقريبي أمثال السيد ميرزا حسن الشيرازي الكبير الذي كان انتقاله إلى سامراء وتطوير علاقته بالخلافة العثمانية يمثل خطوة مهمة في هذاالاتجاه وذلك للمحافظة على وحدة الأمة وقوتها أمام التهديدات الخطيرة التي كانت تواجهها من خلال التمهيد للغزو العسكري بالحركة التبشيرية الواسعة والمعاهدات الاقتصادية المذلة.

ومن هؤلاء المراجع الكبار العظام الآخوند الخراساني صاحب (كفاية الأصول) والسيد محمد سعيد الحبوبي والسيد مهدي الحيدري والسيد محمد كاظم اليزدي صاحب (العروة الوثقى) والميرزا محمد تقي الشيرازي، والمحقق النائيني والسيد أبو الحسن الاصفهاني، وانتهاء بالسيد البروجردي والسيد الحكيم والامام الخميني الذين كان لهم دور متميز في الدفاع عن الأمة الاسلامية والخلافة الاسلامية العثمانية السنية في مواجهة الغزو الانجليزي تعبويا وعسكريا وعدم الاستسلام للوعود العريضة بالحرية السياسية والمذهبية، وكذلك مواقفهم المشهودة في مواجهة الحركة الصهيونية التي كانت ولازالت تهدد المقدسات الاسلامية في فلسطين.

والحديث عن مواقفهم الفكرية والسياسية في المجالات التقريبية حديث واسع، لذا سوف أكتفي بالاشارة إلى مثالين معاصرين لفضيلة شيخ الأزهر الشيخ شلتوت وكان له معهما علاقة ومراسلة خاصة، وهما:

آية الله العصمى المرجع الكبير السيد البروجردي الذي تحولت إليه المرجعية العامة بعد الحرب العالمية الثانية، ووفاة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الاصفهاني. وآية الله العظمى المرجع الكبير السيد الحكيم الذي كان مرجعا معاصرا للسيد البروجردي، ولكنه أصبح المرجع الأعلى بعد وفاته سنة ١٩٦٠م — ١٣٨٠هـ حتى توفاه الله تعالى في سنة ١٩٧٠م — ١٣٩٠هـ.

ولا أريد أن أطيل الحديث في ترجمتهما، لأنهما مرجعان معاصران ولاسيما السيد

البروجردي الذي نقيم هذا المؤتمر لتكريمه وقرينه شيخ الأزهر الشيخ شلتوت، وانما أحاول ان أتناول الجانب التقريبي في مرجعيتهما، وهما يمثلان نموذجين صالحين للمرجعية ومختلفين في أبعادهما التقريبية أيضا، بالرغم من انهما متعاصرين كتعاصر الشيخ الصدوق وابن الجنيد الاسكافي مع تقدم أحدهما على الآخر بعقد من الزمن أو يزيد قليلا.

كما أنهما وإن كانا من سلالة واحدة، حيث يجمعهما الجد السابع لهما وهو السيد الشريف مراد الطباطبائي الحسني، ولكنهما عاشا في بلدين مختلفين، أحدهما في العراق والآخر في ايران.

١. الامام البروجردي

اما الامام البروجردي، فسوف يطلع السادة الأفاضل بصورة تفصيلية على معالم حياته وشخصيته من خلال بحوث هذا المؤتمر والكتب المؤلفة والمعروضة عن شخصيته، ولكنه بصورة إجمالية: فان الامام البروجردي الطباطبائي ينتمي إلى أسرة علمية عريقة في أصولها وفروعها، وقد درس على خيرة العلماء في ايران والنجف الأشرف ثم رجع إلى ايران ليستقر في بروجرد مدفن جده الأعلى السيد محمد الطباطبائي جد الأسر العلمية الثلاث المعروفة آل بحر العلوم وآل الحجة وآل البروجردي.

وعند وفاة المرجع الأعلى الامام السيد أبو الحسن الاصفهاني توجه إليه علماء وطلبة الحوزة العلمية بطلب الانتقال إلى قم ليتسلم فيها شؤون المرجعية والحوزة العلمية والتدريس، ورجع إليه غالبية الشيعة في ايران والباكستان والهند وافريقيا والكويت من الخليج، وبعض الشيعة في مناطق أخرى.

ولاشك بأن الشيعة في ايران يمثلون من حيث الكم والكيف الثقل الأهم في الشيعة الامامية في وقت كانت حوزة النجف الأشرف في العراق لازالت تضم الثقل الكبير في الجانب العلمي والكمي، ولكن هذا الثقل يمثل الجانب الايراني فيه الجانب الأهم ايضا.

وقد ركز (قدس الله سره الشريف) في حركته المرجعية على بناء المؤسسات العلمية

كالمدرس والمساجد والحوزات العلمية وعلى نشر الكتب التراثية، وعلى نشر وتأليف الموسوعات الحديثية والرجالية.

ويمكن أن نلاحظ في عمله التقريبي الأبعاد التالية:

١ـ نشر كتب الفقه والتفسير المقارن مثل كتاب (التبيان) للشيخ الطوسي الذي يعتبر الأصل لكتاب (مجمع البيان) وحلقة الوصل بين التفسير الشيعي والتفسير السني الروائي المتمثل بجامع البيان للطبري، حيث أخذ منه واعتمد عليه بصورة أساسية. وكذلك نشر كتاب الخلاف للشيخ الطوسي نفسه الذي كان ولايزال يعتبر من كتب الفقه المقارن.

وبذلك يكون السيد البروجردي قد أحيا مرة أخرى المنهج التقريبي الذي بدأه الرعيل الأول.

٢- التأكيد على عنصر المشتركات في الفقه والتراث بين المسلمين، ومن هذا المنطلق كان تأييده لفكرة دار التقريب واسنادها واهتمامه بالتركيز على حديث الثقلين أكثر من التركيز على موضوع الامامة والعقائد الأخرى الخلافية.

٣- تأكيده للمنهج التقريبي في اخذ الحديث وفهمه، وذلك من خلال ماكان يصفه الرعيل الأول من مراجعة مصادر الحديث لدى السنة والشيعة، إيمانا منه بأن هناك عددا كبيرا من الأحاديث الموجودة في كتب جمهور المسلمين هي أحاديث معتبرة ويمكن التثبت من اعتبارها من خلال تجميع مضامينها وأسانيدها. وهذه حقيقة يعترف بها الفقه الشيعي بصورة عامة بما يعبر عنه فيه من الأحاديث (النبوية) التي لايوجد فيها سند معتبر خاص ولكنها تم تداولها في جميع العصور حتى أصبحت متواترة أو موثوقة الصدور.

٤- تأكيده للمنهج التقريبي في الاستنباط من خلال فكرة أن الكثير من التفاصيل التي وردت في الأحاديث الخاصة بطريق أهل البيت(ع) انما جاءت لتوضيح أو تكميل أوملء الفراغات الفقهية التي كانت موجودة في الوسط العلمي الاسلامي، وبذلك يشكل معرفة الفقه العام وفهمه قرينة مهمة في فهم هذه الأحاديث واستنباط الحكم الشرعي منها.

وقد كانت لجهود آية الله العظمى السيد البروجردي العلمية والمنهجية واسناده ورعايته

لفكرة تأسيس دار التقريب (التي قادها العلامة الشيخ محمد تقي القمي والثلة الطيبة من رفاقه ومنهم شيخ الأزهر الشريف الفقيد الشيخ شلتوت) الدور الكبير في تأسيس هذا المنهج الاسلامي الأصيل وما انتجه من ثمرات علمية وفكرية ومناخ روحي ونفسي، حيث توج ذلك كله بصدور الفتوى لشيخ الأزهر الشريف الشيخ شلتوت بصحة التعبد بمذهب الامامية الاثني عشرية.

ولاشك بحسب نظري ونظر الكثيرمن المراقبين بوجود عوامل أخرى هيئت المناخ لصدور هذه الفتوى، وهي عوامل تستحق الاشارة إليها ـ كما سوف أصنع ـ ولكنها لا تقلل مطلقا من أهمية هذه الجهود ودورها في هذه الثمرة الطيبة، ولا تسيء إليها باتهامها بأنها فتوى سياسية — كما يحاول بعض أن يصنع ذلك — فانه يكفينا ما أكده الفقيد الغالي فضيلة الشيخ شلتوت من اخلاصه وصدقه فيها وهو صادق فيما يقول ومايؤكد لأن هذه الرؤية والاخلاص كانا موجودين لديه ولدى استاذه الشيخ عبد المجيد سليم، ولكن المناخ السياسي والاجتماعي لم يكن ملائما لحدوث ذلك وتقبله.

فشكر الله سعيهم وأجزل ثوابهم وثواب كل من ساهم في هذا العمل الوحدوي العظيم، وتقبله منهم أفضل القبول.

٢- الامام الحكيم

وأما الامام الحكيم، فهو ينتمي أيضا إلى جد الأسرة العلمية للامام البروجردي نفسها في الأصول ولكنها انقطعت عن العلم فترة قصيرة من الزمن بسبب ظروف الهجرة إلى العراق واستقرارها في النجف الأشرف وتوجهها لطب الأبدان وخدمة المرقد الشريف للامام علي (عليه السلام)، حتى استأنفت مرة أخرى هذا المسار في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة، وتخرج منها منذ ذلك الوقت وحتى الآن عشرات المجتهدين وكبار العلماء والمراجع والمؤلفين، واستشهد منها في العقدين الماضيين حوالي خمسين شهيدا فيهم عدد من المجتهدين والأفاضل.

وقد تصدى الامام الحكيم للمرجعية الدينية بصورة رسمية بعد وفاة المرجع الأعلى الاصفهاني سنة ١٣٦٥هـ — ١٩٤٦ ميلادية، ورجع عليه عموم الشيعة في العراق وافغانستان ولبنان ومناطق الخليج وبعض مناطق الهند والباكستان ولاسيما بعد وفاة المرجع آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين.

ثم انتهت إليه المرجعية الدينية العليا بعد وفاة الامام البروجردي، حيث رجعت إليه عموم الشيعة في المناطق الأخرى كما ذكرت، علما انه في جميع الأحوال كان هناك مراجع آخرون إلى جانب مرجعية الامام الحكيم ومرجعية الامام البروجردي، ولكنهم أما محليون أومحدود والمرجعية نسبيا.

والحديث عن الامام الحكيم حديث واسع لا يسعه هذا المجال من البحث، ولكن لابد أن اشير إلى عدة ملاحظات في حياته:

الأولى: ان ولادته كانت سنة ١٣٠٦هـ وفقد والده عمليا بعد ثلاث سنوات من ولادته، حيث كان قد هاجر إلى لبنان للقيام بواجباته هناك، ثم توفاه الله بعد ذلك بقليل، وكان عمر السيد الحكيم حينها ستة سنوات، فبدأ حياته عصاميا.

الثانية: انه كان قد شارك في حرب الجهاد ضد الغزو الانجليزي في سن السابعة والعشرين تقريبا، حيث كان الأمين المساعد لقائد الجبهة الشعبية في (الشعيبة) آية الله المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي الذي كان زميلا لوالده وكان له حق الرعاية والتربية الروحية. وبذلك بدأ حياته العملية في هذه الظروف الصعبة ظروف الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة والخلافة الاسلامية ووقوع العالم الاسلامي تحت السيطرة العسكرية للأجانب.

وكانت مساهمته هذه لها دور خاص في فهمه السياسي والاجتماعي والتقريبي، حيث كان يقاتل الجاهدون من جميع المذاهب والأعراق طوعا جنبا إلى جنب دفاعا عن الاسلام والقيم الاسلامية.

الثالثة: وقد ركز في عمله العلمي بصورة أساسية على:

١ـ الفقه والأصول، وكان حصيلة ذلك كتابه العلمي الفريد الذي كان ولازال محط أنظار العلماء والباحثين في الحوزات العلمية، وهو كتاب (مستمسك العروة الوثقى) وإلى جانبه كتابه في الأصول (حقائق الأصول).

٢- وقد اعتمد في منهجه الفقهي على المنهج التقريبي في الفتيا، فكانت له فتاوى في الحج في إجزاء الحج بحكم الهلال للقاضي حتى لو كان مخالفا، وكذلك فتوى إجزاء صلاة الجماعة مع أئمة الجماعة العامين.. وطهارة أهل الكتاب، وإجزاء دفع الزكاة للحكومات الاسلامية حتى لو كان الحاكم من غير أتباع أهل البيت(ع)، وحلية الذبائح في سوق المسلمين حتى لو كانت قد جلبت من سوق أخرى مالم يعلم بعدم التذكية.

الرابعة: ركز الامام الحكيم في عمله المرجعي:

١ـ على الطبقات الفقيرة والمستضعفة من أبناء الجاليات الاسلامية المختلفة وأقام العلاقات الوطيدة مع الأوساط العلمية والشعبية لأبناء المذاهب الأخرى.

٢- اهتم بصورة خاصة بنشر الثقافة الاسلامية وتربية الكادر الاسلامي من خلال انشاء المكتبات العامة للمطالعة وتاسيس المدارس النظامية الجديدة والكليات العلمية مثل كلية الفقه وكلية أصول الدين وإدخال الفقه والاصول والتفسير المقارن لها، ورعاية التنظميات الاسلامية المنفتحة على جميع المذاهب الاسلامية دون فرق.

الخامسة: تصدى الامام الحكيم بصورة واسعة للعمل الاجتماعي والسياسي إلى جانب العمل العلمي والثقافي بحيث تميزت مرجعيته بهذه الصفة أيضا.

ولذا كانت له مشاركات واسعة في المؤتمرات الدولية الاسلامية ولاسيما ذات العلاقة بفلسطين وقضايا العالم الاسلامي.

كما قام بتأسيس جماعة العلماء في النجف الأشرف وفي بغداد والكاظمية للقيام بالواجبات الاجتماعية والثقافية والسياسية العامة.

كما قام في الوقت نفسه بالتصدي لمواجهة الغزو الثقافي والسياسي الذي شهده عالمنا الاسلامي بعد الحرب العالمية الثانية من خلال الأفكار والاطروحات السياسية كالشيوعية

والاشتراكية والليبرالية، وطرح الفكر الاسلامي وإقامة الحكم الاسلامي كبديل لكل هذه الطروحات.

وكان منهجه في ذلك على العموم هو منهج الحكمة والموعظة الحسنة والضغوط السياسية والشعبية في اطار المحافظة على النظام العام والأمن والاستقرار وتقديم المصالح العليا للبلاد على القضايا التفصيلية.

وبذلك جمع الامام الحكيم بين المرجعية الدينية الفقهية والفكرية والمرجعية الدينية السياسية.

السادسة: ان الامام الحكيم انتهج المنهج العملي في التقريب مضافا إلى الجانب الفقهي وكان لذلك دور كبير في تحقيق وحدة المسلمين وتقاربهم والتعايش بينهم على المستوى الشعبي بالرغم من السياسات الطائفية المقيتة التي اتبعتها بعض الأنظمة التي حكمت العراق ولازالت.

ويمكن أن الخص معالم هذا المنهج التقريبي الاجتماعي والعملي في النقاط التالية:

النقطة الأولى: الاهتمام بالقضايا الكبرى والمصيرية المشتركة للأمة مثل:

١- القضية الفلسطينية، حيث كان له في هذا المجال – مضافا إلى الطرح السياسي والمشاركة في الأحداث الكبيرة كإنتكاسة الخامس من حزيران وإحراق المسجد الأقصى وحضور المؤتمرات – الفتوى المهمة في تأييد العمل الفدائي وجواز صرف الزكوات عليه في وقت كان يعاني فيه العمل الفدائي ازمة في جنوب لبنان، وكان ابناء الجنوب من مقلدي الامام الحكيم.

وكذلك موقفه المهم في منع حكومة الشاه من الاعتراف باسرائيل ورسالة الشيخ شلتوت إليه وجوابه عليها أفضل دليل على ذلك حيث كان جوابه الرسالة الوحيدة العملية في هذا المجال.

مضافا إلى تقديمه الطرح الفكري والسياسي لإنقاذ فلسطين وهي الانتقال بها من الدائرة الضيقة إلى الدائرة الواسعة الاسلامية.

٢ – قضية الغزو السياسي والثقافي الأجنبي الذي أشرت إليه، وكان لموقفه ضد التهديد

الشيوعي للعراق وخطر استيلاء الحزب الشيوعي على مقدرات الحكم هناك بعد انقلاب تموز ١٩٥٨م دور كبير في احباط هذا التهديد الخطير. وهو موقف يعرفه جميع التابعين للأحداث ولاسيما فتواه الجريئة (الانتماء إلى الحزب الشيوعي كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد) والتي هزت أركان الحزب الشيوعي الذي كاد أن يسيطر على الأوضاع بعد أن سيطر على الشارع العراقي، وهزمت الأحزاب القومية والليبرالية واليسارية الأخرى.

وإني لعلى ثقة ولدي بعض المعلومات، ان لهذا الموقف الأثر الكبير في نفس الرئيس الراحل عبد الناصر الذي كان يراقب الأحداث عن كثب ويشعر بخطورتها، الأمر الذي جعله يفتح صفحة جديدة كانت مطوية أو منسية مع الشيعة في العراق والعالم، ويهيئ المناخ لصدور الفتوى التاريخية لشيخ الأزهر فقيدنا الراحل الشيخ شلتوت، وذلك لتكوين موقف اقليمي واحد ضد هذا التهديد الخطير.

وفي هذا المجال لابد أن أشير أيضا إلى الدور المهم الذي قام به الامام الحكيم في حماية علماء الاسلام من أهل السنة الذين كانوا يواجهون خطر القتل والموت على يد الشيوعيين كاخوانهم الشيعة تحت شعار أنهم من أنصار القومية العربية، ويعرف هذه الحقيقة جميع علماء أهل السنة في العراق الذين عاصروا هذه الأحداث.

كما قام الامام الحكيم بعمل واسع من اجل حماية الضباط من أهل السنة أيضا الذين كانوا يتعرضون بسبب هذا المد الأحمر لخطر القتل صبرا (الاعدام) . وقد تم اعدام بعضهم فعلا، ورسالة الامام الحكيم بشأنهم مدونة في مذكرات الطبقجلي.

٣- قضية الاستبداد السياسي والطائفية السياسية التي كان يقف الامام الحكيم فيها مدافعا عن جميع أبناء الشعب العراقي دون فرق، وكلمته مع رئيس الوزراء (طاهر يحيى) بهذا الصدد معروفة حيث قال له اننا نطالب بحكم عادل حتى لو كان الحاكم سنيا، ونرفض الظلم والطغيان حتى لو كان الحاكم شيعيا.

النقطة الثانية: الدفاع عن المظلومين من أهل السنة كما حدث ذلك بالنسبة إلى جماعة الأكراد في العراق وغالبيتهم من أهل السنة، فقد وقف الامام الحكيم مدافعا عنهم ومحرما على غالبية الجنود وأبناء القوات المسلحة من أتباعه قتالهم.

وكذلك موقفه من محاولات (عبد الكريم قاسم) لغزو الكويت واحتلالها مع ان غالبية شعب الكويت من أهل السنة.

النقطة الثالثة: اقامة العلاقات الحميمة مع أوساط أهل السنة العلمية والاجتماعية والسياسية سواء في داخل العراق أو خارجه من خلال تبادل الزيارات وأهداء الكتب والحضور في المؤتمرات والمنتديات أو اقامة المؤسسات المشتركة والتعاون على البر والتقوى معهم في مختلف المجالات والأحداث، وتدريس الثقافة الاسلامية لجميع المذاهب في المؤسسات العلمية الشيعية كما في كلية الفقه وأصول الدين وغير ذلك من النشاطات.

والانفتاح على الدول العربية والاسلامية في العلاقات كما في الباكستان والمملكة العربية السعودية ومصر والأردن ولبنان...

وقد كان لهذه النقاط والخطوط من الحركة الثقافية والاجتماعية للمرجعية الدينية بصورة عامة آثارها العميقة في مجتمعنا الاسلامي هيئت الأرضية للإنجازات الكبيرة التي يشهدها عالمنا الاسلامي هذه الأيام ومنها العودة إلى الحياة الاسلامية وإلى المقاومة الاسلامية وروح التضحية والفداء.

وكان من جملة ذلك هذا الانجاز العظيم الذي قام به العبد الصالح الامام الخميني (رض) وهو من مراجع الاسلام في إقامة الدولة الاسلامية والتزام قضية فلسطين ونصرة الشعب الفلسطيني ضد العدوان الصهيوني، وهذه العزة والكرامة التي يشعر بها المسلمون في كل مكان، وهذه اللقاءات الخيرة التي يشهدها عالمنا الاسلامي هنا وفي مصر والمغرب وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية وعمان في حركة تقريبية واسعة، يتعاون فيها الجميع تحت راية الاسلام وفي ظل الرحمة الالهية ودين اليسر والسماح والعقل والمنطق والايمان بالله الواحد الأحد وبالرسالة الخاتمة والأمة الواحدة التي هي خير أمة أخرجت للناس.

والحمد لله رب العالمين، والسلام والصلاة على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

الشيخ الإمام محمود شلتوت

منهج تجديد

د. محمد إبراهيم الفيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية

مناهج التجديد المعاصرة

إن من خصائص التجديد الإصلاحي في الإسلام أنه لا يفصل بين الدين والسياسة، وذلك عكس ما يجرى في معظم الجماعات الدينية الكبرى والصغرى معا.

وبذلك يصبح من السهل أن نؤول أعراض الإضطرابات الإسلامية بإعادتها إلى جذر مشترك وهو عدم الانفصام بين الدين والدولة، وذلك تاريخ الدولة الإسلامية.

وفي نفس الوقت يعبر عن هوية إسلامية، ويعرب عن تميز النهضة الإسلامية عن النهضة الأوربية التي بدأتها بانفصال الدين عن الدولة وخلفت صراعاً عدائيا بين الأصولية الكهنوتية والعلمانية، وهي عودة إلى مقولة رومانية وثنية نسبت إلى نبي الله عيسى: مالقيصر لقيصر وما هو لله فهو لله.

* فالترابط بين الدين والدولة هوية إسلامية.

* والانفصام بينهما مبدأ روماني وثني: تشكّل به الغرب.

ومن المبدأ القائل الترابط بين الإسلام والدولة أو القول بالانفصام بينهما تشكلت مناهج المصلحين المجددين.

وتعود حركات التجديد الإسلامي الحديث إلى بدايات القرن الثامن عشر.

* أولى هذه الحركات: هي حركة المصلحين الذين أرادوا ربط الأمة الإسلامية بمثلها الأعلى الإسلامي.

* وثاني هذه الحركات: حركة العلمانيين دعاة فصل الدين عن الدولة، وهم الذين احتكوا بالغرب، ولولا التأثير الأوربي لظل العلمانيون لا يُؤبه لهم.

أولاً: حركات التجديد والإصلاح الإسلامي.

وقد أدرك المفكرون الإسلاميون الضعف الداخلي والخارجي للعالم الإسلامي، وبحثوا الوسائل لنفخ قوى جديدة في الجماعة الإسلامية، وقد وجهت النداءات الأولى شخصية إسلامية هي:

١- جمال الدين الأفغاني

ويقال إنه نشأ في كابول أو في ضواحي إيران. وحياته لم تعرف الراحة أبدا.

فقد كان مستشار الترك وشاه العجم، والقى دروساً في الأزهر في القاهرة، وقضى عدة سنوات في الغرب وإرتاح في الأستانة ـ تركيا.

وكان جمال الدين الأفغاني وهو العالم الإسلامي داعية سياسياً قبل كل شيء، ومصلحا إسلامياً أحيا موات العقول، لأنه بشر بجميع الوسائل، ليس ضد السيادة الأجنبية فقط بل ضد الملوك المسلمين المستبدين أنفسهم وضد أنظمتهم المتصدعة.

وإذا كان جمال الدين قد أثر تأثيرا غير عادي في العالم الإسلامي فهو قد أيقظ النفوس أكثر مما دلها على طرق جديدة.

٢- محمد عبده

لازمه وزامله وتتلمذ عليه، ونجح في تعميق افكار أستاذه، وذلك بأن جعل منها طريقة مذهبية متلاحمة.

وهذه الروح الكبيرة لهذا الرجل الذي كان من أكبر المصلحين في الإسلام في العصر الحديث، ولد في قرية من قرى مصر، وقد اصطدم بمعارضات كثيرة من أعداء التجديد، وأعداء كل فكرة إصلاحية، فاضطر إلى ترك البلاد بعض الوقت — ثم عاد إليها وعين مفتياً للديار المصرية، وتوفاه الله ١٩٠٥م بعد مضى تسع سنوات على وفاة جمال الدين.

وإذا كان هذا قد بشر بالثورة كوسيلة لخلاص المسلمين، فإن محمد عبده كان يبث إصلاحا روحيا للجماعة الإسلامية في رأسها وأعضائها.

وكانت تعاليمهما القاعدة الأساسية لكل حركة إصلاحية جاءت بعدها ثم تطورت تلك الأفكار الإصلاحية مع كل حركة إصلاحية وانتشرت أفكارهما مع إنتشار المراكز الإسلامية، وأخذ مفهوم الأمة الإسلامية يطفو على السطح مع مفاهيم «الجامعة الإسلامية» الذي بثه جمال الدين «والسلفية» في مقابل، الأساليب الغربية أو «المستغربين» وكان يدل هذا الاسم وحده على أن السلفيين لا يرون تقليد «أوربا» وليس الحل الأوربي هو الوسيلة الوحيدة للإصلاح بل يعتقدون أنهم يجدون في الإسلام الحل الوحيد الذي يتفق

مع المشاكل الحاضرة.

وبقيام المجددين الإسلاميين ضد المفهوم الأوربي «للأمة» «والقومية» الذي بث الخلاف بين الجماعة الإسلامية، فإنهم وقفوا موقف المعارضة من «المستغربين» «والعلمانيين».

وهكذا دفع الإمام الشيخ محمد عبده بمسيرة الإصلاح التي بدأها السيد جمال الدين فدافع بقوة عن حقوق الشعب، ضد الملكية المستبدة، وتحرير المرأة وتعليمها.

ورغم أن منهج الإمام محمد عبده انطلق سلفياً فإن دعوته إلى تحرير المرأة ليس غربيا إنما هو من صميم الإسلام.

لذلك كانت السلفية لديه القراءة الجديدة للإسلام التي تنحى دونها قيود الأعراف والتقاليد ثم تخلطها بالإسلام مع تقادم العهد وتلك غشاوة تمنع الرؤية إلى الجديد وكان الجدل الديني الذي احتدم حول تحرير المرأة بين الأزهر والمفكرين الإصلاحيين من المصلحين والمحافظين قد فتح لسواد الشعب الاشتراك في تلك القضية فأحيا فيه هياجة الحماس طريق العنف والثورة وذلك من أجل تشويه مذهب الإمام ومن يلوذ بآرائه.

وكانت غاية الإصلاح السلفي أن يجعل الجماعة الإسلامية عصرية ولكن دون أن يلحق الأذى بالروح الإسلامية.

وكان التركيز على هوية الجماعة الإسلامية مما لفت نظر المصلحين في العالم الإسلامي، وتشكلت مدارس الإصلاح وكان من أبرز المدارس الإصلاحية في الوسط الإسلامي.

٢- المصلحون الهنود (السير) أحمد خان وجامعة عليكرة

كان الوسط الإسلامي الثقافي الهندي يتميز بالتقوى الإسلامية والمحافظة على هويته الإسلامية، وبسبب الإحتلال البريطاني رفض الوسط الثقافي الهندي الاندماج في الحضارة الغربية وكره الاحتلال البريطاني رغم أن مسلمي الهند كانوا أقرب إلى أوربا منهم لأي شعب إسلامي آخر.

واقتفوا منهج الإمام محمد عبده الحر المستنير الذي ينطلق من ركيزتين:

* القرآن والسنة.
* الإجتهاد المثقف بثقافة العصر.

لذلك كان أثره الواضح على المصلحين الهنود بميلهم نحو التأويل الحر المعتدل للإسلام كتأويل النصوص الدالة على تحرير المرأة وهي من القضايا الجديدة أبرزها الاحتكاك بالحضارة الأوربية وفي نفس الوقت ليست خارجة على الإسلام والابتعاد عن الوقوف المتصلب أمام النصوص.

وكان المحرك الدافع للحركة الإصلاحية الهندية الكبرى : «السير» سيد أحمد خان الذي عمل موظفاً في الإدارة البريطانية، وكان وراء عائلته تقليد إسلامي طويل غني، وقد ولد أحمد خان سنة ١٨١٧ وحمل من إقامته الطويلة في إنجلترا يقيناً بأن على المسلمين، إذا كانوا لا يريدون البقاء في أسفل الحائط، ان يختاروا طرق الغرب الفكرية والفنية.

ولكي يعطي أبناء دينه الأدوات الفكرية اللازمة فقد أسس «جامعة عليكرة» الإنجليزية الشرقية، وكانت طرق التعليم فيها هي طرق جامعتي: أكسفورد وكامبردج نفسها.

ولكي يتجنب النقد العنيف من جانب العلماء المحافظين ، المعادين للتجديد، من هذا النوع، فقد اتخذ بعض الحكام المسلمين، الذين هم فوق كل شك من ناحية التجديد كحماة لهذه الجامعة الفنية.

٤- محمد إقبال

وكان إنشاء هذه الجامعة على النظام الغربي له أثره في القضاء على العداوة التي أشعلها جمال الدين ضد إنجلترا.

ويسرت الطريق أمام المصلحين الهنود على عقد أواصر التعاون بينهم وبين البريطانيين.

فأصبح أمير على عضوا في مجلس التاج الاستشاري.

والشاعر المفكر السير محمد إقبال، ورغم أنه متشبع تماماً بالروح الأوربية، بعد إقامة طويلة في إنجلترا وألمانيا، فإنه لم يكن من أنصار المستغربين.

ولكنه كان يفكر في إيجاد القواعد الديموقراطية حقيقية للجماعة الإسلامية، ديموقراطية النبي والخلفاء الأربعة الأولين.

وهي نفس الدعوة التي دعا إليها المصلحون المصريون: لذلك جاءت ديموقراطية محمد إقبال قريبة الشبه من المصلحين المصريين.

ولقد بصمت الدعوة الإصلاحية التجديدية ببصماتها على المجتمع الهندي الإسلامي فقويت الجماعة الوطنية التي استيقظت وقويت في الإسلام في الهند — وشكلت «جامعة عليكره» النخبة الإسلامية المعاصرة التي تسلمت مقدرات الدولة الباكستانية الفتية.

ويعتبر محمد إقبال، مبشرا بالدولة الإسلامية الجديدة في الهند.

ولكنه لم يشاهد نجاح أفكاره السياسية، لأنه مات قبل تسع سنوات من تحقيق دولة الباكستان، التي بشر بها إرثاً لماضي إسلامي كبير.

وأحدث عمل المصلحين ، هذا، دوياً عظيماً في الطبقات الوسطى وسواد الشعب المسلم.

وهذه الحركة بشكلها: السياسي والاجتماعي ، حفظت على الجماعة إسلامها وهويتها ووقفت بحماسها الشعبي للدفاع ضد تأثير الاجتياح الاجنبي. وتأسست بين سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ جمعيات اسلامية عديدة يجمعها هدفان:

* النضال ضد النفوذ الأجنبي.
* بعث عظمة الإسلام وماضي الجماعة الإسلامية.

ووفق طبيعة الإسلام فإن الإصلاح إصلاح ديني وسياسي واجتماعي.

ثانيا : العلمانية وحركات الإصلاح

وإذا كان التجديد الإصلاحي قد سعى إلى التركيز على أن الإسلام هو الطريق الصحيح السليم، فإن هناك في المقابل حركات إصلاحية، أخرى، تذهب بالعكس إلى تغيير جذري في الدستور الإسلامي.

وهذه الحركات تستهدف العلمانية الأوربية، تلك العلمانية التي اتخذت من مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة شعارا للتنظيم الدولي والاجتماعي في الغرب.

وقد طبقت في تركيا وحدها من بين جميع البلدان الإسلامية، العلمانية الكاملة.

وكان مؤسسو تركية المعاصرة قد نشأوا في جو الوطنية الأوربية.

فكمال أتاتورك وضع مقابل النظام الإسلامي نظاماً غربياً: فصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً، الأمر الذي يجعل من العلمانية مبدأ لا يحيد عنه، وغدت تركيا بالمفهوم الكمالي، دولة علمانية.

وكان فصل الدين عن الدولة جذرياً في البلاد الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال السوفيتي.

ولكن الأمر هنا لا يتعلق بإصلاح حقيقي لسان حال التطور الروحي للشعوب، بل بثورة اجتماعية فرضتها دولة أجنبية.

وحمل بذور العلمانية «المستغربون» فظهرت بوادرها في غالبية الدول الإسلامية.. وتتابع الصراع بين «المستغربين» وبين المصلحين المجددين.

ومع الصراع الحاد كان الإسلام قد دخل المسرح السياسي والاجتماعي والثقافي وواجه المشكلات التي جدت على المجتمع الإسلامي دون أي تصدع في قواه بل كان قويا قائدا رائدا وظهر تأثيره على الشعوب الإسلامية أكثر قوة مما كان ظن «المستغربين».

ومازال الصراع يتذبذب بين قطبي التطور الفكري في البرلمان.

في الشارع وفي المؤسسات التعليمية والثقافية إنهما يتصارعان في قلب المسلم ويتقاذفا الاتهامات: فهذا يتهم ذاك بالرجعية، وذاك يتهم هذا بالجرى وراء الغرب.

التجديد والبدعة : صراع التراث مع التراث؟؟[1]

وكانت كل ممارسة من قبل رجال التجديد خارجة عن التراث ترفض باسم البدعة.

وقد سوغ الفقهاء الذين كانوا يحافظون على الفقه المذهبي وكانوا يشددون النكير على الخروج على حدود المذاهب الأربعة ويعلنون محاربتهم للأراء الجديدة باسم محاربة البدع بهدف حماية العقائد.

وهم يعتقدون أن التراث ينبغي أن يتغلب على كل بدعة.

وكان المجدّدون أنفسهم يرون أن البدعة منها ما يتعارض مع النص وهي البدع السيئة فقط التي تحفل بالخرافات وتجمد العقل وتحبب الركون إلى الأراء السقيمة.

وفي مرحلة الفتوح الإسلامية للشعوب الجديدة التي اعتنقت الدين الجديدة، رأى الفقهاء من أجل سيادة القانون الديني في مواجهة الهويات الثقافية لتلك الشعوب أن ينهضوا أمام تلك

---

١ - من مقال: نظرات في التجديد والإصلاح الديني نشر بصحيفة الأهرام المصرية بتاريخ ١٩٩٨/١٢/١٥. بقلم د. محمد إبراهيم الفيومي.

الهويات الثقافية بالقيام بوضع علوم جديدة لحماية هويتها الثقافية الإسلامية من تسرب عناصر أجنبية إليها.. ولو أنهم خافوا من وصف عملهم بالبدعة لهددت تلك الهويات الثقافية أسس الإسلام ذاته بالانحلال.

ومع محاربة التجديد باسم البدعة وزوال الخلافةالإسلامية أصبحت المدنية الإسلامية ضعيفة ومتقلصة ومنكفلة على بعض المعاهد العلمية.

وفي القرن الثامن عشر قويت بعض المذاهب في بعض أركان العالم الإسلامي وراحت تنشط لتحارب المجتهدين وأصحاب النظرات التجديدية بل وزادت وفق ميولها السياسية أن نشطت حركة (صراع التراث مع التراث) فجعلت ابن تيمية وابن عبد الوهاب هما وحدهما الأداة الصالحة لفهم الفكر الإسلامي.

من هنا بدأت العلاقة بينهما وبين التراث علاقة جدلية فحاربوا مذاهب السنة بالتراث وبالتالي شددوا نكيرهم على البدعة اي مناهج الإصلاح الديني إذا لم تكن من منظور سلفي.

ثم قويت روح المجتمع الإسلامي لمحاربة البدع مع الهيمنة الاستعمارية زاد النضال ضد البدع كما زاد النضال ضد العادات المفروضة من قبل الغرب وسيلة لحماية الهوية الإسلامية ثم بدأت تأخذ شكل الإدانة.

وما أن بدأت الهيمنة الاستعمارية تخف وطأتها عن صدر الأمة العربية الإسلامية حتى بدأ النموذج القومي إحياء القوميات الإقليمية وهو نموذج تاريخي من الغرب استعارته البلدان الإسلامية من القوميات الأوربية التي نشات وتبلورت في القرن التاسع عشر.

ويبدو أن القضاء المفاجئ على دولة الخلافة السنية ١٢٥٨ عندما دخل الغزاة المغول إلى بغداد.

قد حاول العثمانيون بعث الخلافة من جديد بصفتها سلطة مركزية تمارس دورها على الدولة الإسلامية.

ولكنهم لم يجرؤوا على استعادة لقب الخليفة، ولا حتى لقب الإمام وإنما اكتفوا بلقب السلطان والسلطنة التي ألغاها أتاتورك ١٩٢٢.

ومع القوميات استيقظ خطر الهويات الثقافية واللغوية وخاصة مع المطالب القومية التي رفعتها شعارا للتحرر من المستعمر الأجنبي رغم أن القوميات الأوربية اصطدمت بالتوترات

والصراعات والتناقضات نفسها.

إن الدول العربية الإسلامية وجدت نفسها بين أمرين: من شوق إلى بعث ماضي الإسلام الذي نحيت عنه منذ زمن طويل وبين سحر النموذج الغربي.

فلقد بدأت نهضتها بعد حروب التحرير الوطنية والصراع ضد الاستعمار تستعير نفس النموذج القومي.

ثم بدأت تقاسي مسألة الفراغ في النظم من مفاهيم الخلافة والإمامة التي ألغيت منذ زمن..

كذلك بدأ الصراع يشتد من مسألة التوافق بين القادة السياسيين والنخبة المثقفة من أجل فرض النموذج الأوربي على الدول العربية الإسلامية حديثة الاستقلال ورفض إجراء أي تصحيح أو تعديل عليه.

ولاشك أن الحلم بوحدة الأمة الإسلامية مازال يراودها من خلال محاولة المنظمات الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلامي والجامعة الإسلامية، وهذه الفكرة الوحدوية تثير دائما أصداء واسعة وعميقة لدى الأمة الأسلامية وتجعلها ذات مصداقية ولكن دون جدوى.

ومازالت هذه الشعوب تطالب بإيجاد وسائل للتعبير الديمقراطي عن نفسها ولكننا نلاحظ أن انفجارات الغضب الشعبي سرعان ما تقمع من قبل الأنظمة الموجودة ثم تحتقر وتتهم بالخيانة للقضية القومية، لأنها مشغولة فقط بمسألة استمراريتها والبحث عن أقصر الطرق إلى الإصلاح ولو غيّرت الجامعة العربية من ميثاقها لتفرد بجناحيها على دول العالم الإسلامي لكان أفضل وأحسن وإن رفض الغرب.

أما الجانب الثاني من التجديد وهو: اختلاف مصادر الإقليمية الإسلامية في السنة النبوية: فأهل السنة يجعلون الإمام البخارى ٢٥٦ هـ والإمام مسلم ٢٦١ هـ من أهم مصادر السنة.

والشيعة الإثنا عشرية لها الكافي في علوم الدين للكليني ٣٢٨هـ .

وقد أكمل أبو ضيف إليه مجموعة ابن بابويه سنة ٣٨١هـ والطوسي ٤٦٠هـ.

والخوارج يعتمدون على الجامع الصحيح للربيع بن حبيب نهاية القرن الأول.

واختلافات هذه الفرق الثلاث واضحة حول مفهوم الخلافة والسلطة والقيادة وكل

واحدة منها تعتبر مجموعات الحديث لدى الطائفتين الأخريين مزورة أو مختلفة وذلك مما يزيد حدة التعصب ويعوق بناء وحدة إسلامية ويجعل من حركة الإصلاح الديني عسيرة ونطلب من الذين تخصصوا في نقد الحديث من المحدثين أن يقوموا وفق علم نقد الحديث من التحقق التاريخي من صحة الإسناد والمتن ثم بعد مراجعة كل إتجاه على حدة فهناك من راجع البخاري بداية من البخاري نفسه وهناك من راجع مسلم وهناك من راجع المسانيد.. إلخ لكن لم يحصل حتى اليوم أن روجعت مصادر الحديث مراجعة شاملة لكل مجموعات الحديث وهي لا تحتاج إلى وضع دراسة نقدية أي لا تشكل دراسة علمية حول الموضوع أي موضوع الحديث وإن كانت تشكل مادة للدراسة العلمية بحد ذاتها أي أن علماء نقد الحديث (مصطلح الحديث) قدموا مناهجهم غير أننا لم نستفد منها بالقدر الكافي.. إنما تأتي الاستفادة إذا حصلت مراجعة شاملة لمجموعات الحديث وإسناداته من أجل إعادة النظر بمسألة الصحة بواسطة الوسائل الحديثة للبحث والتفحص العلمي وقد سهلت بوسائل العصر أي العقول الاليكترونية ثم بواسطة علوم النقد التاريخي للحديث.

ونود أن تحظى الدراسات النقدية للحديث من رجال الحديث وعلومه بالرعاية التطبيقية بشكل شامل.

ونحن نعلم أن مثل تلك الدعوة تتعلق بنقطة حساسة وهي مراجع الحديث النبوي فأود ألا ترفض بعنف لأني لا أطلب من أحد غير رجال الحديث أنفسهم من خلال ما درسوه من قواعد النقد أن يقوموا بتقويم سلاسل الرواه، ودراسة شخصيتهم جرحاً وتعديلاً وتدليساً ثم مراجعة المتن ذاته وتحديد نقاط الاختلاف حول الرواة من خلال ماتركه الأوائل من الرصيد التاريخي عنهم وكما هو مدون في علم الطبقات ومعرفة منهج القدماء في الحكم على الشخص.. ولماذا كان مجرَحاً عند البخاري وليس مجرَحاً عند مسلم أو النسائي أو مالك؟ إلخ.

لانزال. كذلك حتى ننصف رجال الرواية.. ونصطنع منهجاً يساعد على المعرفة العلمية الدقيقة من خلال مالدينا من رصيد ثقافي مبعثر ونستطيع تخزين الحديث برؤية معاصرة في العقول الاليكترونية لتسهل المراجع وتعم الفائدة.. ولا ينبغي أن يرتكن جهدنا إلى النقد الذي أجراه البخاري ومسلم مثلاً على صحيحيهما وهو كاف لاشك. لكنه ليس نهائياً

كتدوين القرآن.. فإن الأمة الإسلامية مجمعة على أن القرآن هو المصدر الأول في كل شيء وإن وجود كتب أخرى مع البخاري ومسلم ليعني بشكل أكيد أن المسألة تحتاج إلى مراجع وذلك ليس لتفضيل صحيح على صحيح أو مسند على مسند أو سنن على سنن إنما أود من تلك الدعوة دعوة إعادة النظر لتصتف مراتب الحديث من خلال النظرة الجديدة فقد تتساوى أحاديث في الصحة وقد تضعف أحاديث من خلال مراجع الرواه.

فلو أن المحدثين قد قنعوا بعمل البخاري أو مسلم لما تشكلت مجموعات الحديث التي عرفت بالمسانيد أو السنن إنما وجودها بيننا ليدحض الزعم القائل أن تحقيق البخاري لصحيحة ليس نهائياً ومغلقاً كالقرآن.

وإذا كنا نقول أن غلق باب الاجتهاد يمثل عصور الضعف والانحلال ومناقض تماماً لمبدأ الإسلام الذي يهتم بالتدبر بداية من القرآن ذاته فاولى بنا أن تكون تلك العصور التي مرَت بالأمة الإسلامية قد رسخت وخلعت خلع التقديس والاستكانة العلمية في نفوس ذوي الأهلية من العلماء، كما أن النظم السياسية لم تكن تقدم لهم الضمان الكافي لحرية الفكرة.

بوادر التمهيد الفكري للتقريب بين المذاهب

مهدت مراحل الإصلاح تلك إلى توسع في مفهوم الثقافة الإسلامية وإنهاء الصراع المذهبي بالدراسة الحرة المستنيرة لها، ولقد أوضحت اللقاءات الفكرية مساحات ثقافية مشتركة، مهّدت السبيل إلى التجديد والإصلاح منها:

* أفاد وجود السيد جمال الدين في مصر تلاميذه الأخذ بالمنهج العلمي في نظرة التسامح إلى الشيعة الإمامية الإثني عشرية فجردهم عن نزعات التعصب المذهبي، ودفع بالشيخ الإمام إلى شرح نهج البلاغة.

* كما أدت علاقات التعاون بين السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي والشيخ الإمام سليم البشري شيخ الأزهر واشتراكهما في تأليف: كتاب المراجعات إلى بدايات رسالة التقريب بين الجانب السني والشيعي.

* استقبل العلماء كتاب: (أصل الشيعة وأصولها) للإمام المغفور له الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء النجفي، إستقبالاً حسناً فأوقفهم على حقيقة التشيع، ومعتقد الشيعة

وترجم إلى لغات عديدة ثم تبعه مؤلفات حديثة ساهمت في التقارب بين الشيعة الاثني عشرية والسنة.

* كل ذلك وجه الشيخ شلتوت إلى اشتراكه في إحياء مدرسة التقريب مع الشيخ محمد المدني والشيخ عبد العزيز عيسى متعاونين مع الشيخ محمد تقي القمي على إصدار مجلة تحمل اسم رسالة التقريب وإصدارات علمية دقيقة توضح مابين المذاهب من مفاهيم مشتركة.

الإمام الشيخ محمود شلتوت (١٨٩٣ – ١٩٦٣)

انتهت أفكار الإصلاح والتجديد بعد جمال الدين ومحمد عبده إلى مدرسة الشيخ الإمام محمد مصطفى المراغي والإمام عبد المجيد سليم والإمام محمود شلتوت ومن زاملهم في شبابه الباكر مثل:

محمد شاكر، وعبد الباقي سرور نعيم، وعلى سرور الزنكلوني ويوسف الدجوي هم جميعاً من كبار العلماء المجددين ، فكان لهم أثر قوي في نفس العالم الشاب[١] .

كان صاحب نزعة اجتهادية لم يقلد أحدا منهم في آرائه إنما أطلق لعقله النظر في المسائل والقضايا برجوعه إلى الكتاب والسنة.

من هو الشيخ شلتوت؟

١ - حياته

ولد الشيخ شلتوت في منية بني منصور مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة عام ١٨٩٣م.

وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد الإسكندرية الديني.

حصل على شهادة العالمية من الأزهر عام ١٩١٨.

وكان أول الناجحين فيها.

---

١ - النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين ج١. د. محمد رجب البيومي وتاريخ التشريع الشيخ عبد اللطيف السبكي والشيخ علي السايس والشيخ محمد يوسف البربري.

عين مدرساً بمعهد الإسكندرية الديني عام ١٩١٩، ثم نقل في عهد الشيخ المراغي (شيخ الأزهر حينذاك) مدرساً بالقسم العالي بالأزهر وكان من مؤيدي الشيخ المراغي في اتجاهاته لإصلاح الأزهر، وأعلن ذلك في مقالاته في جريدة السياسة اليومية.

وعندما استقال الشيخ المراغي بعد المعارضة القوية لحركته الإصلاحية فصل الشيخ شلتوت من منصبه في عهد الشيخ الظواهري، فعمل بالمحاماة أمام المحاكم الشرعية.

وفي فبراير ١٩٣٥م أعيد إلى عمله بالأزهر وعين مدرساً بكلية الشريعة، ولما عاد المراغي شيخاً للأزهر عينه وكيلاً لكلية الشريعة.

وقد اشترك الشيخ شلتوت – ممثلاً للأزهر – في مؤتمر القانون الدولي المقارن بمدينة لاهاي في هولندا عام ١٩٣٧، وقدم للمؤتمر بحثاً عنوانه (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية).

وقد عين عضواً بجماعة كبار العلماء عام ١٩٤١، وعضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦، ومراقباً عاماً للبحوث والثقافة بالأزهر عام ١٩٥٠ . ومستشاراً للمؤتمر الإسلامي ووكيلا للأزهر عام ١٩٥٧، ثم عين شيخاً للأزهر عام ١٩٥٨، وظل في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٦٣.

وقد كان الشيخ شلتوت محل تقدير في العالم الإسلامي، وزار عدداً من البلاد الإسلامية ومنحته عدة دول الدكتوراه الفخرية وأوسمة الشرف تقديراً لعلمه وفضله واعترافاً بمنزلته الرفيعة ومكانته السامية.

٢ مؤلفاته

تحظى مؤلفات الشيخ شلتوت بالانتشار الواسع في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي ، ولاتزال حتى الآن يعاد طبعها في فترات زمنية متقاربة، وقد طبع بعضها للمرة السادسة عشرة.

وأهم هذه المؤلفات مايلي:

١- الإسلام عقيدة وشريعة – دار الشروق ١٩٩٠ (الطبعة السادسة عشرة).

٢- من توجيهات الإسلام – دار الشروق ١٩٨٧ (الطبعة الثامنة) وقد جاء العنوان الفرعي لهذا الكتاب على النحو التالي:

(تصحيح بعض المفاهيم الدينية – توضيح موقف الإسلام من بعض المشاكل – الأخلاق الإسلامية – ضروب من العبادات).

٣- تفسير القرآن الكريم – الأجزاء العشرة الأولى – دار الشروق ١٩٨٨ (الطبعة الحادية عشرة).

وهذا التفسير ليس مثل التفاسير المعتادة للقرآن والتي تفسر القرآن آية آية، وإنما هو تفسير عام يلجأ إلى إبراز جوهر كل سورة وما تهدف إليه مفصلاً القول في بيان أبرز القضايا التي اشتملت عليها السورة.

٤- الفتاوى: دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية العامة – دار الشروق ١٩٩١ (الطبعة السادسة عشرة).

وللشيخ شلتوت بالإضافة إلى ذلك بحوث أخرى أهمها:

(المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية).

وقد نال بهذا البحث عضوية جماعة كبار العلماء.

وله أيضاً: الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب.

وفضلا عن ذلك كان الشيخ شلتوت صاحب نشاط ملحوظ في الحياة الثقافية الدينية عن طريق العديد من المحاضرات التي كان يلقيها في المنتديات العامة، والأحاديث الإذاعية، والمقالات الكثيرة في الصحف والمجلات.

ولقد كان من نشاط الأزهر في سيرة قدماً بالفقه الإسلامي ذلك الموقف الخالد الذي سجل له في مؤتمر القانون المقارن بمدينة – لاهاي – إذ وجه المؤتمر دعوته إلى الأزهر لينتدب من علمائه من يمثله فيه حين انعقاده للدورة الثانية في شهر جمادي الثانية سنة ١٣٥٦هـ – أغسطس سنة ١٩٣٧م فأجاب شيخ الأزهر – المراغي تلك الدعوة، وندب من العلماء من انتظم في جلسات المؤتمر وقد تقدم مندوبو الأزهر إلى هيئة المؤتمر ببحثين جليلين.

أحدهما: في بيان المسؤولية الجنائية، والمسؤولية المدنية في نظر الإسلام للشيخ محمود شلتوت أحد المندوبين.

وثانيهما: في علاقة القانون الروماني بالشريعة الإسلامية، ونفى ما يزعمه المستشرقون من تأثر الفقه الإسلامي بذلك القانون.

للشيخ عبد الرحمن حسن عبد المنعم احد المندوبين.

وقد أثار مندوبو الأزهر إعجاب الأعضاء الأوربيين في سمو الشريعة الإسلامية ، وتكلفها بأرقى نمط للحياة الإجتماعية ، فكانت نتيجة ذلك أن قرر المؤتمرون بإجماع الآراء ما يأتى:

أولاً – اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريعة العام (القانون المقارن).

ثانياً – اعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور.

ثالثاً – اعتبارها قائمة بذاتها، ليست مأخوذة من غيرها.

رابعاً – تسجيل البحث الأول في سجل المؤتمر باللغة العربية، واعتباره بين المجموعة العلمية التي تدخر للرجوع إليها.

خامساً – إستعمال اللغة العربية في المؤتمر والتوصية بالاستمرار على ذلك في الدورات المقبلة وهو توفيق لمندوبي الأزهر، يدعو إلى كثير من الغبطة، ويحفظ على الأزهر قديم فخره وحسن سمعته في خدمة الدين، ولغة القرآن.

وهذا على الإجمال إتجاه جدير بالتفاؤل، وجدير بلاشك أن يعتبر نهضة محمودة.

أثر المراغي على نزعة الشيخ شلتوت الاجتهادية

صدر الشيخ شلتوت في نزعته إلى الاجتهاد عن فكر الإمام المراغي النقدي فقد كان شخصية هادئة، ثورية في فكرها، متزنة في منطقها جريئة في آرائها تعلوه المهابة والوقار.

طرقت تلك الشخصية الفذة أبواب التجديد وهي عديدة منها الأزهر ومناهجه وشهاداته والجمود الذي لبد بغيومه على العقول والأذهان وكان التجديد في الفقه الإسلامي امله وغايته ولا عجب فهو علم يبني الشخصية الإسلامية وهو علم إسلامي أصيل يشكل سلوك الشخصية الإسلامية ويرافقها حتى بعد الموت ومثار إعجاب الغرب والمستشرقين فهو علم تطور وتدرج في مراقي النشوء والارتقاء من مائدة الإسلام نفسه لذلك نرى أن الإمام المراغي أولاه عناية فائقة ثم تسلمها الشيخ شلتوت من هذه الرؤية.

انطلق الإمام المراغي مصدرا رؤيته بقوله: ويجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة باصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة، والمجمع عليها

والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصوو والأمكنة والعرف، وأمزجة الأمم المختلفة كما يفعل السلف من الفقهاء.

ويجب أن تدرس الأديان ليقابل مافيها من عقائد وعبادات وأحكام بماهو موجود في الدين الإسلامي ليظهر للناس بسره وقدسه وامتيازه عن غيره من مواطن الاختلافات، ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها، وأسباب التفرق، وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها[١].

يقول الشيخ محمد رجب البيومي: كان شلتوت ممن أشرب حب التشريع فقها واصولا. وممن عكف على دراسته وتدريسه طالبا وأستاذا فلفت المراغي ذهنه إلى ضرورة التجديد الفقهي، كي تكون الشريعة الإسلامية قائمة بحاجات العصر، وعد نفسه منذ قرا المذكرة من جنود المراغي موكب الإصلاح[٢].

ومن هنا كان انجاه شلتوت إلى الدراسة المقارنة نقطة تحول عملي أمام الطلاب والمدرسين، فعرفوا — تطبيقا — ان اراء الأئمة يؤخذ منها ويرد وان طالب الأزهر المستنير قد ورث هؤلاء الأئمة جميعا ولم يتحجر افقه في زاوية خاصة، بل في كتاب خاص، هو موضوع هواه وسر نجواه.

فأصدر مع الشيخ محمد علي السايس كتابا فيما هو الأمثل في بابه، وتجاوز المذاهب الأربعة إلى الزيدية والإمامية.

منهج الشيخ شلتوت

ركز الإمام محمد عبده على مصطلح السلف في مقابل الحداثة الأوربية وكان مفهوم السلف لديه، هو: الإلتزام بما سار عليه الأئمة المجتهدون وهو:

* الوحي : قرآنا وسنة.
* الاجتهاد بمفهومه الواسع وليس بمفهومه المذهبي.

---

١ - مجلة الرسالة عدد ٤١٢ تاريخ ١٩٤١/٥/٢٦.

٢ - النهضة الإسلامية في سير اعلامها المعاصرين ج ١، ص ٤٥١ د. محمد رجب البيومي – دار القلم دمشق.

١.نقد روح التعصب المذهبي

تغلبت روح التعصب المذهبي الشديدة، حتى وصل الأمر في ذلك بين اتباع الأئمة إلى المناقشة في صحة الإقتداء بالمخالف في المذهب.

وأخذت هذه المسألة، مسألة صحة الاقتداء بالمخالف في المذهب – في كل مذهب مجالا واسعا في البحث والتفريع – وهكذا وصل التعصب المذهبي إلى مثل هذا الحد.

وصارت المذاهب بين المسلمين – أو بين أبناء الأزهر – أديان بتقاتل أهلها، ويضلل بعضها بعضا، وهي لا تخرج عن كونها آراء وأفهام ضرر أئمتها الأولون من تقليدها والعمل بها دون الإطمئنان إليها بمعرفة الحجة والبرهان[١].

وكان معجبا كل الإعجاب بقول الإمام أحمد بن حنبل:

لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الثوري وتعلم كما تعلمنا وبعبارة أخرى «لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الثوري ولا الأوزاعي» وخذ من حيث أخذوا.

فكان رحمه الله لا يقلد مذهبا، ولا يتعصب لرأى ، بل الكل عنده يخضع للبحث والنظر في إطار الكتاب والسنة.

ولا مانع لديه أن يقف بجانب الرأي الصحيح فكان يأخذ براي أحمد بن حنبل وابن تيمية، كما يأخذ برأي الشيعة الإمامية والزيدية.

٢- تحقيق مفهوم السلفية

ليست السلفية التي ركز عليها الإمام محمد عبده هي الجمود عند النص أو تقليد السلف شبرا بشبر أو حذو القذه بالقذه إنما السلفية هي فتح باب الاجتهاد والنظرة في الأدلة الشرعية والأخذ بالتأويل ونشر الحق بين الفرق الإسلامية كما يقول الإمام علي: اعرف الحق تعرف أهله وكما يقول الأثر الإسلامي: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

وكما يقول الإمام الغزالي: اعرف الحق تعرف الرجال.

ذلك ما ذهب إليه الشيخ شلتوت متأثرا بمنهج الإمام محمد عبده فلا يهمه أن يقف مع

١- السياسة التوجيهية العالمية في الأزهر الشيخ محمود شلتوت.

مذاهب الفقهاء متى يجد الرأي الصحيح الذي يميل إليه – ولا مانع لديه أيضا أن يقف مرة مع المعتزلة ومرة مع الأشاعرة، ومرة مع الشيعة ومرة مع أهل السنة.

أما من يتوهم أن السلفية جمود وتحجر، وتعبد مذهب بعينه فإن السلفيه تضيق منه واسعا ولا تجعل منه صاحب رسالة في التجديد والتحديث.

يقول الشيخ رجب البيومي[١] وكان من أثر منهجه الواسع ورؤيته الفقهية المتحررة من أعقال التقليد أنه لم يغفل قضية فقهية من قضايا عهده دون أن يصدر رأيه فيها، فكان مصدر الفتوى في كثير من شؤون الفقه ومسائله يزاحم أساتذته الكبار مزاحمة ناهضة مشرئبة إلى الاجتهاد حتى زاملهم مزاملة الكفء للكفء وصار ينظر رأيه الفقهي فيما يختلف فيه المتجادلون فإذا تصدر للحكم فالرأي المؤيد بالدليل والافتاء المستند إلى الترجيح والتصحيح.

من هنا كانت السلفية – كما أرادها الشيخ محمد عبده في مقابل مصطلح الاستغراب – هي النظر العقلي في إطار القرآن الكريم والسنة الصحيحة ونهج السلف من الأئمة الذين أقاموا قواعد الاجتهاد للربط بين العقل والنقل متزودين بالكتاب والسنة والتراث الإنساني وإقرار حق الخطأ في الاجتهاد وهذا ما أكد عليه الشيخ شلتوت حين ميز بين الرأي الاجتهادي الذي هو عمل بشرى قابل للرد وبين النص الإلهي وذلك عندما عالج موضوع الفهم الإنساني للدين.

الفهم الإنساني في الإسلام ليس دينا يلتزم

يقول الشيخ شلتوت وقد اتصلت بالقرآن – بعد أن التحق محمد بربه – أوهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نص في معنى واحد[٢]، ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنساني. وكثرت الآراء والمذاهب في النظريات والعمليات، لا على أنها دين يلتزم، وإنما هي آراء وأفهام فيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام، يرد فيها كل ذي رأى منها رأيه إلى الدلالة التي فهمها هو من النص القرآن، بمعونة ماصح عنده من أقوال الرسول أو أفعاله، أو

---

١ - النهضة الإسلامية.

٢ - الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٨.

من القواعد العامة التي ترمى إليها روح الدين عامة، وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة وفي معتقدهم إلا اجتهادا فرديا، لا يوجب واحد منهم على أحد من الناس أن يتبعه، بل تركوا لغيرهم ممن له أهلية الفهم وحرية التفكير والنظر.

أما العقائد الأصلية كالإيمان بالله واليوم الآخر، وأصول الشريعة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمال، فإن نصوصها جاءت في القرآن بينة واضحة لا تحتمل اجتهادا ولا إبهاما.

ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة للعقائد الأصلية وفيما يتصل بالعمليات التابعة لأصول الشرائع والأحكام.

دعوته إلى الاجتهاد

كان الشيخ شلتوت يرى أن الفقه في عصوره المتأخره أصابه الجمود والعصبية المذهبية والجمود عند أراء السابقين بعد مضي عصورها الأولى التي تميزت بالمرونة ومسايرة الأحداث التي تستجد منها يقول: لقد مضى هذا الزمن – زمن الفقهاء الأولين وصار الفقه صناعة علمية مجردة عن المعاني النفسية والفقهية، بل صار الفقه في كثير من نواحي الحياة العملية صفحات تاريخية لا تمت إلى الواقع بأدنى سبب. وانحاز الناس جميعا في تعاملهم وأحكامهم إلى أحكام أخرى يسيرون عليها في حياتهم ويضبطون بها شؤونهم غير ذاكرين ما عندهم من فقه يساير أرقى الحضارات التي مرت بالعالم الإسلامي، وتساير مايمكن أن يتاح للعقل البشري من حضارات وهي أرقى مما عرفه العالم بعد[1].

كان ذلك النقد للفقه الإسلامي دعوة إلى بذل الجهد في هذا الفقه على اختلاف مذاهبه وتحصيله وعرضه بالطريقة التي تبرزه وتبين أهدافه ومراميه – وما عالجه من مشاكل وما يمكن أن يواجهه من الحوادث التي وقعت في زماننا وأسبغنا عليها أحكاما تتناقض مع شريعة الله.

وأعرب الإمام شلتوت عن نزعته التجديدية حين تقدم باقتراح إلى هيئة كبار العلماء

---

١ - فقه القرآن والسنة.

سجلته الرسالة بالعدد (٤٣٧) وهو يدعو إلى إنشاء مكتب علمي دائم للجماعة تكون مهمته ما يأتي:

أ) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة والدين الإسلامي بخاصة في عصرنا الحاضر مع الرد عليه.

ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة كونه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ماهو بدعة مما ليس بدعة.

ج) العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان مافي كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التي دست على التفسير وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن.

د) بحث المعاملات التي جدت وتجد في العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها.

هـ) تنظيم طرق الوعظ والإرشاد والاتصال بالهيئات المعنية بذلك.

و) إحياء الكتب النافعة في مختلف العلوم والإشراف على مجلة الأزهر وإصدار الفتاوى في مايطلب من الاستفتاءات.

هذا ملخص الاقتراح، وقد بسطته الأقلام بالرسالة بسطا واضحا، حتى كتب عنه الأستاذ المدني كلمتين مسهبتين والأستاذ السبكي مقالا افتتاحيا، وبدل أن يكون لذلك تأثيره النفاذ لدى المسؤولين، نرى بعض من يحرفون الكلم عن مواضعه ويفسرون اقتراح الأستاذ شلتوت بأنه مهاجمة للشيخ المراغي، وتدور الدسائس المغرضة مدارا يدعو الشيخ الأكبر إلى الإغضاء عنه فلا يمهد الأسباب لتنفيذه على ضرورته الملحة وخطره الكبير.

وكان من أثر مقالات الرسالة المتتابعة، وجهود جماعة الشيخ عبد المجيد سليم على صفحاتها ما أوهم الأستاذ المراغي بأن الزيات يثير عليه الثوائر، وبخاصة حين ظهرت الرسالة تحمل مذكرة شهيرة كان الإمام المراغي قد أعدها أثناء ولايته الأولى على الأزهر بسط بها وجوه الإصلاح كما يرتئيه، ثم تولى الأمر بعد ذلك فنسى ما اقترح أو تناساه. وقد مهد لها الأستاذ الزيات بمقدمة جريئة قال فيها، الرسالة ٤١ "والأستاذ المراغي قد وضع هذه المذكرة لتكون برنامجه في سياسة الأزهر ثم أرتها الحكومة وارتضتها الأمة فلم يبق عليه إلا أن ينفذ ما وضع، ويطبق ما شرح ، ولكن أزهر المراغي لايزال كأزهر الظواهري يغير في الشكل ولا يغير في الموضوع، ويستعير هيكل الجامعة الحديثة، ويحتفظ بروح الجامع القديم هل

يستطيع كاتب من الكتاب أن يبين الحوائل ويشرح الأسباب؟

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة

فــإن فســـاد الـــرأي أن تترددا(١)

منهجه في التقريب بين المذاهب الإسلامية

ذهبت مجلة: رسالة الإسلام للتقريب بين المذاهب الإسلامية التي أصدرتـها دار التقريب في عددها الصادر في شهر المحرم سنة ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م إلى تعريف التقريب: بانه اتجاه جاد داخـل الإسلام مجـرد تماما مـن اللون الطـائفي والإقليمـي للتخلص مـن العـداوة المتبادلـة بـين أهـل المذاهب الإسلامية المختلفة وصيانة وحـدة المسلمين ، ذلـك أن التقريـب مرتبـط ارتباطا تاما بوحده المسلمين، إذ هو محاولة للدفاع عن هذه الوحدة.

لقد كان من الطبيعي أن ينهض الشيخ شلتوت مترسما خطى السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده والمراغي وسليم البشري، ومصطفى عبد الرازق، وعبد المجيد سليم، وبعدما قام بتدريس الفقه المقارن وأدخل فيه مذاهب أخرى مع الأربعة بتبـني الدعـوة إلى التقريـب بـين المذاهب الإسلامية، ليقضي على العصبية المذهبية والفرقة بين المسلمين يقول الإمام شلتوت: لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج وأسهمت منذ أول يـوم في جماعتـها، وفي جو نشاط دارها بأمور كثيرة منها: النشاط العلمي دفعه إلى تفسير القرآن وفق رؤية واسعة الثقافة.

ويقول: وقد تهيأ بهذه الأوجه في النشاط العلمي أن أطل علـى العـالم الإسـلامي مـن نـافذة مشرفة عاليـة، وأن أعـرف كثيرا مـن الحقـائق الـتي كـانت بـين المسلمين وإجتمـاع الكلمـة وائتـلاف القلوب علـى أخوة الإسـلام، وأن أتعـرف إلى كـثير مـن ذوي الفكـر والعلـم في العـالم الإسلامي.

وكان يرى أن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحـدة وهـي دعـوة الإسـلام والسـلام التي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عـن العصبية

---

١ - مجلة الأزهر المجلد ٣٦ عدد صفر ١٣٨٤هـ / يوليو ١٩٦٤م، مقال بعنوان: «صداقة الفكرة بين شلتوت والرسالة» للدكتور محمد رجب البيومي.

الضيقة ويدينون بدين الله وشريعته، عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا مرية فيه وأن على سائر الناس ان يتبعوه . ولكن كان يقول: هذا مذهبي وما وصل إليه جهدي وعلمي ولست ابيح لأحد تقليدي واتباعي، دون أن ينظر ويعلم من اين قلت ماقلت، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي والحديث إذا صح فهو مذهبي.

لقد أسهم الشيخ شلتوت بدور فعال في الإصلاح في سبيل تحرير الفكر البشري من الأوهام والخرافات والرجوع به إلى جوهر الدين الصافي وحقيقته النقيه السليمة وإثاره الوعي الديني بالتوجيه والنصح والإرشاد مذكرا بماضي الإسلام وتاريخه وحضارته.

جماعة التقريب

يقول الشيخ عبد المجيد سليم في تأسيسها: لما ألفت «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» انفتح للمسلمين باب عظيم من الأمل في أن تتنزل عليهم الرحمه من الله تعم بلادهم وشعوبهم، وتدفع بهم في طريق الخلاص من الضعف الذي انتابهم والذل الذي أصابهم والشتات الذي فرق بين قلوبهم، وقال المخلصون لهذه الأمة إن التقريب بين المذاهب وسيلة ناجحة من وسائل التفاهم والشورى.

وإنهم لواصلون إلى ما يبتغون من تأليف القلوب وجمعهم على كلمة سواء: بأن يؤمنوا بما آمن به الرسول والمؤمنون وأن يمحصوا ما يعرض لهم من مسائل الخلاف بتمحيص الصادقين المخلصين للحق الذين لا يبتغون الفلج ولا يتناعون الغلب. وأن يعودوا كما كانوا أمة واحدة رائدها حكمة الله وغايتها إعزاز دينه ونشر شريعته وإبلاغ العالمين رسالة خاتم النبيين.

ويضيف الشيخ عبدالمجيد سليم: وكان أهم ما اغتبطت له واستبشرت خيرا به، أن هذه الجماعة قد اخذت على عاتقها تبصير المسلمين بحقيقة دينهم، وأن تجلى لهم أصوله ومبادئه وعلومه حتى يعرفوه، فإنهم إذا عرفوه عشقوه، وإذا عشقوه لم يؤثروا عليه شيئا ولم يدخروا في سبيل نصرفه وسعا، فيصلح الله به أمر آخرهم كما صلح به أمر أولهم.

أهداف التقريب تحتم إحياءه

إن سياسة الدول والأمم في العالم قائمة على التكتل والتحالف والانضواء في مجموعات متعاونة يساند بعضها بعضا، ويدافع بعضها عن بعض. وإنهم ليلتمسون أوهى الأسباب والروابط ليرتبطوا بها، فأولى بالمسلمين أن يتحدوا فدينهم واحد وكتابهم واحد وهدفهم في الحياة بعد الممات واحد، وكل شيء بينهم يدعو الى الوحدة والألفة، ويساعد على الوحدة، فمن الخير لهم دينيا، وسياسيا كما علمتنا أحوال العالم، أن يتفقوا ويتكتلوا، وينسوا خلافاتهم ويذكروا فقط أنهم مسلمون، وأن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا وأن الله أمرهم في كتابه العزيز بأن يعتصموا بحبله وأن يتعاونوا على البر والتقوى. ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان، والا يكونوا كالذين تفرقوا من بعدما جاءتهم البينات.

* الدعوة إلى كلمة سواء بين جميع المسلمين في مختلف شعوبهم وطوائفهم: أن يكونوا لدينهم، لا لمذاهبهم، وأن يحفلوا بالأصول الجامعة لا بالفروع والخلافات المنهكة، وأن ينسوا العداوات ويتخففوا من العصبيات ويدركوا أن العالم لا ينتظرهم وأن الله لا يقبل عن المختلف معذرة.

* ليس من غاية «التقريب بين المذاهب» أن يترك السني مذهبه أو الشيعي مذهبه إنما غاية التقريب أن يتحد الجميع حول الأصول المتفق عليها، ويعذر بعضهم بعضا فيما وراء ذلك مما ليس شرطا من شروط الإيمان، ولا ركنا من أركان الإسلام، ولا إنكارا لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

* إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة وهي دعوة الإسلام والسلام وهي دعوة العقول إلى البحث في إخلاص وتضامن وابتغاء الحق بالتجرد من كل هوى من شأنه أن يخل بتقوى الله وذلك أدب البحث والباحث حين يتجه إلى محراب العلم ملتمسا أن يفيض الله عليه من نفحاته، لا تأخذه عصبية ولا يسيطر عليه مذهبيه.

* الاعتصام بمذهب السلف القائل: هذا مذهبي وما وصل إليه جهدي وعلمي ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ماقلت، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي والحديث إذا صح فهو مذهبي.

* تحقيق المبدأ السامي: الزمالة الدينية القائمة على إهدار العصبيات.

الإمام محمود شلتوت وعنايته بالفقه المقارن والتقريب بين المذاهب

الدكتور عبدالله مبروك النجار

أستاذ بكلية الشريعة والقانون وعضو مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف

تقديم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله الرحمة المهداة والنعمة المسداة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على منوال دينه واتبع منهاج شريعته الى يوم الدين.

وبعد،

فإن الأمة الاسلامية أصبحت بحاجة ماسة اليوم أكثر من أي وقت مضى الى الأخذ بأسباب الوحدة والتكاتف، حتى تستطيع أن تأخذ مكانتها اللائقة، وتمارس دورها الفعال بين أمم العالم في ظروف تضمن لها القدر الذي تستحقه من الإجلال والاحترام، وتتجلى فيها عزة المسلمين على النحو الذي أرشدهم اليه ربهم في كتابه الكريم حين قال: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} (المنافقون: ٨).

ولن تستطيع الأمة الاسلامية ان تحقق ذلك إلا إذا اخذت بأسباب الوحدة الكاملة التي تدفع بها دفعا الى القدرة على مواجهة التكتلات العالمية في ظل ظروف دولية معاصرة لا تعترف في مجال التخاطب المتكافئ والتعامل الندي إلا بالتكتلات الدولية القوية البعيدة عن عوامل التفكك، وذرائع الخلاف.

.. والخلاف في الرأي سنة كونية في المسائل التي تحتمل الخلاف، بل هو في تلك المسائل يمثل ظاهرة صحيحة يمكن أن تصل بكل من اصحاب الآراء المختلفة الى تحقيق اقوالهم وتمحيصها بما يوافق الحق. أو يحقق المصلحة، فهو في هذا الإطار يعد مدخلا للاصلاح ووسيلة للتثبت والمراجعة. فلا يضل صاحب الرأي الأوحد ولا يحرم من الاستفادة بما في آراء الآخرين من خير، ولعل ذلك المعنى هو الذي يظهر حكمة الخالق - سبحانه - حين أوجد الناس مختلفين في قدراتهم الفكرية ونظراتهم العلمية، وفقا لما أودعه في دينه من أحكام، وما أوجده

في كونه من اسرار.

.. بيد أن الخلاف في الرأي لن يكون حميداً إلا إذا كان كل من أصحاب الرأي يتوخى الوصول الى الحق مجرداً عن الغرض والهوى، وقاصداً به الوصول الى الحق ابتغاء وجه الله وحده دون تعصب مقيت او غرور يمنعه عن احترام آراء الآخرين، ولم يكن ذلك المقصد السامي متوافراً في جميع مراحل الفكر الاسلامي، مما جعل الخلاف في الرأي يتحول من أداة علم وبناء الى وسيلة اختلاف وعداء، واصبح الخلاف في الراي مدخلاً للخصام والنأي، ودبّ الفساد في أوصال الأمة حتى أورثها الضعف، وانهك قواها، وجعل أقل الأمم لا تأبه لوجودها.

ولم يكن الخلاف بين السنة والشيعة في الآراء التي وقع الخلاف بشأنها بينهم ببعيد عن تلك المظاهر الضارة، بل ساعد على تشويه الصورة الاسلامية أمام العالم بما يزيدها صدعاً وفرقة، وربما وصل الأسى مداه حين بدأ العداء ينتقل من الصورة الى المضمون، وكاد الكره أن يسيطر على قلوب اصحاب الاتجاهين حتى جاوز ما يلقاه اصحاب الملل الأخرى والمذاهب الملحدة، والنحل الضالة واصبحت الصورة قاتمة، حتى بدأت فكرة التقريب تظهر، وقيض الله لها رجالاً آمنوا بالوحدة الاسلامية كمدخل أساسي للتقدم وتحقيق مقاصد الإسلام، ووسيلة لاصلاح ما ران على قلوب المسلمين من مظاهر العداء ورأب ما فرق حياتهم من أسباب الفرقة والشتات.

وكان من أوائل هؤلاء الرجال العالم الجليل والإمام العظيم صاحب الفضيلة العالم العلامة شيخ الأزهر الاسبق الاستاذ الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ، فقد آمن بفكرة التقريب ورعاها بفكره وعلمه، وكان صاحب سبق وريادة في مجالها، فعبّد طريقها، ورعى أساسها. ووضع الأسس التي تكفل نجاحها وتؤدي الى تحقيق مقاصدها، ولأنه كان مع من شاركوه هذا العمل الاسلامي الجليل من فقهاء الشيعة ورجالها، مخلصاً في قصده، ومتجرداً لوجه الله في عمله فقد كلل الله عمله بالنجاح، ونمت فكرة التقريب حتى علت وأثمرت وأصبحت واقعاً لا يمكن انكاره، وشجرة مورقة مثمرة لا يسهل تجاهلها.

وقد أثبتت الأيام أن هؤلاء العلماء الأماجد كانوا أصحاب نظر ثاقب ورؤية اسلامية عميقة وبعيدة، فلم يكد يمر على فكرة التقريب هذه زمن يسير لم يتجاوز اربعة عقود من

الزمان حتى ظهرت الحاجة ملحة الى إحياء تلك الفكرة وتدعيمها حتى تكون أداة لجمع شمل الأمة الاسلامية في مواجهة التكتلات الدولية التي استقرت لغة الخطاب الدولي عليها لتكون هي واجهة التعامل الدولي في مستهل الألفية الثالثة.

وهذه الدراسة تجيء في اطار تلك الغاية، ولا يثنيها عن ذلك المقصد الأسمى ان تكون دائرة حول شخصية الإمام محمود شلتوت وأثره في الفقه المقارن وفكرة التقريب، لأن الربط بين شخصية الإمام وتلك الفكرة لا يمكن انكاره، كما لا يمكن انكار أثر دراستها في تدعيمها.

أسأل الله التوفيق والهداية والقبول، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

الفصل الأول: التعريف بالإمام الاكبر محمود شلتوت رحمه الله

هو الإمام الجليل والفقيه الكبير، صاحب الثقافة الاسلامية الواسعة والأفق العلمي الرحب، والشخصية القوية، والأسلوب البليغ، والصوت القوي المعبر، والحجة البالغة، إنه الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله وطيب ثراه.

مولده

ولد الإمام الأكبر محمود شلتوت سنة ١٨٩٣م في قرية منية بني منصور التابعة لمركز إيتاي البارود بحيرة، وقد بدأت أولى خطوات العلمية بحفظ القرآن الكريم، شأنه في ذلك شأن اقرانه من طلاب العلم الذين لم يكن ليستقيم لهم طلبه إلا بحفظ كتاب الله ـ تعالى ـ، وبعد الانتهاء من حفظ القرآن الكريم، التحق بمعهد الاسكندرية سنة ١٩٠٦م طالباً صغيرا يطلب العلم، لكنه اللهم وإن كان صغيرا في سنه اللهم، إلا انه كان كبيرا في فهمه وقوة عقله وحدة ذكائه فظهرت عليه دلائل النبوغ منذ بواكير حياته، حيث كان متفوقاً في دراسته وكان أول دفعته في جميع المراحل، وظل على منوال هذا التفوق حتى نال شهادة العالمية سنة ١٩١٨م، وكان أول الناجحين فيها.

حياته العملية بعد التخرج

بعد أن حصل الإمام محمود شلتوت على شهادة العالمية عين مدرساً علمياً بمعهد الاسكندرية الديني في أوائل سنة ١٩١٩م، وكان هذا المعهد يعد مركزا علمياً راقي المستوى في ذلك الوقت، وربما تجاوز برفعة مكانته العلمية ما تحتله جامعة علمية متكاملة الخصائص الآن، حيث كان أساتذة هذا المعهد من كبار العلماء، وكان لا يحتوي بين أعضاء هيئة التدريس به إلا من عرف عنهم كثرة العلم من خريجي الأزهر الشريف ولقد صادف تعيينه بالمعهد الاسكندري في هذا العام، اندلاع الثورة الشعبية المصرية القوية بزعامة سعد زغلول، وامتدت الثورة ضد الاحتلال الانجليزي فشملت الشعب كله بجميع طوائفه، وقام الإمام الجليل بدوره في تلك الثورة على اتم وجه، وشارك فيها بقلمه ولسانه، وكان له في كل موقف جرأة معهودة.

وحين تولى الإمام المراغي مشيخة الأزهر قام بنقله الى القاهرة مدرساً للقسم العالي، الذي كان يرأسه في ذلك الوقت الاستاذ الجليل الشيخ عبدالمجيد سليم الذي ولى مشيخة الازهر فيما بعد، وبهذا النقل أصبح قريباً من الإمام المراغي وبحكم هذا القرب غدا أحد جنوده من العلماء النجباء في حركته التي تبناها لإصلاح الازهر، فأيده في مذكرته التي تقدم بها لهذا الاصلاح، ودعا بكل ما أوتي من علم وقدرة على الإقناع الى الأخذ بالمبادئ القيمة التي تضمنتها، بيد أن هذه الحركة لم تلق ارتياحاً من الملك فؤاد، كما حاربها بعض رجال الأزهر. وانتهى الأمر باستقالة الشيخ المراغي رغم مكانته العلمية وثقله الكبير في الوسط الازهري، ولما ولى الشيخ الظواهري مشيخة الأزهر، وكان من المؤيدين لحركة الاصلاح التي قادها الشيخ المراغي، إلا انه كان يرى ضرورة التأني مراعاة للظروف، وحتى يتم التفاهم بين أولياء الأمور في تدبير خطوات هذا الإصلاح، مما أثار ضده كثيرا من المتحمسين للاصلاح الفوري من العلماء والطلاب وثاروا لذلك، فقابل ثورتهم بالشدة وفصل المتزعمين لتلك الثورة ومنهم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

اشتغل بالمحاماة بعد فصله من الأزهر. وزامل في هذا العمل صديقه الشيخ علي عبدالرزاق وزير الاوقاف الاسبق، فزادته تلك المهنة معرفة دقيقة لطبائع النفوس كما

زادت فقهه للتشريعات القانونية بجانب حصيلته الكبرى من العلوم الشرعية والفقهية ثم أعيد للازهر في فبراير سنة ١٩٣٥م وعين مدرسا بكلية الشريعة، ثم وكيلاً لها بعد عودة الشيخ المراغي الى مشيخة الأزهر، واختير سنة ١٩٣٧م لتمثيل الأزهر في مؤتمر القانون الدولي المقارن بلاهاي في هولندا.

وفي سنة ١٩٣٩م عين الشيخ محمود شلتوت مفتشاً بالمعاهد الدينية، وكان لتقريراته وملاحظاته أثر كبير في اصلاح النواحي العلمية والإدارية بالمعاهد الازهرية، ثم أعيد مرة ثانية الى وكالة كلية الشريعة.

وفي سنة ١٩٤١م نال شرف عضوية هيئة كبار العلماء بإجماع كافة أعضائها، وذلك برسالته القيمة التي اعدها لهذا الغرض بعنوان: (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الاسلامية)، وكانت عضويته بتلك الجماعة ارهاصاً بظهور مجمع البحوث الاسلامية الذي نبتت فكرته في عقله بعد فوزه بعضوية جماعة كبار العلماء، وكان له أكبر الأثر في ظهوره الى حيز الوجود ليؤدي دوره العالمي الخالد حتى اليوم.

وعين فضيلته سنة ١٩٤٦م عضوا بمجمع اللغة العربية، وانتدبته جامعة فؤاد (القاهرة) لتديس مادة فقه القرآن والسنة لطلبة دبلوم الشريعة الاسلامية فقام بمهمته خير قيام.

وفي سنة ١٩٥٠م عين مراقباً عاماً لمراقبة البحوث والثقافة الاسلامية بالأزهر، وفد استطاع أن ينهض برسالتها في فترة وجيزة وأن يوثق صلتها بالعالم الاسلامي في مختلف القارات.

وفي سنة ١٩٥٧م اختاره السيد الرئيس محمد أنور السادات، وكان ـ وقتئذ ـ يعمل سكرتيرا عاماً للمؤتمر الاسلامي، مستشارا للمؤتمر الاسلامي، ثم عين وكيلاً للازهر الشريف وكان مع كل تلك المهام عضوا في مجلس الإذاعة الأعلى، وعضوا في اللجنة العليا لمعونة الشتاء، وعضواً في اللجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية، كما كان رئيساً للجنة العادات والتقاليد بوزارة الشؤون الاجتماعية، كما كان صاحب نشاط بارز في الدعوة الاسلامية عبر قنواتها المختلفة، وخطيب الجمعة بمسجد الأمير محمد علي بقصره بالمنيل، ويرد على الرسائل ويفتي في المشكلات، ويلتقي بزعماء المسلمين، ويحاضر في الكليات، ثم يتابع تأليف

كتبه وابحاثه.[1]

تولي فضيلته مشيخة الأزهر الشريف

وفي الثالث عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٥٨م صدر القرار الجمهوري بتعيينه شيخاً للازهر، فكان جديرا بهذا المنصب، وكان المنصب جديرا به، وما كاد يعتلي اريكته حتى ركّز جهوده في انشاء مجمع البحوث الاسلامية الذي كان متطلعاً لانشائه، حيث كان يرى فيه رابطة علمية وروحية وثيقة تشد أزر المسلمين جميعاً وتزيل ما بينهم من خلافات بثها الاستعمار، ونمتها القرون، وقد قيّض الله جهوده بالنجاح وتحقق أمله في انشاء هذا المجمع العريق، فصدر القرار الجمهوري بإنشائه ضمن القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم الأزهر، والهيئات التي يشملها، وانعقد مؤتمره الأول سنة ١٩٦٤م ومازال يؤدي رسالته الجليلة في العالم الاسلامي حتى الآن.[2]

وقد ذاعت شهرة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في كافة ربوع العالم الاسلامي فزار عددا كبيرا من البلاد الاسلامية، منها اندونيسيا والملايو، والفلبين ضمن بعثة كونها لتلك الزيارة سنة ١٩٦١م وقد استقبل في تلك البلاد استقبالا رسميا وشعبيا يجل عن الوصف كما طار الى هونغ كونغ في طريق عودته الى مصر، فاستقبله أبناؤها من المسلمين بالمطار استقبالا حافلا وأحاطوه مع أعضاء البعثة المرافقة بكل حفاوة وتقدير، كما زار قطاع غزة، والتقى باللاجئين في معسكراتهم، فبث فيهم روح الأمل والنضال والكفاح.

وقد استقبل في مصر كثيرا من رؤساء الدول الاسلامية فغمرهم بفضله وتكريمه لهم، ومنح بعضهم شهادات فخرية من جامعة الأزهر، مما جذبهم الى مصر ودعم روابط بلادهم بمصر.

ونال فضيلته درجة الدكتوراه الفخرية من كل من جامعة شيلي بأميركا اللاتينية،

---

١. الأستاذ علي عبد العظيم ـ مشيخة الازهر منذ انشائها حتى الآن، ج٢، ص ١٨٥ وما بعدها، نشر الأمانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية سنة ١٩٧٨م.

٢. المرجع نفسه، ص ١٨٦.

والجامعة الاسلامية باندونيسيا، وجامعة سومطرة الشمالية، وكلية كامل الإسلامية بالفلبين.

كما منح وسام الشرف من الملك محمد الخامس ملك المغرب، والملك محمد طاهر شاه ملك افغانستان، والفريق ابراهيم عبود رئيس جمهورية السودان، ومنح لقب مواطن فخري من الرئيس احمد اهيدجو رئيس جمهورية الكاميرون.[٣]

مؤلفاته العلمية

وقد ألف الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت كثيرا من الكتب والبحوث القيمة التي تمثل ثروة علمية قل أن يوجد لها نظير، ومن أهم مؤلفاته:

١ـ فقه القرآن والسنة.

٢ـ منهج القرآن في بناء المجتمع.

٣ـ يسألونك. وهو إجابة عن أسئلة تلقاها من المستمعين عبر أحاديثه الإذاعية.

٤ـ مقارنة المذاهب.

٥ـ المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية. رسالة القاها في مؤتمر القانون الدولي بلاهاي، ونال بها عضوية هيئة كبار العلماء.

٦ـ من توجيهات الإسلام.

٧ـ الإسلام عقيدة وشريعة.

٨ـ الفتاوى. وهي تضم راي الإمام في كثير من قضايا العصر ومشكلاته الاجتماعية.

٩ـ تنظيم النسل.

١٠ـ الاسلام والقتال.

١١ـ العلاقات الدولية في الاسلام.

١٢ـ الاسلام والوجود الدولي للمسلمين.

١٣ـ رسالة الأزهر.

٣ـ المرجع نفسه، ص ١٩٤.

١٤ـ القرآن والمرأة.

١٥ـ تفسير القرآن الكريم. وهو يضم تفسير عشرة الأجزاء الأولى، ويمتاز هذا التفسير بالنظرة التكاملية المترابطة للسورة والتنقية من الأساطير والاقتصار على المعاني القرآنية دون استطراد.

مرضه ووفاته

وقد وعك الإمام الأكبر في نهاية حياته، فاصابه مرض اقتضى اجراء عملية جراحية له ورغم أنها قد تمت بنجاح، إلا أن نجاحها كان ـ كما يقولون ـ صحوة الموت، فجرى عليه أمر الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وتوفى ليلة الإسراء والمعراج سنة ١٣٨٣ هـ عن عمر يناهز السبعين عاماً. رحمه الله ورضى عنه وأرضاه.

هموم الوحدة الاسلامية وأثرها في حياة الإمام

ويبدو من تلك اللمحة العاجلة عن حياة هذا العلم الكبير، أن وحدة المسلمين كانت شغله الشاغل، وأنه في إطار ذلك الاهتمام الكبير بما يحقق وحدة المسلمين وينأى بهم عن الخلاف سيطرت عليه فكرة انشاء مجمع البحوث الاسلامية ليكون أداة لتحقيق تلك الوحدة من خلال هذا المجمع، حتى يتسنى ترشيد استخدام الخلاف في الرأي حول بعض المسائل العلمية، بما ينأى به عن رواسب العداء والكره، وتمزيق الوحدة المنشودة للمسلمين، ولم تكن تلك الفكرة وليدة اهتمام طارئ منه، او نظر عارض ولكنها كانت فكرة متأصلة في أعماقه قبل أن يتولى مشيخة الأزهر، ولهذا فإنه لم يكد يتولى هذا المنصب الرفيع، وأصبح قادرا على تنفيذها من خلاله، لم يتردد في التنفيذ وانشئ المجمع فعلاً ضمن مؤسسات الأزهر في القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م ولاشك ـ لدينا ـ في أن اهتمامه بفكرة التقريب يجيء من خلال هذا الاهتمام المتوقد فيه بوحدة المسلمين وازالة كل ما يمكن أن يعكر صفوها وأنها كانت وسيلة من ضمن الوسائل التي تبناها وتغيا به تحقيق هذا المقصد الأسمى، عن إيمان وعقيدة، واهتمام يحدوه الإخلاص لله ولرسوله وللدين الخاتم.

الفصل الثاني : اهتمام الإمام محمود شلتوت بالفقه المقارن

كان الإمام محمود شلتوت فقيهاً من طراز متميز في فهم النصوص الشرعية واستنباط الأحكام منها، وقد جمع في ذلك بين الإحاطة العلمية بأدوات الاستنباط من أدلة التشريع، مع حدة الذكاء وقوة البديهة، وفقه النفس الذي ينطوي على إلمام كبير بأحوال الناس وظروفهم، وبواعث التصرفات التي تصدر منه على نحو يبصره بالحكم الصحيح على كل حالة رغم تشابه المظهر في التصرف المحكوم عليه، وقد مكنه من ذلك: انه قد مارس المحاماة في فترة من حياته حين فصل من الأزهر في عهد الإمام الظواهري، فكان فصله من الأزهر كالمضرة النافعة، وقد اجتمعت تلك العوامل في فقهه فجعلت منه فقيهاً من كبار فقهاء عصره بلا جدال، ومكنته من استخراج الأحكام الفقهية لكثير من القضايا الملحة، التي لم يؤثر لقدامى الفقهاء فيها كتابات خاصة. فجمع في فقهه بين الأصالة والمعاصرة، واستطاع أن يطوع القواعد العامة للفقه الاسلامي، ومبادئ التشريع للفروع الخاصة التي استجدت في حياة الناس، وأصبحت تمثل حاجة ملحة تحتاج الى معرفة حكمها الشرعي وفق ما حكم به الله ورسوله، ونعالج ذلك في مبحثين:

المبحث الأول : أسباب اهتمام محمود شلتوت بالفقه المقارن

لقد اهتم الإمام الأكبر بالفقه المقارن اهتماماً خاصاً، لأن ذلك النوع من الفقه هو الذي يمكن أن يشبع عقلاً متقد الذكاء في الإمام الجليل، فلم يكن بمقدور هذا العقل الكبير أن يقنع بآثار إمام واحد من الأئمة او مجتهد ليس إلا من المجتهدين، فإن ذلك الأثر بالنسبة له محدود لا يملأ مساحة الذكاء في عقله، او مقدار الفهم في قلبه. ولهذا كان نهمه شديدا بالوقوف على آراء الفقهاء في المذاهب المختلفة، حتى يستطيع أن يقف على أكبر قدر من الفقه في المسألة الواحدة بما يقدر معه على الانتقاء والموازنة والترجيح. واختيار الراي الذي يناسب أحوال الناس، وحتى لا يقف امامها مغلول اليد غير قادر على انتقاء الحكم الذي يلائم مقتضى احوال الناس، فقد شاءت إرادة الله أن يجعل في اختلاف أفهام عباده رحمة اغتبطها

كبار العلماء ووجدوا فيها اداة لأعمال المبادئ القاضية بالتيسير في شريعة الله ورفع الحرج عن عباده.

ولاشك ان كبر المساحة الفقهية التي تتاح من خلال دراسة الفقه المقارن هي التي وسعت أفق الإمام وجعلته مسلحاً بأدوات الإقدام على استنباط الحكم الشرعي لكثير من الأمور الحديثة التي كان غيره يتهيب الخوض فيها أو الإدلاء برأي في اوصافها الشرعية، وقد ساعده على ذلك أمران:

أولهما: أنه قد درس المذاهب الفقهية المختلفة وتعمق فيها، فدرس المذاهب الأربعة، كما درس مذهب الشيعة الإمامية والشيعة الزيدية ومذهب الظاهرية، ومذهب الإباضية كما درس آراء أهل السنة والمعتزلة والأشاعرة، واصبح من خلال تلك الدراسة ثابت القدم في مجال الدراسات الفقهية المقارنة، حتى بلغ مبلغ الاجتهاد فيما يكتب من آراء وفيما يصدره من فتاوى او يؤلفه من مصنفات، وهو في مجال الفقه يمكن ان يكون مجتهد مذهب.

ثانيهما: أنه كان شجاعاً فيما يعتقد انه الحق، فإذا بحث موضوعاً ألمّ باطرافه واقوال الفقهاء فيه، ثم يوازن بينهما، فإذا اطمأن الى رأي اقتنع به عقله، وارتاح اليه قلبه أعلنه على الملأ مدعماً بالأدلة والبراهين غير ملتفت الى اعتراض المخالفين، او جمود المقلدين بل حتى ولو خالفه الجميع، وأثاروا ضده العوام، ويبدو أن هذا المنحى قد تكون لديه من تاثره بالفقيهين الكبيرين المجتهدين ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، كما تأثر بالإمامين الكبيرين جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده في اطلاق حق التفكير لعقله في فهم أدلة الشارع والبحث والدراسة دون تأثر بمذهب من المذاهب او طائفة من الطوائف، فإن التبس عليه أمر عاد الى الكتاب والسنة وكبار الباحثين في شتى المذاهب، كما افادته تجاربه العامة والوظائف التي تقلّدها، والبلاد التي سافر اليها في مختلف انحاء العالم وصلاته بكبار زعمائه وقادته ومفكريه في معرفة كثير من الحقائق والوان المعارف العديدة التي لم تتح لغيره من الفقهاء المعاصرين، حتى إن الإمام الأكبر الأسبق الشيخ عبدالحليم محمود قد وصفه بما يبرز فيه كل تلك الجوانب الفقهية فقال: إنه عالم مفكر قوي الحجة متحدث لبق.[٤]

---

٤. مشار إليه في كتاب: مشيخة الأزهر للأستاذ علي عبدالعظيم، ج٢، ص١٩١.

فإذا أضفنا الى هذين الأمرين ما أودعه الله فيه من يقظة الفكر وقوة الذاكرة، وحدة الذكاء، والقدرة على إقناع المخاطبين بما اختص الله به من قوة الصوت، وشدة الإقناع، استطعنا أن نقف على سر تنوع انتاجه الفقهي وغزارته في مختلف الميادين.

المبحث الثاني: أثر الفقه المقارن في تكوين الملكة الفقهية والفكرية للإمام

لقد كان إلمام الإمام الأكبر فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت اثر في تشكيل ملكته الفقهية وإمداده بالقدرة على عمق إنتاجه وتنوعه وكثرة الميادين العلمية التي نشط فيها والتي تشير الى نبوغه وتفوقه على اقرانه، بل وأهل زمانه في هذا المجال.

ويمكن القول إن اهتمام الإمام بدراسة الفقه المقارن قد صنع ملكته الفقهية، بما جعل عطاءه العلمي هادرا وافرا ذا بعدين يمكن إلقاء الضوء على كل منهما في مطلب.

المطلب الأول: البعد النوعي لفقه الإمام محمود شلتوت رحمه الله

لقد استطاع الإمام الأكبر المرحوم فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت أن يسبر أغوار فقه الإسلام من الفه الى يائه، وابتدأ من الفقه الأكبر الى فقه الفروع بكافة أبوابه وجميع مشتملاته، وانتهاء بالأخلاق وما يتفرع عنها من الفصول والمباحث، ولم يكن ذلك النوع من العلم يتيماً في حياته، بل جمع معه علم اصول الفقه، وعلوم اللغة والسيرة والتاريخ والمنطق والفلسفة وما اليها من علوم العقل والنقل حتى غدا بكل ذلك فقيهاً فذا وعلماً شامخاً في مختلف علوم الدين، وفي جميع ابواب الشريعة، ويبدو هذا البعد واضحاً في كتابه القيم: الإسلام عقيدة وشريعة، الذي وصل في بعده النوعي درجة ترقى به للتعريف بالإسلام على نحو كامل لمن يريد أن يتعرف عليه، فتعرّض فيه لكل المسائل والموضوعات المؤدية لهذا المقصد الأسمى، وقسمه الى ثلاثة اقسام:

القسم الأول: خصصه لدراسة العقيدة، وضمنه بابين.

تحدث في أولهما: عن العقائد الأساسية في الاسلام.

وفي ثانيهما: عن طريق ثبوت العقيدة.

القسم الثاني: خصصه لدراسة فروع الشريعة، وقسمه الى ستة ابواب:

الباب الأول: للعبادات، وتحدث فيه عن الصلاة والزكاة والصوم والحج.

وفي الباب الثاني: تحدث عن نظام الأسرة والمواريث في فصول من تكوين الأسرة والمحافظة عليها والطلاق، وتعدد الزوجات وضوابطه، وتنظيم النسل، والمرأة في نظر الإسلام والمواريث مع بيان القواعد التي تحكمها.

وفي الباب الثالث: تحدث عن الأموال والمبادلات.

وفي الباب الرابع: تحدث عن العقوبات وجريمة القتل في الإسلام والشرائع الأخرى، وبين أحكام القرآن والسنة في القتل والقصاص، ثم تكلم عن القصاص فيما دون النفس.

وفي الباب الخامس: تحدث عن المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية.

وفي الباب السادس: تكلم عن الأمة في الإسلام وما يتعلق بقضايا الفقه الدستوري والدولي في الإسلام، ثم عقد خاتمة عن الأخلاق في الإسلام.

القسم الثالث: خصصه للحديث عن مصادر الشريعة.

وتحدث في الباب الأول عن القرآن الكريم والمباحث المتصلة به من جهة تلاوته، واستنباط الأحكام منه.

وتحدث في الباب الثاني عن السنة والموضوعات المتصلة بها ومحتوياتها.

وفي الباب الثالث: تحدث عن أسباب اختلاف الأئمة في فقه الكتاب والسنة.

وفي الباب الرابع: تحدث عن الرأي والنظر.

ويبدو من استعراض الموضوعات التي تناول الإمام دراستها في هذا السفر القيم أنها قد أحاطت بمجمل فروع الشريعة على نحو يبرز اتساع الأفق العلمي للإمام، ويشير الى المدى الكبير لنطاق البعد النوعي في فقه الإسلام.

خصائص البعد النوعي لفقه الإمام محمود شلتوت

ومن يتأمل اسلوب المعالجة الفقهية في كتاب الإسلام عقيدة وشريعة يمكن أن يدرك بيسر وسهولة الخصائص المميزة لهذا الجانب في فقهه ـ رحمه الله ـ وهي تتسم بأمرين:

أولهما : قيام منهجه العلمي فيه وفق الأعراف العلمية الصحيحة

لقد سلك الإمام الأكبر منهجاً علمياً في تناول موضوعاته يقوم على نسق منطقي يتواءم مع ما تقتضي به الأعراف العلمية الصحيحة، فلم يغفل حسن العرض وجودة الترتيب، ونظم المسائل مع بعضها في دقة تجعل من حسن العرض وسيلة الى يسر الفهم، ومساعدة القراء على سرعة الإلمام بتلك الموضوعات التي يشق استيعابها عليهم عادة، لما ركبت عليه من دقة، ولما تنطوي عليه من وجوه الدلالات ذات المغزى العلمي الدقيق، ويبدو ذلك واضحاً من بدء الكلام عن العقيدة على أساس أنها هي الأصل، ثم تكلم عن الشريعة باعتبار انها هي الفروع القائمة على هذا الأصل، وفي النهاية تكلم عن المصادر وكيفية دلالتها على الأحكام، وذلك على أساس أن القارئ - وقد احاط علماً بتفصيلات المسائل المتعلقة بالعقيدة والشريعة - يكون قد استشرف الى معرفة المصادر التي استقيت منها تلك الأحكام وكيفية استخراجها منها، وهذا ترتيب منطقي يقره الحس السليم، والعقل السوي، وفي إطار القسم الواحد، بل والباب الواحد التزم هذا المنهج.

ثانيهما : جدية التناول ورقي اسلوب المعالجة

ولقد كان الإمام محمود شلتوت - رحمه الله - جادا في تناوله للموضوعات التي عرضها في كتابه فجاء عرضه لتلك الموضوعات متسما بالتاصل القائم على وعي تام بأسرار التشريع واستيعاب لعلل الأحكام والمقاصد التي يتغياها من إيراد الحكم في الموضوعات المختلفة، ولهذا كان عرضه مرآة صادقة لوسطية الإسلام واعتداله، وبعده عن الظلم والمحاباة بين بني البشر، وكان من اليسير عليه - وقد نحا في عرضه هذا المنحى الجاد - أن يدفع عن الإسلام الشبه التي رماه بها المستشرقون وغيرهم من الذين لم يفهموا الإسلام فهما صحيحا، أو الذين يحقدون عليه ولا يريدون ان يسمعوا له اسما، وكان في رد تلك الشبه مقنعا لخصوم الإسلام، قبل أن يكون منبها لأبنائه ومعلما لهم، وآخذا بأيديهم الى مجالات الدفاع الصحيح عنه، فعل ذلك حين عرض لمنهج الإسلام في نظام المواريث، وفي موقف الإسلام من المرأة والقصاص، وحرية العقيدة والقتال، وغيره، وكان عرضة لتلك الشبه والرد عليها دقيقا في فهمه سلسا في عرضه، منطقيا في إقناعه، عقلانيا في تعامله مع الأدلة الشرعية التي تناول بيانها.

ولم يقتصر الأمر في هذا المجال على جدية التعامل وحدها، ولكنه اختار لنفسه اسلوبا لغويا يتسم بالجزالة والرقي وبلاغة التعبير في غير تقعر، وبعيدا عن الأساليب المعقدة والعبارات الغريبة، كان دقيقا في أسلوبه الى الحد الذي يتعذر فيه حذف كلمة منه، او استبدال عبارة بغيرها، إذ لو تم ذلك فلربما لا يتحقق المعنى الذي يريده مما كتب.

المطلب الثاني : البعد الموضوعي في فقه الإمام محمود شلتوت

ولفقه الإمام الأكبر المرحوم محمود شلتوت بعد آخر يتعلق بالموضوع في المسائل التي تناولها. وله في هذا المجال منهج واضح واسلوب ظاهر كفلق الصبح يمكن إدراكه ويتسنى الوقوف عليه، بيد أن من يريد ان يقف على كنه منزلة الإمام في هذا المجال لا يجوز له أن يقف عند تشابه مسميات الموضوعات فيما كتب، لأن ما كتب فيه قد يكون محل تناول ودراسات مستفيضة من عشرات العلماء غيره، إلا أنه مع ذلك التشابه يبقى متميزا ومتفردا في كيفية التناول، وفي هذا الصدد يمكن ابراز امرين:

أولهما : نقاء العقيدة وتنزيه الوحدانية من علائق الشرك

فقد كان الإمام محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ صاحب عقيدة صافية، وإيمان قوي لا يعرف الدخل، ولا يرتضي الشوائب، ولا يقبل أن يتخوض فيما يخوض فيه غيره من السلوك المنافي لإخلاص العقيدة والبعد عن أتون الشرك بكافة أنواعه، ولهذا فإنه قد حمل حملة شعواء على ما يفعله العوام في الموالد، وحول قبور الأولياء، وفي هذا الإطار نعى على أولئك الذين يستغلون كتاب الله في الترويج لوسائل الدجل، وقال: إن استخدام القرآن في ذلك القصد به أربابه زلزلة الانسانية الضعيفة، وصرفها عن جهات العلم النافع الذي يطمئنها في الحياة[٥]، كما شنع على بدعة الموالد وأظهر ما تنطوي عليه من المفاسد التي لا يقرها الدين، وفي ذلك يقول: إن لتلك الموالد عشاقا يضعونها في مصاف الشؤون الدينية التي يتقربون بها الى الله عن طريق الولي فيحفظون امتعتهم ويرتحلون بقضهم وقضيضهم، برجالهم ونساءهم بشبوخهم وشبابهم، ويلقون بأحمالهم ـ كما يقولون ـ على شيال الحمول صاحب المولد،

٥ـ الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت ـ ص ٣٢، طبعة دار الشروق.

تاركين بيوتهم ومصالحهم في قراهم ومزارعهم مدة تتراوح بين اسبوع واسبوعين، ثم يقول: وفي تلك الموالد نرى حفلات المقامرين والمقامرات بجانب حفلات المدمنين والمدمنات، وبجانبها حفلات الذاكرين والذاكرات والخليعين والخليعات والراقصين والراقصات، ويجوس خلال الجميع المتسولون والمتسولات، والنشالون والنشالات، وكل ذلك يصنع في الموالد، وعليه تقام وإليه يهرع الناس باسم الولاية وتكريم المشايخ.(٦)

ثم يقول: لقد صارت تلك الموالد مباءة عامة تنتهك فيها الحرمات وتراق في جوانبها دماء الأعراض، وتمسخ فيها وجوه العبادة، وتستباح البدع والمنكرات، ولا يقف فيها أرباب الدعارة عند مظهر او مظهرين من مظاهر الدعارة العامة، ومن أشد ما يؤلم أن نرى تلك المظاهر الداعرة تطوق في المدن معاهد العلم والدين ومساجد العبادة والتقوى على مسمع ومرأى من رجال الحكم ورجال الدين أرباب الدعوة والإرشاد.(٧)

كما نعى على هؤلاء الذين يضعون الشمع والناديل على مقامات الأولياء مع ان الدين لا يعرف ما يسمى بمقامات الأولياء سوى ما يكون للمؤمنين المتقين عند ربهم من درجات، وإنما يعرف كما يعرف الناس ان لهم قبورا، وان قبورهم كسائر قبور موتى المسلمين، يحرم تشيدها، وزخرفتها، وإقامة المقاصير عليها، وتحرم الصلاة فيها وإليها والطواف بها، ومناجاة من فيها، والتمسح بجدرانها، وتقبيلها والتعلق بها، ويحرم وضع أستار وعمائم عليها، وإيقاد شموع أو ثريات حولها، وكل ذلك - مما نرى ويتهافت الناس عليه ويتسابقون في فعله على أنه قربة لله أو تكريم للولي او قربة وتكريم - خروج عن حدود الدين، وارتكاب لما حرمه الله ورسوله في العقيدة والعمل، وإضاعة للأموال في غير فائدة، وسبيل للتغرير بأرباب العقول الضعيفة، واحتيال على سلب الأموال بالباطل.(٨)

وفي هذا الإطار - أيضا نعى على هؤلاء الذين يعتقدون في طيران الموتى، وبين ما تنطوي عليه أفكارهم من زيف وسفه، وقال: إنه لم يطر احد محمول في سيارة، ولم يطر أحد من

٦- المرجع نفسه - ص ١٩٣. وما بعدها.

٧- المرجع نفسه - ص ١٩٤، وما بعدها.

٨- المرجع نفسه، ص ١٩٥.

الصحابة[٩]، وتكلم عن عادات المآتم وما فيها من مظاهر الخروج عن أحكام الدين وآدابه. [١٠]

وهو بتناوله لتلك الموضوعات، إنما يتغيا الانتصار لما يؤمن به، وهو صفاء العقيدة ومحاربة البدع والخرافات التي ألحقها الناس بالدين وهو منها براء، وتنزيه الوحدانية من شوائب الشرك وعلائق النفاق.

ثانيهما: شجاعة الرأي وأمانة العرض

ولقد كان الإمام محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ صاحب رأي شجاع في الحق لا يعرف الخوف أو التردد ولا يتهيب إعلان ما يعتقد أنه الصواب حتى ولو خالفه الجميع، وجاء على خلاف ما يسير عليه المقلدون، وأصحاب الفكر التقليدي الذين يميلون الى تقديس رأي من سبقوهم من الفقهاء دون موازنة بينه وبين الرأي الآخر بغية التمحيص والوصول الى الأفضل، ولهذا كان الشيخ ـ رحمه الله ـ قويا في علمه، واستطاع من خلال تلك القوة أن يقتحم غمار المسائل الشائكة التي تحرج غيره من دراستها، وتهيب حتى من مجرد الخوض فيها، وفي هذا المجال، أبدى رأيه بشجاعة تحسب له في حكم أرباح صندوق التوفير، وقال إنها ليست فائدة لدين حتى تكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حراما على فرض صحة النهي عنه، وإنما هي وسيلة للتشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع[١١]، ولم يكن أحد من الفقهاء قبله يملك مثل هذا القدر من الشجاعة على الجهر بمثل هذا الرأي.

ودون دخول في تفصيلات حكم تلك المسألة وما تقوم عليه من أدلة ترجح حلها او تحريمها، ألا أنه يبقى في الموضوع تلك الشجاعة العلمية الفائقة التي جعلت الشيخ يتمسك برأيه ويعلنه ويدافع عنه رغم أنه كان يسبح به ضد تيار المجتمع، ومن ذلك رأيه في إطلاق اللحية، حيث قال بعد أن عرض لبيان كل رأي وأدلته بحياد تام وموضوعية خالصة: والحق أن أمر اللباس والهيئات الشخصية، ومنها حلق اللحية من العادات التي ينبغي أن ينزل المرء فيها على استحسان البيئة، فمن درجت بيئته على استحسان شيء منها كان عليه أن

---

٩. المرجع نفسه، ص٢٠٠.

١٠. المرجع نفسه، ص٢١٣.

١١. المرجع نفسه، ص ٣٥٢.

يساير بيئته، وكان خروجه عما ألف الناس فيها شذوذا عن البيئة. [١٢]

ويلاحظ أنه لم يكن - حين يميل الى ترجيح رأي من الآراء - يغمط الرأي الآخر حقه، او يهمل عرض كافة أدلته. بل كان يعرض الآراء في المسألة بأمانة، ثم بعد ذلك يرجح منها ما يراه راجحا وفقا لقوة الدليل، ومما يحققه الرأي الراجح من المصلحة بحسب النظر العقلي السديد.

الفصل الثالث : دور الإمام الأكبر محمود شلتوت في التقريب بين المذاهب

المبحث الأول : أساس فكرة التقريب ونشأتها

الإيمان بالوحدة الاسلامية لا يمكن أن يستقيم إلا في ظل عقل فسيح الفكر رحب النظر يستطيع فهم ثقه الخلاف من خلال الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي الزاهر حيث كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ويترفعون بدين الله وشريعته عن الجمود والتخلف، فلا يزعم أحد لنفسه أنه أتى بالحق الذي لا مرية فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ويجب أن يتوافر بجوار ذلك العقل الفسيح إيمان قوي بتلك الوحدة يجعل صاحبه دائب العمل على تحقيقها ودائم السعي في سبيل رعايتها ونموها.

وقد اجتمع هذان العاملان في شخص الإمام الكبير الفقيه الشيخ محمود شلتوت، ولهذا فإنه لم يكن يدخر وسعا في سبيل السعي لتحقيق تلك الوحدة بكل ما من الله به عليه من علم وذكاء وخبرة وسلطة.

فلما أتيح له أن ينشئ مجمع البحوث الاسلامية ليكون أداة لتحقيق أمله في وحدة المسلمين، لم يتوان لحظة في سبيل ذلك، وأنشئ المجمع - بحمد الله وتوفيقه - ومازال يؤدي مهمته في ربط أواصر التواصل العلمي بين المسلمين والأخذ بأيديهم في سبيل تلك الوحدة بعيدا عن الوقوع في براثن الخلاف الممزق.

---

١٢. المرجع نفسه، ص ٢٢٩.

ثم وجد في فكرة التقريب بين المذاهب ضالته المنشودة في تحقيق الوحدة الاسلامية، وانها كانت طريقا سلكه رجال قبله من ذوي الحرص على تلك الوحدة والعمل على ازدهارها من أمثال الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الأزهر الاسبق، الذي كان يعد ـ بحق ـ هو لسان حال تلك الجماعة المبين، وقلمها البليغ، ورائدها الممتاز، والذي كان له فضل السبق في إرساء دعائمها وإيجاد الأساس الفكري والشرعي لها.

وقد استقر ذلك الأساس على ان الإسلام هو دين الوحدة الكاملة بين جميع الأمم الاسلامية، وقد ألغى العصبية العنصرية والجنسية، ودعا الى الوحدة العامة التي جعلت المسلمين في ظلها كالبنيان المرصوص او الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وان حرية التفكير في الإسلام مكفولة مادامت لا تعارض أساسا او ركنا من أركان العقيدة الإسلامية، ولهذا ظهر في الإسلام عدد من كبار الأئمة المشروعين أجمعوا على الأصول الرئيسية، واختلفوا في التفصيلات الفرعية اختلاف تكامل لا تناقض وتنوع إثراء لا عداء، فلما ضعف أمر المسلمين، جسموا هذه الخلافات، ونفخوا فيها فاشعلوا فيها النيران التي لفحتهم ومزقتهم كل ممزق، ووجد الاستعمار ضالته في ذلك فنفخ في ذلك الخلاف من حقده وسمومه، وباعد بين شعوب الأمة الاسلامية على الرغم من انهم جميعا يؤمنون بإله واحد وكتاب واحد ويتجهون الى قبلة واحدة ويؤدون الأركان الأساسية للإسلام من السنيين والشيعيين، ولهذا فكر بعض المصلحين من كبار العلماء في العمل على لم الشمل ورأب الصدع وإزالة بواعث الخلاف.[١٣]

.. وكان في مقدمة المفكرين في هذا المجال الشيخ محمد تقي الدين القمي من كبار علماء الشيعة، والإمام الشيخ محمد المراغي. والإمام الشيخ مصطفى عبدالرزاق، وإن كان تأييدهما للفكرة قد اقتصر على الجانب العلمي والتأييدي وذلك لظروف خاصة، أما الإمام الشيخ عبدالمجيد سليم، فقد أسهم بكل طاقاته المادية والروحية في انشاء جماعة التقريب، ودعا الى تأييدها بقلمه ولسانه وأسهم معه فيها كثير من أماجد العلماء في عصرنا منهم الشيخ علي الخفيف، والشيخ عبدالعزيز عيسى، والشيخ محمد المدني، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد

١٣ـ الاستاذ علي عبدالعظيم، السابق، ص ١١٨ وما بعدها.

سابق وغيرهم من علماء مصر. الذين شاركهم في تبني الفكرة ومناصرتها عدد كبير من كبار علماء الشيعة منهم، الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد شرف الدين الموسوي، والشيخ محمد جواد مغنية، والسيد صدر الدين شرف الدين وغيرهم، وتولى رئاسة جماعة التقريب المصلح محمد علي علوية باشا، ومما يذكر في هذا المجال أن المرحوم الرئيس محمد انور السادات قد مد يده لتأييد تلك الجماعة، وقت ان كان مشرفا على المؤتمر الاسلامي بالقاهرة، قبل ان يكون رئيسا لمجلس الشعب ثم رئيسا للجمهورية. وأعان الجماعة على إصدار مجلتها (رسالة الاسلام)، كما قام بجهود قوية في إنجاح الجماعة وتحقيق أهدافها دون ان يبخل بالمال أو الجهد والعون الأدنى في كل مجال. (١٤)

دار التقريب بين المذاهب

وفي إطار دعم فكرة التقريب، تم انشاء دار التقريب بين المذاهب التي بدأت اعماله بالقاهرة قبل أكثر من نصف قرن (١٣٦٨ هـ - ١٩٤٧م)، لتكون موئلا لتلك الفكرة ومنطلقا لها، وقد أشار الشيخ محمود شلتوت الى أهمية تلك الدار في دعم فكرة التقريب فقال: إن تلك الدار يجلس فيها المصري بجانب الإيراني واللبناني والعراقي والباكستاني، او غير هؤلاء من مختلف الشعوب الاسلامية، حيث يجلس الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الإمامي والزيدي حول مائدة واحدة تدوي فيها أصوات العلم والأدب، وفيها تصوف، وفيها فقه، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة والمودة والمحبة وزمالة التعليم والعرفان. (١٥)

ويتحدث الشيخ محمد تقي الدين القمي عن الظروف التي دعت المفكرين الى حركة التقريب فيقول:

كان الوضع قبل تكوين الجماعة يثير الشجن، فالسني والشيعي، كل منهما كان يعتزل الآخر، وكان كل منهما يعيش على أوهام ولدتها الظنون في نفسه او ادخلتها عليه سياسة الحكم والحكام او زينتها له الدعاية المغرضة، وساعد على بقائها قلة الرغبة في

١٤- المرجع نفسه، ص ١١٩.

١٥- دعوة التقريب تاريخ ووثائق - طبعة وزارة الأوقاف المصرية - ص ١٨ - طبعة ١٩٩١م.

الاطلاع[١٦]، وبعد أن سرد تلك المظاهر المؤلمة يقول: وهكذا بدأنا التفكير في التقريب، وظللنا شهورا نبحث في العلاج، فدرسنا الدعوات التي سبقتنا وأفدنا منها كثيرا، ودرسنا المشاكل الطائفية برمتها والكتب المعتمدة عند كل فريق لنحدد الطوائف التي تتفق في الأصول الاسلامية، ودرسنا الخلافات الفرعية الفقهية ثم حددنا الطرق للوصول بفكرتنا الى الاعماق وكانت أكبر عقبة واجهت الجماعة هي رواسب الماضي وما أثارته من ضجيج وارجاف، لكن الجماعة كانت قد هيأت نفسها لمثل هذا من أول الأمر، وكانت تتوقع حملات الطعن والتجريح فتحصنت ضدها وشقت طريقها الى غايتها، بل إن تلك الهجمات كانت دليلا على ضرورة فكرة التقريب للمجتمع الإسلامي كي يتخلص من تلك المظاهر المزقة لوحدة الأمة.[١٧]

ومع ذلك فإن شدة الهجوم على الفكرة ودارها من قبل بعض المعادين لها دفعت الشيخ محمد القمي الى اختيار الإقامة في أوروبا في الثمانينات، وكان يود العودة الى القاهرة سنة ١٩٩٠م، واستئناف نشاط التقريب إلا أن المنية عاجلته في ١٩٩٠/٨/٢٨م وتوفي - رحمه الله - في باريس إثر حادث مشكوك فيه ودفن في مسقط رأسه بطهران.

مجلة التقريب (رسالة الإسلام)

وقد اصدرت دار التقريب مجلة (رسالة الاسلام) لتنشر الفكر التقريبي بين المسلمين وتجمع المسلمين على صعيد الحوار العلمي في مختلف المجالات، وكانت ملتقى لكبار علماء المسلمين من السنة والشيعة من أمثال الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء. والشيخ محمد رضا الشبيبي، والسيد محمد صدر الدين شرف الدين، والشيخ هبة الدين الشهرستاني، والشيخ محمد تقي القمي، ومحمد صادق الصدر وغيرهم، كما كتب فيها كبار علماء الأزهر من أمثال الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد المدني (الذي عين رئيسا لتحرير تلك المجلة) والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد البهي، والأستاذ

---

١٦. المرجع نفسه، ص ١٩.

١٧. المرجع نفسه، ص ٢٧ وما بعدها.

محمود فياض، والشيخ محمد علي علوية باشا، والشيخ محمد عبدالله دراز، والشيخ عبدالمتعال الصعيدي، والأستاذ محمد فريد وجدي، والأستاذ أحمد امين، والأستاذ علي عبدالواحد وافي، والأستاذ عباس محمود العقاد وغيرهم.[١٨]

وفي العدد الأول من مجلة (رسالة الاسلام) صدر بيان الشيخ عبدالمجيد سليم تحت عنوان (بيان للمسلمين)، بين فيه ان الدين الاسلامي يقوم على نوعين من الأحكام.

احدهما: الأحكام الثابتة، وهذه يجب الإيمان بها ولا يسوغ الاختلاف فيها، وليس من شأنها أن تتغير بتغير الزمان والمكان.

والثاني: أحكام اجتهادية مرتبطة بالمصالح التي تختلف باختلاف ظروفها، وهذه راجعة الى الفهم والاستنباط، فما كان منها قطعيا في روايته ودلالاته لا يسوغ فيه الاختلاف كذلك. أما ما دون ذلك فيسوغ الاختلاف فيه، وهذا الاختلاف غير مذموم في الاسلام ما دام المختلفون مخلصين في بحثهم باذلين وسعهم في تعرف الحق واستبيانه بل إنه ليترتب عليه كثير من المصالح، وتتسع به دائرة الفكر، ويندفع به كثير من الحرج والعسر وليس من شأنه أن يفضي الى تنازع وتفرق أو تقاطع وتنابز، وعلى هذا سار أصحاب رسول الله (ص) وتابعوهم بإحسان والأئمة عليهم الرضوان، فقد كانوا يختلفون ويدفع بعضهم حجة بعض، ويجادلون عن آرائهم بالتي هي أحسن، ويدعون الى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم نسمع أن غيرهم رمى غيره بسوء او قذفه ببهتان. وهكذا ولدت فكرة التقريب ووجدت طريقها في حياة المسلمين.

المبحث الثاني : جهود الإمام محمود شلتوت في دعم فكرة التقريب

لقد ترسم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت جهود كبار العلماء الذين ارسوا فكرة التقريب قبله، ووجد فيهم اسوة وقدوة وعونا في تحقيق امله المنشود من أجل وحدة المسلمين ونبذ الفرقة التي استحكمت بينهم، وكان في القمة السابقة من هؤلاء الرواد الأوائل.

---

١٨. مجلة رسالة التقريب ـ العدد ١٧ ـ رمضان ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م. ص ٨٢ وفهرست مواد مجلة رسالة الاسلام، الأعداد من ١ ـ ٦٠ نفس المرجع ـ ص ١٦٨ وما بعدها.

بالقطع ـ الإمام الشيخ عبدالمجيد سليم، وفي هذا يقول الشيخ محمود شلتوت: (كنت أود لو أستطيع أن ابرز صورة كصورة الرجل السمح الزكي القلب العف اللسان رجل العلم والخلق المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرزاق، او صورة كصورة الرجل المؤمن القوي الضليع في مختلف علوم الإسلام المحيط بمذاهب الفقه أصولا وفروعا الذي كان يمثل الطور الشامخ في ثباته، والذي أفاد منه التقريب في فترة ترسيخ مبادئه اكبر الفائدة المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم رضي الله عنه وارضاه). [١٩]

.. وقد وجدت فكرة التقريب هوى في نفسه، ورغبة في قلبه، فبدأ جهاده في الجماعة بحماس واخلاص، وانطلق في عمله من جهة ان الشيعة يبلغون أكثر من ستين مليون مسلم يقيمون في بلاد اسلامية كثيرة كايران، والعراق، واليمن، وسوريا، ولبنان، والخليج العربي، وباكستان والهند، وهم يؤمنون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، ويؤدون اركان العبادات كما يؤديها اهل السنة، و لا يوجد بين الفريقين خلاف إلا في امور فرعية لا يخرج صاحبها عن نطاق الاسلام، ومع ذلك فقد ضخم الاستعمار تلك المسائل ليتمكن من تمزيق شمل المسلمين وتسخيرهم لتمزيق وحدتهم، وخدمة أغراضه الاستعمارية، ومن هنا بدأ الإمام في الدعوة الى التقريب مع من دعا اليها من زعماء المسلمين واعتبرها دعوة التوحيد والوحدة، والاسلام والسلام.

وفي هذا يقول ـ رحمه الله ـ:

(إن مذهبي وما ذهب اليه جهدي وعلمي أنني لا ابيح لأحد تقليدي واتباعي دون ان ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت. فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي، ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم واسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة. [٢٠]

١٩ـ مشار إليه في الأستاذ علي عبدالعظيم، المرجع نفسه، ص ١١٩ وما بعدها.

٢٠ـ مشار اليه في المرجع نفسه، ص١٨٧.

فتوى جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول

وفي إطار دعم فكرة التقريب، قام الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت بعد ان تولى مشيخة الأزهر بإصدار فتواه الشهيرة بجواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول، المعروف المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإثنا عشرية، فقد سئل ـ رحمه الله ـ عن ان بعض الناس يرى انه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فأجاب بقوله:

(إن الإسلام لا يوجب على احد اتباع مذهب معين، بل إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء اي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل الى غيره ـ اي مذهب كان ـ ، ولا حرج عليه في شيء، إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي للمسلمين ان يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب معين او مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون ومقبولون عند الله تبارك وتعالى، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات).[٢١]

وخلاصة القول: إنه إذا كان الأستاذ الشيخ محمود شلتوت لم يبتكر دعوة التقريب، ولم ينفرد بها، إلا أنه قدم لها من الدعم الفكري والبحث والرأي والفقه ما مكن لها في قلوب الناس وزادها ثباتا ويقينا.

آثار جهود الإمام محمود شلتوت في التقريب بين المذاهب

وبفضل الله، تم بفضل جهود الإمام محمود شلتوت في مجال التقريب، وجد الفقه الشيعي طريقه الى الأزهر الشريف وكلياته، واستقر في كلية الشريعة ليكون أحد المذاهب المقارنة، والتي لا يكتمل البحث العلمي في الرسائل التي تعد لنيل الدرجات العلمية إلا بالرجوع اليه

---

٢١. نقلا عن الأستاذ علي عبدالعظيم، السابق، ص ١٨٨.

وموازنته مع آراء المذاهب الأخرى وفقا لقوة الدليل وما يستند اليه الترجيح بين الآراء، وربما يؤدي ذلك الى رجحانه والأخذ به في مسألة ما دون بقية المذاهب الأخرى.

إن الحكمة ضالة المؤمن، فإذا وجدها على لسان كافر فإن كفره لا يمنع من الانتفاع بها والاستفادة منها، لأن الحق قائم بذاته، فما بالنا إذا كان ذلك الرأي مقررا ضمن مسائل مذهب من المذاهب الاسلامية التي تستمد أحكامها من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة نبيه (ص) ومصادر التشريع الأخرى؟ وما كان لمثل تلك الحقائق المفيدة للعلم وللبحث وللدراسات الفقهية المقارنة أن تظهر لولا فكرة التقريب التي أدت الى ظهورها بفضل الله ثم بفضل علماء دينه المخلصين من أمثال الشيخ محمود شلتوت ومن سبقوه من السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

خاتمة

أهم نتائج هذا البحث

في ختام هذا البحث أود أن اشير الى أهم النتائج التي يمكن أن تستخلص وهي كما يلي:

أولا

إن دور الإمام محمود شلتوت في تدعيم فكرة التقريب بين المذاهب لم يكن دورا متكلفا ألم به عرضا، وإنما هو دور قائم على إيمان قوي بالفكرة، وأن تكوين شخصية الإمام الكبير ـ رحمه الله ـ كانت مفطورة منذ بواكير حياته العلمية والوظيفية على إدراك قيمة الوحدة الاسلامية في تدعيم الأمة الاسلامية، والأخذ بيد المسلمين ليكونوا كما أخبر الحق سبحانه في محكم كتابه عنهم بقوله: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (آل عمران: ١١٠) وليس أدل على ذلك من سعيه الصادق لإنشاء مجمع البحوث الاسلامية عندما عين شيخا للازهر، وذلك تحقيقا لأمله في دعم تلك الوحدة التي يرى فيها خيرا للاسلام والمسلمين.

ثانيا

إن دراسة الفقه، دراسة مقارنة، وإن كان امرا عاديا بالنسبة لسعة أفق الإمام وحدة ذكائه وقوة استيعابه وفهمه لأسرار التشريع الاسلامي، حتى إنه ليصعب على مثله وقد آتاه الله تلك الملكات القوية في الفهم والاستيعاب وحسن البيان ودقة التعبير أن يقتصر في دراسته على مذهب معين من مذاهب الفقه الإسلامي او اتجاه واحد من اتجاهات الفكر الانساني ومع ذلك، فإنه لا يمكن إنكار أن هذا النوع من الدراسة هو الذي زاده تمكينا وقوة وسعة أفق اكثر للتعامل مع المذاهب الاسلامية المختلفة بما يحقق أكبر فائدة للاسلام والمسلمين، ومن يكن هذا شأنه، لا يمكن ان يتغافل عما في مذهب الشيعة الاثني عشرية من الأحكام الفقهية السديدة التي قد ترجح في موازنتها بغيرها من آراء المذاهب الاخرى، وقد ترفع الحرج عن الأمة بتيسير امر معين، او القضاء على عقبة فقهية يشق العمل بها على الناس.

ثالثا

ان الدوافع التي حدت بالإمام الكبير الى الحماس لفكرة التقريب مازالت قائمة، وربما زادت الدواعي اليها عن عهده، فقد اصبح العالم يشهد فكرا جديدا تمثل فيما يسمى بالعولمة التي لا تتعامل الدول فيها فرادى، وإنما في اطار تكتلات دولية تقوى على المنافسة، وتحظى باحترام التكتلات التي تناظرها، وما لم يكن للمسلمين وجود دولي قوي يرتفع فوق الخلاف وينظر الى الرأي الآخر نظرة تقارب وموازنة تتوخى الوصول الى خير الآراء، فإنهم لن يحظوا بوجود دولي يليق بما لهم من مكانة، وما يستحقه الدين الذي يؤمنون به من تكريم وإجلال، ولهذا كانت الوحدة الاسلامية ضرورة شرعية قبل أن تكون ضرورة وجود وحياة قائمين على احترام العالم وتقديره، وذلك يقتضي دعم كل عمل يوصل الى تلك الغاية المهمة، ومن بين ذلك ـ بالقطع ـ فكرة التقريب بين المذاهب.

رابعا

إن عمل فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في سبيل دعم فكرة التقريب مع من

سبقوه أو عاصروه من كبار رجال العلم والدين، قد اتاح للأجيال التي عاصرته والتي جاءت بعده أن تقف على كثير من الكنوز الفقهية والفكرية التي يزخر بها الفقه الشيعي. وإنها لخسارة كبرى للفقه وللعلم وللفكر أن تكون تلك الثروة التي تثري العلم والفقه في منأى عن الاستفادة منها، وهي مأخوذة من مصادر التشريع الاسلامي الأغر، في الوقت الذي يأمرنا به ديننا أن نرقب الحكمة اينما كانت، وأن نستفيد منها حيثما وجدت، وقد ادى ذلك الى زوال الحرج من قلوب طلاب العلم تجاه ذلك الفقه واصبح وجوده على موائد البحث الفقهي في جامعة الأزهر وفي الرسائل العلمية التي يعدها طلابه امرا قائما، وحقيقة تنطق بقيمة الجهود التي بذلها أولئك الرواد الأوائل في سبيل الاستفادة منه، إن ذلك ـ من شأنه ـ أن يدفعنا الى استكمال المسيرة، والمحافظة على ما تم، وإلا كنا كمن يبني ثم يهدم ما بناه، وذلك هو الخسران المبين.

أدعو الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يتقبل من سلفنا ما قدموا وأن يجزيهم عنه خير الجزاء، وأن يوفقنا للسير على دربهم، واستكمال الخير الذي أنجزوه من اجل رفعة ديننا وامتنا، كما أدعوه ـ سبحانه ـ أن يوفقنا جميعا لخدمة ديننا وأمتنا، فهو سبحانه الموفق والمعين.

لمحات من حياة الامام الشيخ محمود شلتوت

شيخ الازهر الشريف

الشيخ فرحات السعيد المنجي

المشرف على مدن البعوث الاسلامية بجمهورية مصر العربية

الحمد لله الذي توحد بالبقاء والازلية وتفرد بالديمومة السرمدية ومحق الكل بسلطان جلاله ومحا الاثار بسطوة جبروته وقهر المعلومات فاخفاها في طي عمائه ثم من عليها بنعمة الوجود فقامت به وتجلى عليها بإسمه الظاهر فتنشقت روح الحياة منه ثم اذا شاء قبض اليه الظل بالفناء على الكل فما كان الا هو ومابقي الا هو (كان الله ولا شيء معه وهو الان على ما عليه كان).

وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وهب الرحمة الكبرى للعالمين من نور ذاته وافاء على الاكوان من ظلال اثار صفاته فبنوره اهتدى احباؤه اليه فعرفوه وبسره سبحوه ووحدوه فما عرفه العارفون الا به وما سبحوه ووحدوه الا بسره حقا ماعرف الله الا الله (وما قدروا الله حق قدره).

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله مجلي نور الذات ومظهر الصفات من به قامت كل الكائنات رسول حضرته القدسية ومشرق شمس التجليات الالهية صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى المتحققين بكل كمال ورضوان الله تعالى عليهم وعلى اتباعهم أولي التقي والاحسان المحافظين على السنة. اهل الوفاء والصدق (كلما هممت بأهل الارض عذابا نظرت الى عبادي فيهم فأر منه بهم عليهم). وبعد فيقول الحق تبارك وتعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب).

ويقول تعالى (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا).

فلما كان في التاريخ تذكير بما فات وفي التعرف على سير رجال الله العبر والعظات كانت الحاجة ماسة لكل مريد طريق الحق ظامئ الشراب اهل الصدق طموح للوصول الى حضرة الرب من وقفة على آثار مسلكي الطريق الى الله والتعرف لما كانوا عليه ليترسم نهجهم ويخطو خطوهم ويتأدب بأدابهم فنحظى بودهم وقربهم ويشرب من معينهم

فعندئذ تشرق شمس حقيقته من قلبه فيسطع على اركانه فيهتدي بنوره الى الحق وتلمع كواكب حسه فيعمل مخلصا لربه فيكون له قدم الصدق (اولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون).

لذا كله حاولت جاهدا جمع شذرات وذكر اشارات والالماع الى ومضة من ضياء حياة شيخنا ومرشدنا فضيلة مولانا الامام محمود شلتوت – شيخ الازهر الشريف ووفاء لما أنفق من جهد في سبيل الله هاديا ومذكرا وداعيا ومرشدا.

شيخي أستاذنك متسمحيا ان نشرف بساحة مكرماتك فنطوف حولها لعلنا ندرك منها القليل ونسألك متبركين أن ننزل بحرم حضرتك لنلتمس منه اليسير فنبرزه للملأ لمحة خاطفة عن أطوار حياتك اذ ان سيرتك لا تفي بها المجلدات وتاريخك لا تجمعه المطولات وماحوته هذه العجالة عنك ليس الا قطرة من فيض ماحوته مزن حياتك من خير.

كنت بحق صاحب العلوم الدينية والمواهب السنية ومهبط للفيوضات العلية وكنت صاحب القدم الراسخة في الحكم والمأثورات والعبارات الخالدة وضحت ماخفي من علوم التقدم وأظهرت ما أندرس من معالم الطريق ونشرت طي ما غمض من عبارات الفحول كنت بحق خير من أفتى ودلل وبرهن وأدلف الحجة تلو الحجة ثم انك قد سبقت عصرك في فتاوى التأمين والارباحِ والشركات والبنوك بل ونظمت فيها مجلدا وهاهو كتاب نتناوله من كل الاوجه وكذا مقارنة المذاهب والتقريب بينها.

ورسالتك التي بسببها انشئ مجمع البحوث الاسلامية حتى صرت رئيسا له بعد أن خرج الى الوجود.

ماذا أقول بعد كل هذا الا ان أسرد بعض المحطات في حياتك على عجالة سريعة.

ولد في مدينة منصور من اعمال مركز ايتاي البارود – محافظة البحيرة عام ١٨٩٣ وحفظ القرآن الكريم صغيرا ولم تتجاوز سنه العاشرة من عمره والتحق بمعهد الاسكندرية انذاك في عام ١٩٠٦ .

- التحق رحمه الله بمدرسة القضاء الشرعي وتخرج منها عام ١٩١٨.

- عين مدرسا بنفس المعهد الذي كان يدرس فيه وهو معهد الاسكندرية عام ١٩١٩ وهي

سنة الثورة المصرية فشارك فيها بقلمه وفكره ولسانه وجرأته.

- ثم نقله المراغي مدرسا بالقسم العالي لعلمه الغزير حينما تولى مشيخة الازهر وكان من اعوانه في الاصلاح الذي اراده للازهر.

- في عهد الشيخ الظواهري فصل من عمله حسب رؤية الادارة في هذا الوقت.. يقال أحيانا لجرأته وأحيانا لتدخله في الامور التي كانوا يريدون الاستقلال بها.

- حينما عاد الامام المراغي مرة اخرى عام ١٩٣٥ أعاده الى عمله مدرسا بكلية الشريعة الى ان وصل الى وظيفة وكيل الكلية.

- مثل الازهر الشريف في مؤتمر القانون الدولي المقارن بلاهاي – هولاندا عام ١٩٣٧ والقى بحثا قيما تحت عنوان (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الاسلامية) ونال البحث استحسان أعضاء المؤتمر فاقروا صلاحية الشريعة الاسلامية للتطور واعتبروها مصدرا من مصادر التشريع الحديث وانها اصيلة وليست مقتبسة من غيرها من الشرائع الوضعية ولا متأثرة بها وقرر المؤتمر ايضا اعتبار اللغة العربية لغة رسمية من لغات المؤتمر وان يدعى في المؤتمر القادم اكبر عدد من علماء الشريعة الاسلامية.

ونادى بتكوين مكتب علمي للرد على مفتريات أعداء الاسلام وتنقية كتب الدين من البدع والضلالات وكان مقدمة لانشاء مجمع البحوث الاسلامية.

- في سنة ١٩٤٦ عين عضوا في مجمع اللغة العربية وانتدبته الجامعة لتدريس فقه القرآن والسنة لطلبة دبلوم الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق.

- في سنة ١٩٥٠ عين مراقبا عاما لمراقبة البحوث الاسلامية فوثق الصلات بالعالم الاسلامي.

- في عام ١٩٥٧ عين وكيلا للازهر الشريف.

- في عام ١٩٥٨ عين شيخا للازهر الشريف.

- صدر في عهده قانون تطوير الازهر الشريف رقم ١٠٢ لسنة ١٩٦١م.

- انتقل الى رحمة الله تعالى سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م.

- منح اسمه وسام العلوم من الطبقة الاولى بمناسبة الاحتفال بالعيد الالفي للازهر.

من أثاره العلمية

١- البابية وعلاقتها بالاسلام (بالفرنسية) وهي رسالة الدكتوراه .

٢- السياسة الشرعية في الفقه الاسلامي (رسالة عضوية كبار العلماء).

٣- مذكرة في الفقه المقارن.

٤- حكم الربا في الشريعة الاسلامية.

٥- شركات التأمين من وجهة نظر الشريعة الاسلامية.

٦- فقه القرآن والسنة.

٧- مقارنة المذاهب .

٨- الاسلام عقيدة وشريعة

٩- الفتاوى.

١٠- القرآن والمرأة.

١١- القرآن والقتال.

١٢- تنظيم العلاقات الدولية.

١٣- رسالة الازهر.

فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت
وفكرة التقريب بين المذاهب

علي محمد فتح الله

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله، سبحانه ارتضى لنا الاسلام ديناً وجعلنا خير أمة اخرجت للناس، رسالتنا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقيدتنا لا إله إلا الله محمداً رسول الله، وغايتنا (إنما المؤمنون أخوة)، وهدفنا (واتقوا الله لعلكم تفلحون). ومن اجل تحقيق ذلك كان اجتماعنا المبارك اليوم في هذا المؤتمر نكرم فيه شخصيتين عالميتين لهما اليد البيضاء في العمل من اجل جمع شمل المسلمين والوقوف ضد أعدائهم أعداء الاسلام ومن تابعهم من دعاة التفرقة والخلاف، وكيف وديننا يدعونا الى الألفة والاعتصام بحبل الله حيث يقول سبحانه (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) كما يحذرنا من التفرقة والخلاف فيقول سبحانه (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم).

رسالة الإسلام

إن الحديث عن رسالة الاسلام وتاريخ الدعوة اليها والعمل على نشرها هو نفسه الحديث عن قيام المجتمع الاسلامي، والمبادئ التي قام عليها هذا المجتمع ونهض بها، والقرآن الكريم قد حدد أصول هذه المبادئ ورسمها بعربيته وهدايته في نصوصه وإشاراته، وايحاءاته، وقد تناولت علاقة الإنسان بربه، وعلاقته مع نفسه، وعلاقته بمجتمعه وغيره من المجتمعات الأخرى، في السلم والحرب والتعاون.

الأزهر قبلة المسلمين العلمية

والأزهر هو قبلة المسلمين العلمية، ينفر اليه القاصي والداني من ابناء المسلمين في جميع انحاء العالم الاسلامي وغيره، ينهلون من علومه، ويتزودون بمعارف دينهم حيث يُعرض الاسلام في سماحته ويسره بعيداً عن المغالاة والتعصب، وبفضل صيانة مصر له كان هو المركز

الوحيد الذي يعد جامعة كبرى للمعارف الاسلامية، وما يتصل بها من دراسات عربية تمكن للدارس فهم دينه الصحيح، وهو الجامع والجامعة الذي يعنى بالمحافظة على القرآن الكريم ودراسته، باعتباره المصدر الإلهي لهذه الدراسات، فقد ألقيت على كاهله تبعات الاحتفاظ بتلك الشخصية الاسلامية كما ألقيت على كاهله اعباء النهوض واستمرارها كما يريدها الله، فهو القطب بل المنارة العالية التي تتجه اليها انظار طلاب هذه الشخصية من جميع شعوب العالم الاسلامي، كما أنه مصدر الإشعاع والتوجيه الإيماني والحيوي في دراسته لمجموع تلك الشعوب الاسلامية وبه كانت مصر قبلة الشعوب الاسلامية في تلك الدراسات، الى مصر تتجه، ومنها تستمد زادها الاسلامي.

إذن فرسالة الأزهر كما هو واضح ليست رسالة محلية، وليست مقصورة على بعض نواحي المعرفة الانسانية فقط، وإنما هي رسالة تتجاوز ظاهر الحياة الى باطنها، وتتجاوز ايضاً توصيل المعرفة للفرد والجماعة الى تنمية العلاقات بين الشعوب العربية والاسلامية عن طريق القلب والإيمان من خلال تلك الرسالة التي هي حبل الله المتين والممدود من السماء الى الأرض ليربط تلك الشعوب الاسلامية برباط التعارف والإيمان تحت ظل التقوى والعمل الصالح مصداقاً لقوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوب وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم).

هذه رسالة الأزهر في ذاتها وخطورتها، ولو أن الأمة الاسلامية ظلت متمسكة بشخصيتها المعنوية التي افيضت عليها من العليم الخبير الى يومنا هذا، لما كنا في حاجة الى التحدث في موضوع رسالة الأزهر لأن رسالة الأزهر من يوم أن انشئ هي بعينها (المعارف الالهية التي رسمت بها السماء للأمة الاسلامية محيط شخصيتها المعنوية)، (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

والحديث عن سمو رسالة الأزهر يطول بقدر ما أودع في المكتبة الاسلامية من مواد خدم بها الشخصية الاسلامية، واتسع نطاقها فخدم بها الإنسانية كلها، ويطول بقدر ما انتابه في حياته الطويلة من عوامل ترفعه وتقويه تارة، وتنزل به وتضعفه تارة أخرى، وهو اليوم والحمد لله بفضل قيادته الواعية الفاهمة لدور الأزهر، وبفضل علمائه الأجلاء أصحاب الفكر المستنير،

والوعي لما يحيط بدينهم وازهرهم، فهو اليوم بحق منارة مشرقة تضيء بإشعاعها الواعي ربوع الحياة في المجتمعات المختلفة بشتى انحاء العالم، إما باحتضان أبناء تلك الشعوب اليه، يدرسون ويتزودون من معارفه وعلمه ليعودوا الى اوطانهم دعاة خير وهداة حق، وفي الأزهر الآن طلاب من ثلاث وتسعين دولة ما بين طلاب في المعاهد الازهرية او في جامعة الأزهر الشريف، وإما بإرسال علمائه الى جميع قارات العالم يحملون لواء العلم وينشرون معالم الدين الاسلامي الحنيف الذي يتميز بالاعتدال والوسطية مصداقاً لقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).

منزلة الإمام الاكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق

وفي هذا المعهد العتيد العريق تخرج علماء اجلاء وقفوا حياتهم مكافحين ومناضلين من أجل الحفاظ على رسالة الإسلام الخالدة بمثلها العليا وقيمها العظيمة، محاربين الفرقة بين المسلمين منادين بالوحدة والتمسك بالقيم التي نادى بها الإسلام ومن هؤلاء العلماء الخالدين فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق. ذاك الرجل الذي منحه الله فكرا ثاقباً يخدم به دينه ومجتمعه، وفقهاً ينفذ الى العلة الباعثة، والحكمة المستورة، والمعرفة الشاملة بامور العصر فهو كما قال الكاتب الكبير احمد حسن الزيات رحمه الله[١]: (تحيط به الظروف الطارئة، والأحوال الداعية، فاستغنى عن الاجتهاد المبتدع باجتهاد من نوع آخر، هو الاجتهاد في اختيار الرأي المناسب وترجيح الحكم الموفق، دون ان يتقيد بمذهب من المذاهب، ولا بإمام من الأئمة، وإنما يجري في فتواه على ان شريعة الله واحدة خالدة ثابتة عامة، لا تتأثر بالمكان ولا تتغير بالزمان، ولا تتسم بالخصوص، ولا تضيق بالحضارة، ولا تنفر من العلم، ولا تنكر التطور السليم).

فهو فقيه واسع الأفق، بصير بالأحكام الشرعية الملائمة لحاجات الناس ومقتضيات العصر ومفسر ملم بكتاب الله وسنن الكون، وعالم اجتماعي يعرف أمراض المجتمع ووسائل علاجها، حارب الجمود والعصبية المذهبية التي جعلت من المذاهب اديانا، وفرقت بين المسلمين، وندد

---

١. من كتاب الاجتهاد في الأحكام الشرعية لفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي.

بفكرة سد باب الاجتهاد في الشريعة الاسلامية واعتبره قيدا للعقول، وتعطيلاً لكتاب الله، ومجافاة لنصوصه الداعية الى البحث والنظر، فهو صاحب مدرسة دفعت الفكر الإسلامي الى الأمام، وله آراؤه الاصلاحية التي عم صداها أرجاء العالم ولازالت آراؤه مصابيح تنير للكثيرين من العلماء معالم طريق الحق حتى الآن، ويقول عنه فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الازهر الحالي والذي يعتز بفكر وفقه الإمام الراحل في كتابه الاجتهاد في الأحكام الشرعية: (لقد كان فضيلته ـ رحمه الله ـ من ألمع العقليات الفقهية التي اشتغلت بالفقه وتفسير القرآن، وكانت له آراؤه ونظراته الاجتهادية في الأحكام الفقهية لم يكتف فيها بمجرد النقل عن الكتب، وإنما كان له رأيه الذي جهر به بعد أن درس وطالع، ووازن ورجح، معتمدا على النصوص الشرعية الصحيحة، وعلى ما منحه الخالق ـ عز وجل ـ من عقل راجح، ومن فكر ثاقب، ومن شجاعة في تبليغ كلمة الحق دون أن يخشى أحدا سوى خالقه ـ سبحانه وتعالى ـ ولقد كان ـ رحمه الله ـ شعلة من النشاط الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي منذ مطلع شبابه، فهو الفقيه الكبير، والمصلح الاجتماعي، والكاتب البارز، والخطيب الممتاز، والمدافع عن دينه وأمته بأسلوب بليغ، وبحجة مقنعة وبعقل حكيم راجح).

نشأته وحياته

ولد الإمام الراحل في ٢٣ من أبريل عام ١٨٩٣ ببلدة منية بني منصور مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة وحفظ القرآن الكريم في كتاب القرية، ثم التحق بمعهد الاسكندرية الازهري عام ١٩٠٦ وكان الأول على أقرانه في جميع سني الدراسة بهذا المعهد. ثم نال شهادة العالمية النظامية عام ١٩١٨ وكان الأول في ترتيب الناجحين فيها، ثم عين مدرساً بمعهد الاسكندرية عام ١٩١٩، وتابع نشاطه العلمي في المعهد وفي الأوساط العلمية، وفي الصحافة فيما يتصل بعلوم اللغة والتفسير والحديث وسائر العلوم الدينية، ونادى بوجوب اصلاح الأزهر واستقلاله عن الجهات التي كان يخضع لها، وفي نفس العام اندلعت الثورة في مصر ضد الاستعمار الانجليزي فشارك فيها فضيلته بقلمه ولسانه وجراته المعهودة وأخذ ينتقل من مكان الى آخر للتحريض على محاربة الاستعمار، وفي عام ١٩٢٧ عين مدرساً في القسم العالي بالقاهرة، وقد تجاوبت فكرته الاصلاحية مع فكرة الإمام المراغي شيخ الأزهر في ذلك الوقت عام ١٩٢٨ في اصلاح الازهر وايد

ذلك في عدة مقالات نشرت بالصحف حينئذ، ثم عين مفتشاً بالمعاهد الدينية، ثم وكيلاً لكلية الشريعة، ثم مراقباً عاماً لإدارة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم وكيلاً للازهر، ثم شيخاً للازهر في الثالث عشر من اكتوبر عام ١٩٥٨.

وكانت افكاره وآراؤه الاصلاحية سبباً في فصله في ١٧ سبتمبر عام ١٩٣١ مع بعض زملائه ممن يؤمنون بفكرته فلم يوهن ذلك من عزيمته، فاشتغل بالمحاماة والبحوث العلمية في أثناء هذه الفترة الى أن أعيد الى الأزهر مرة أخرى عام ١٩٣٥ وعمل بالمناصب التي سبق أن أشرنا اليها.

وفي عام ١٩٣٧ مثل الأزهر في مؤتمر (لاهاي الدولي) والقى بحوثاً اقرها المؤتمر وهي:

١ـ اعتبار الشريعة الاسلامية مصدرا من أهم مصادر التشريع العام.

٢ـ اعتبار الشريعة الاسلامية حية صالحة للتطور.

٣ـ اعتبارها قائمة بذاتها وليست ماخوذة عن غيرها.

٤ـ استعمال اللغة العربية في المؤتمر والتوصية بالاستمرار على ذلك.

وفي عام ١٩٤١ قدم رسالة في المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الاسلامية نال بها عضوية جماعة كبار العلماء بالإجماع، وكان وقتها أصغر الأعضاء سناً.

مؤلفاته

١ـ فقه القرآن والسنة، وهو يشمل بحوث فقهية مستقاة من الكتاب والسنة.

٢ـ منهج القرآن في بناء المجتمع.

٣ـ القرآن والقتال، شرح فيه طبيعة الدعوة الاسلامية، وكيف ان الإسلام فيها هو الأصل.

٤ـ يسألونك، وفيه اجاب فضيلته على كثير من الأسئلة المتنوعة.

٥ـ الإسلام عقيدة وشريعة، وهو كتاب جامع لعقائد الاسلام وعباداته ومعاملاته.

٦ـ من توجيهات الاسلام، وقد صحح فيه بعض المفاهيم الدينية والأحكام الشرعية.

٧ـ الفتاوى، وهو دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية والعامة.

٨ـ القرآن والمرأة.

٩ـ تنظيم العلاقات الدولية في الاسلام.

١٠ـ الإسلام والوجود الدولي للمسلمين.

١١ـ كتاب مقارنة المذاهب.

موقف الإمام من فكرة التقريب بين المذاهب

ولما كان فضيلة الإمام من ائمة المجتهدين في عصره حيث تحققت فيه شروط الاجتهاد من كمال دين ورجاحة عقل، مع إلمامه بعلوم اللغة العربية وطرق دلالتها على المعاني، وحفظه للقرآن الكريم وفقهه لمعانيه، كما كان ـ رحمه الله ـ على علم واسع بالسنة النبوية المطهرة وبأحكامها، مدركاً لمقاصد الشرع، وأحوال الناس، وما جرى عليه عرفهم، وما فيه صلاح حالهم، وما عرف عنه من دراية بالفقه وأصوله وممارسته لذلك ممارسة عملية مع تمتعه بالملكة الذهنية، والقوة العقلية، والذي استطاع من خلالهما استنباط الأحكام الشرعية استنباطاً سليما (وذلك فصل يؤتيه الله من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

وكان من الطبيعي وقد تحققت لفضيلته شروط الاجتهاد والمتفق عليها أن يكون من اول الدعاة الى فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية في عصره، كما يقال: إن الدعوات تشرف بشرف أهدافها، وتسمو بسمو غاياتها فكان لدعوة التقريب بين المذاهب ـ والتي كان لفضيلته السبق اليها ـ ان تقتعد أسمى مكانة في تاريخ الاصلاح الاسلامي، قديمه وحديثه، ذلك بأنها دعوة الله هو الذي ثبت أساسها ورسم نهجها ووجه الرجاء الى اجتناء ثمرها.

وكان رحمه الله ـ مع شيخه الشيخ عبدالمجيد سليم ـ الرأي المفكر لتأسيس دار التقريب بين المذاهب الاسلامية والتي كانت مهمتها توثيق الصلات بين المذاهب الاسلامية التي مصدرها الكتاب والسنة، وكانت جماعة التقريب هذه هي شغل الإمام الشاغل محققاً لأهدافها لأنه كان دائماً يتطلع الى الوحدة الاسلامية كما تطلع اليها غيره من أحرار العلماء بعد أن تفرق شمل المسلمين، ومزقتهم العصبيات، والخلافات الطائفية فبدا جهاده في جماعة التقريب بين طائفتي السنة والشيعة، وهم جميعاً يؤمنون بإله واحد وبمحمد رسولاً وبالقرآن الكريم دستورا ويؤدون أركان العبادات، والكل في إطار واحد، لا خلاف بين أهل السنة والشيعة.

ومن هنا كان يرى أن هذا التمزق الدخيل على الاسلام، والتفرقة بين المذاهب هو بغية الاستعمار في توسيع شقة الخلاف بين الفئتين الشيعة والسنة لتمزيق شملهم وتسخيرهم لخدمته واغراضه وأهدافه.

ولذا تنبه الإمام بذكائه اللماح الى ضرورة الدعوة الى التقريب بين المذاهب الاسلامية، وخصوصاً بين أهل السنة والشيعة الإثني عشرية او ما تسمى بالجعفرية.

وبذلك يكون قد الغى العصبية ودعا الى الوحدة ليصبح المسلمون في ظل هذه الوحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وحرية الفكر في الاسلام مكفولة، مادامت لا تعارض أساساً، أو ركناً من أركان العقيدة الاسلامية.

ولذا ظهر في الاسلام عدد من كبار أئمة الفكر المشرعين اجمعوا على الأصول الرئيسية واختلفوا في التفصيلات الفرعية اختلاف تكامل لا تناقض.

فلما ضعف المسلمون جسموا الخلافات فيما بينهم، ونفخوا فيها وأشعلوها نارا مزقتهم كل ممزق وباعدت بين شعوبها على الرغم من انهم جميعاً يؤمنون بالله رباً وبمحمد رسولاً نبياً، وبالقرآن دستورا، ويتجهون الى قبلة واحدة ويؤدون اركان الإسلام الرئيسية، ومن هنا كانت فكرة التقريب من بعض المسلمين المصلحين من كبار العلماء وفي مقدمتهم الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت على ضم الشمل وجمع الكلمة، وإزالة بواعث الخلاف.

ومن بين هؤلاء ايضاً الشيخ محمد تقي الدين القمي من كبار علماء الشيعة، وقد كان إجاب الشيخ محمود شلتوت بفكر هذه الجماعة بالغاً فيقول: (كنت اود ان أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة للمستقيمين على منهج الإسلام والذي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويبتعدون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا مرية فيه، وان على سائر الناس ان يتبعوه، ولكن يقول: (هذا مذهبي، وما وصل اليه جهدي وعلمي، ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون ان ينظر ويعلم من أين قلت، فإن الدليل إذا استقام عمرتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي).

فقد أسهم فضيلته ـ رحمه الله ـ في فكرة التقريب كمنهج قويم أسهم فيها قولا وعملا وتاليفا وأدبا.

المراجع

١ـ رسالة الأزهر ـ مكتب شيخ الجامع الأزهر للشؤون العامة.

٢ـ قصة التقريب ومعها الفتوى التاريخية في شان المذاهب الاسلامية، دار التقريب، القاهرة، شوال ١٣٧١ هـ.

٣ـ حياة الإمام محمود شلتوت شيخ الأزهر، القاهرة، عبدالرحمن بيومي.

٤ـ الاجتهاد في الأحكام الشرعية، فضيلة الإمام الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٦.

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

ومنهجه في الإصلاح والتجديد والتقريب بين المذاهب الإسلامية

إعداد: الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل

مفتي الديار المصرية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الخلق اجمعين. وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الهادي الأمين الذي بعثه الله رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهدية وعمل بسنته وتمسك بشريعته إلى يوم الدين (وبعد).

فإن الفقه في الدين من أجمل وأعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين المخلصين لأنه يحقق الخير للإنسان في كل أمور الدنيا والدين ومن فقه دينه من المسلمين فقه دنياه ودانت له بعز ومجد واستخلفها له خلافة شرعية وهي مسخره له بامر ربه ومولاه يعمرها ويستخرج منها كل خيراتها وكنوزها زينة له ومنفعة لدينه ودنياه وطاعة لله في قوله تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) وقوله سبحانه (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق). وقوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).

وقد أمر الله بالتفقه في الدين ورغب فيه عباده المؤمنين وحثهم عليه بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).

وإن مكانة العلماء الذين رفعهم الله لهذه المنزلة الرفيعة التي قرنها سبحانه وتعالى باسمه وذاته العلية وملائكته الكرام وشهدوا له بالوحدانية كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وألوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

لا تتحقق لهؤلاء العلماء هذه المكانة السامية بغير الفقه في الدين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيرا يفقه في الدين).

والفقه في الدين له أصول وفروع وأصوله ثابتة لا تعديل ولا تبديل ولا تغيير فيها إلى يوم

الدين وفروعه كلها قائمة على أصوله التشريعية ومرتبطة بها ارتباطا وثيقا لا فكاك عنه في جميع العصور إلى يوم الدين وإن اختلفت صياغتها وعبارتها عند الفقهاء عن الأصول القائمة عليها بما يوافق المدارك الإنسانية والعقول البشرية ومصالح العباد في كل زمان ومكان باعتبار أن هذه الفروع هي فقه لهذه الأصول التشريعية وتفسير لها حسب أصول التفسير وقواعده الشرعية التي دل عليها الشرع الحكيم بطريق النص أو العقل الذي يوافقه الشرع.

وهذا التفسير بمداركه الفقهية المتعددة هو ما يعبر عنه بالمذاهب الفقهية في الشريعة الإسلامية المنسوبة إلى أصحابها.

ولهذا كانت الفروع الفقهية لأصول الشريعة الإسلامية في كل العصور وحدة واحدة يكمل بعضها البعض ولا يغني إحداها عن الآخر ولا يمكن الفصل بينها فصلا كاملا بأي حال في أي عصر من العصور التشريعية الإسلامية لأنها جميعا لبنات متعددة لبناء واحد كامل وأصل واحد شامل هو نصوص الشريعة الإسلامية عقيدة وشريعة.

وكان من الجهل كل الجهل والخطأ كل الخطأ فصل هذه الفروع عن أصولها الشرعية وتركها أو إلغاؤها في أي عصر من العصور الإسلامية مهما تقدمت العلوم والمدارك والعقول البشرية في أي زمان وفي أي مكان ومهما تقدمت الثقافات الإنسانية ومن هنا كانت أهمية تحقيق التراث العلمي الذي يحمى ويحفظ هذه الفروع الفقهية بكل مذاهبها الإسلامية ليظل أصل النبع الفقهي والتشريعي للإسلام والمسلمين نقيا صافيا من كل دخيل أجنبي عنه. ومتصلا مع كل إجيال البشر، ومحققا لهم في مجال العمل والتشريع والتطبيق كل الخير والسلام لكل بنى الإنسان مهما بعدت فيما بينهم الديار ومهما اختلفت عندهم الأجناس والألسنة والألوان مادام دين الله الإسلام. وشرعه بأصوله التشريعية وفروعه الفقهية هو الذي يحكم بينهم في كل الأحوال.

وبهذا فإنه لا غنى عن هذا التشريع في مجال التطبيق والعمل والتنفيذ لكل إنسان في أي زمان وفي أي مكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد آمن فقهاء الإسلام على مر العصور قديما وحديثا بذلك وعرفوا مكانة الفقه

الإسلامي وشرفه بين علوم الدنيا والدين ومن بين هؤلاء الفقهاء كان العالم الحجة المجدد فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

وإذا كانت حياة عظماء الرجال تقاس بمقدار كفاحهم ونضالهم من اجل بلوغ المثل العليا، والقيم الفاضلة للمجتمع المثالي فإن فضيلة الشيخ / محمود شلتوت احد هؤلاء الذين قطعوا في هذا الطريق شوطا طويلا نفع به الإسلام والمسلمين.

فقد توسع في كثير من مجالات العلم وفروعه.. توسع في دراسة الفقه، حتى أصبح فقيها من أكبر فقهاء عصره، واسع الأفق قوي الحجة، بصيرا بالأحكام الشرعية الملائمة لحاجات الناس، ومقتضيات العصر، سائرا بها في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. كما اعتنى بتفسير القرآن الكريم وتدبر أسراره.. ودرس أحوال مجتمعه حتى استطاع أن يتعرف على أمراض المجتمع، ووسائل علاجها فحارب التقليد والجمود والعصبية المذهبية التي جعلت من المذاهب أديانا وفرقت بين المسلمين ونادى بمبدأ الاجتهاد وفتح بابه وندد بفكرة سد باب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية. واعتبره حدا للعقول، وتعطيلا لكتاب الله، ومجافاة لنصوصه الداعية إلى البحث والنظر.

والإمام محمود شلتوت له مدرسة في ذلك دفعت قافلة الفكر الإسلامي إلى الامام. وله الكثير من الآراء الإصلاحية التي طالع بها العالم منذ عهد الشباب.

ومن هنا كان الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت أحد أولئك الذين عاشوا قضية الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى للمسلمين ديناً وجعله خاتم الرسالات السماوية إلى الأرض قولا وعملا وكان النموذج الشاهد الملموس لداعية الإسلام المعاصر الذي يملك الوسائل والأسباب والخصائص والميزات التي تدفع به إلى النجاح والتقدم فيما يدعو إليه من إصلاح وتجديد في شتى المجالات.

ولكل ذلك سوف نتحدث عن حياته وآثاره العلمية ونتعرف على أفكاره في مجالات الفقه والتفسير وعلم الكلام وكيف كانت عنايته بالفقه المقارن والتقريب بين المذاهب ودوره البارز في التقريب بين مذاهب أهل السنة والشيعة وفتاواه في جواز التعبد بالمذاهب الإسلامية السنية والشيعية الصحيحة وقيادته لحركة الإصلاح والتجديد والاجتهاد.

أولا: حياته وآراؤه[١]

الشيخ شلتوت: أمام عالم وباحث محقق ومفكر واسع الأفق ملأ عصره بعلمه وبحثه وفكره ودوى صوته بالحق في شجاعة العالم المحقق وأسلوب الباحث المجدد.

وهو الإمام العلامة الداعية المفسر الفقيه الأصولي الأديب اللغوي: محمود بن محمد بن عبد الهادي شلتوت.

ولد الإمام في الخامس من شهر شوال سنة عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة (١٣١٠/١٠/٥هـ) الموافق للثاني والعشرون من شهر أبريل سنة ثلاثة وتسعين وثمانمائة وألف من الميلاد (١٨٩٣/٤/٢٢م) في قرية منشأة بني منصور (منية بني منصور) التابعة لمركز آيتاى البارود أحد مراكز مديرية البحيرة بمصر، في بيت عرف بالعلم والأدب ورباه والده المرحوم الشيخ محمد شلتوت إلى أن بلغ السابعة من عمره ثم لحق بربه فتولى تربيته عمه الشيخ محمد عبد القوى شلتوت الذي ألحقه بكتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم فحفظه في مدة يسيره والتحق بمعهد الإسكندرية الديني سنة ١٩٠٦م، وتلقى العلم بهذا المعهد العتيق على أيدي نخبة وصفوة من العلماء الأوفياء الصالحين منهم الشيخ الجيزاوي والشيخ عبد المجيد سليم وغيرهم وكان رحمه الله أول فرقته في جميع مراحل الدراسة حصل على الشهادة العالمية النظامية في سنة ١٩١٨ ولم يتجاوز عمرة الخامسة والعشرين وكان أول الناجحين فيها.

ثم عين مدرسا بمعهد الإسكندرية الذي تخرج منه وهو في السادسة والعشرين من عمره في ٢ فبراير سنة ١٩١٩.

وفي هذا العام قامت الثورة الشعبية المصرية بزعامة سعد زغلول وامتدت الثورة حتى

---

١ - الشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد رسالة ماجستير مقدمة لكلية أصول الدين بالقاهرة سنة ١٩٨٨ للباحث سيد محمد الصاوي ص ١ وما بعدها.

مشيخة الأزهر علي عبد العظيم ج ٢، ص ١٨٥ ومابعدها طبعة مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧٩.

النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. د/ محمد رجب البيومي طبعة مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٢ ج ٣ ص ٥٤ ومابعدها.

الشيخ شلتوت ومنهجة في التفسير، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية أصول الدين بالقاهرة سنة ١٩٨٩ للباحث عبد العزيز عزت ص ١ ومابعدها.

شملت جميع القرى والمدن وقام الشيخ فيها بواجبه وشارك فيها بقلمه ولسانه.

وعندما عين الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخا للأزهر سنة ١٩٢٨ ورأى الإفادة من الشيخ محمود شلتوت لما رآه فيه من علم وفهم وحب للإصلاح والتجديد نقله إلى القاهرة مدرسا بالقسم العالي، وظل يدرس بالقسم العالي إلى أن اختارته مشيخة الأزهر للتدريس بقسم التخصص سنة ١٩٣٠ ليدرس لحملة الشهادة العالية، واصبح زميلا لأساتذته السابقين.

ولما تقدم الإمام المراغي شيخ الأزهر آنذاك بمذكراته الإصلاحية إلى أولياء الأمور كان الشيخ شلتوت أول المؤيدين له من الأزهريين، وتتضمن المذكرة إعادة تنظيم الأزهر على ضوء ماجاء فيها من مقترحات وكتب الشيخ شلتوت عدة مقالات في جريدة السياسة اليومية يطالب فيها بتاييده هذه.

المذكرة والعمل على تنفيذها، ولم يستجب القصر الملكي في ذاك الوقت إلى هذه المطالب ورد المذكرة مما دعا الشيخ المراغي إلى الاستقالة من منصبه.

وعين الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخا للأزهر خلفا له ومع انه من رجال الإصلاح إلا انه كان يرى علاج الأمور بالرفق ومطالبة أولياء الأمور بالتفاهم معهم في تنفيذ برامج الإصلاح.

ولذلك عارضة كثير من العلماء والطلاب وقابل ثورتهم بالشدة ففصل كثير منهم من منصبه من بينهم الشيخ شلتوت وظن الكثير أن الشيخ الظواهري يرفض الإصلاح.

وفي يوم السبت ١٧ سبتمبر ١٩٣١م تم فصل الشيخ شلتوت من العمل فأتجه إلى العمل بالمحاماه أمام المحاكم الشرعية مع زميله الشيخ على عبد الرازق (وزير الأوقاف الأسبق) والكتابة في الصحف والمجلات مطالبا بضرورة إصلاح الأزهر.

ولقد استفاد كثيرا من قيامه بالعمل في المحاماة فقد فتحت له آفاق من الفكر الذي يتعلق بالحياة العملية للناس.

وفي شهر فبراير سنة ١٩٣٥ أعيد الشيخ شلتوت إلى عمله بالأزهر مع إخوانه المفصولين فعين مدرسا بكلية الشريعة.

وعندما عاد الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر مرة ثانية عين الشيخ شلتوت وكيلا لكلية

الشريعة في شهر فبراير سنة ١٩٣٧ ثم أختاره المجلس الأعلى للأزهر عضوا في الوفد الذي يمثل الأزهر في مؤتمر القانون الدولي المقارن بمدينة لاهاي في هولاندا.

وتقدم الشيخ شلتوت ببحثه القيم (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية) وقد نال هذا البحث استحسان واعجاب أعضاء المؤتمر. وقرر المؤتمر بناء على هذا البحث:

١ـ اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام الحديث.

٢- اعتبار الشريعة الإسلامية صالحة للتطور وقائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها.

٣- تسجيل البحث في سجل المؤتمر باللغة العربية واعتباره من الأبحاث التي تدخر للجوع إليها.

٤- جعل اللغة العربية إحدى اللغات المستعملة في المؤتمر في دورته المقبلة.

٥- أن يدعى إلى المؤتمر المقبل أكبر عدد ممكن من علماء الشريعة الإسلامية من مختلف المذاهب والأقاليم.

ونظرا لما عرف عنه من فكر ثاقب في الإصلاح عين الشيخ شلتوت مفتشا عاما بالمعاهد الأزهرية لمعالجة مابها من قصور ١٩٣٨ وبعد أن قام بمهمة الإصلاح فيها عاد مرة ثانية إلى وكالة كلية الشريعة ثم تقلد مناصب عديدة بعد ذلك وحصل على عضوية كثير من المجالس العلمية، ففي سنة ١٩٣٨ اختاره وزير الحقانية عضوا شرعيا بلجنة تعديل القانون المدني، وفي سنة ١٩٣٩ عين عضوا بلجنة الفتوى بالأزهر.

واختير عضوا في لجنة إذاعة التفسير بمحطة الإذاعة المصرية وتقدم باقتراح حديث الصباح — قبل وبعد التلاوة القرآنية.

وفي سنة ١٩٤١ عين عضوا بجماعة كبار العلماء فكان أصغر عضو فيها.

وفي أول اجتماع للجنة كبار العلماء بعد تعيينه عضوا فيها تقدم باقتراح يطلب فيه ما يلي:

١ـ إنشاء مكتب علمي للجماعة تكون مهمته معرفة الشبهات والمزاعم التي يروج لها أعداء الإسلام والرد عليها.

٢- بحث المعاملات التي جدت وتجد في المجتمعات الإسلامية.

٣- وضع مؤلف علمي يحتوي على بيان ما في كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات على التفسير وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن التي لا يدل على صحتها نقل ولا عقل، وكذلك تنقية كتب الدين من البدع والخرافات[١].

وقد استجيب لطلبه والفت لجنه برياسة الشيخ عبد المجيد سليم وعضوية الشيخ شلتوت. ولقد تابع الشيخ شلتوت اقتراحه بالمطالبة بإنشاء مجمع البحوث الإسلامية وتم إنشاء المجمع في عهد مشيخته سنة ١٩٦١.

وفي عام ١٩٤٦ عين عضوا بمجمع اللغة العربية ثم انتدب بعد ذلك لتدريس فقه القرآن والسنة بجامعة فؤاد الأول – القاهرة الآن – وفي سنة ١٩٥٠ م عين مراقبا عاما لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية وفي سنة ١٩٥٧ عين مستشارا للمؤتمر الإسلامي وعضوا في اللجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية وعضوا في مجلس الإذاعة الأعلى وغير ذلك من المناصب.

ومن ابرز الأعمال التي قام بها انه عمل على توحيد الصف الإسلامي فكان من كبار المؤسسين لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية التي قامت لتحقيق الأخوة الإسلامية وإزالة الجفوة الموجودة بين الشيعة واهل السنة وتوثيق الصلات بين المذاهب الإسلامية عموما والتي كان من آثارها الفتوى بجواز التعبد على مذهب الأمامية الجعفرية من الشيعة – سنذكرها فيما بعد – ومن طيب ثمرات الشيخ شلتوت كذلك أنه قام بتفسير العشرة أجزاء الأولى من القرآن الكريم تفسيرا موضوعيا ممتازا وفي سنة ١٩٥٧ أيضا عين وكيلا للجامع الأزهر وظل في منصبه حتى صدر القرار الجمهوري بتعينه شيخا للأزهر في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٥٨ وظل الأمام شلتوت شيخا للأزهر إلى أن توفاه الله في ليلة الجمعة السادس والعشرين من شهر رجب سنة الف وثلاثمائة وثمانين وثلاث من الهجرة النبوية الشريفة الموافق ١٢ ديسمبر ١٩٦٣ ميلادية.

وقد كان الشيخ شلتوت يؤمن برسالة الأزهر لأنها تحمل أساسا رسالة الإسلام وإيصال الدعوة الإسلامية إلى كل الناس وقام بتعديل المناهج في الأزهر بما يناسب عقول المخاطبين

---

١ - نشر هذا الاقتراح بمجلة الرسالة العدد ٤٣٧ المجلد التاسع.

في عصره فقد قال في الكلمة التي ألقاها في مؤتمر الملحقين الثقافيين التي يطالب فيها بإعادة النظر في مناهج الأزهر : (إن هذا الذي نريده للأزهر هو في واقعة انقلاب ولكنه انقلاب محبب إلى النفوس الغيورة على ماضيها المتطلعة إلى مستقبلها، انقلاب يصل بالعقلية الأزهرية إلى الفكر الأصيل وهو في الوقت نفسه يربط العقلية الأزهرية أو الفكرة الإسلامية الصحيحة بالحياة الواقعية التي يعيش العالم فيها اليوم).

ثانيا : منهجه وأفكاره في الفقه والتفسير وعلم الكلام

(أ) منهجه وأفكاره في الفقه

تأثر الشيخ شلتوت بمنهج أستاذه الشيخ المراغي عندما كتب مذكرته في شؤون الأسرة وأوضح فيها آراء الفقهاء في شتى المذاهب الفقهية لكبار الفقهاء في الإسلام دون التقيد أو التعصب لمذهب أو لرأي معين.

كما تأثر بمذكرة الشيخ المراغي لإصلاح الأزهر يقول فيها: (يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حره خاليه من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة المجمع عليها والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزاجه الأمم المختلفة كما يفعل السلف من الفقهاء).

تأثر الشيخ شلتوت بهذا المنهج المقارن ورأى ضرورة إصلاح الفقه وتجديده ليوافق ظروف الزمان والمكان ولإيمانه بذلك لم يغفل الشيخ شلتوت قضية فقهيه من قضايا عصره دون أن يصدر رأيه فيها فكان مصدر الفتوى في كثير من شؤون الفقه ومسائله يزاحم أساتذته الكبار مزاحمة ناهضة مشرئبة إلى الاجتهاد حتى زاملهم مزاملة الكفء للكفء وصار ينتظر رأيه الفقهي فيما يختلف فيه المتجادلون فإذا تصدر للحكم فالرأي المؤيد بالدليل والإفتاء المستند إلى الترجيح الصحيح[1].

---

١ - النهضة الإسلامية في سير اعلامها المعاصرين د/ محمد رجب البيومي ج ٢ ، ص ٦٠، مشيخة الأزهر لعلي عبد العظيم المرجع السابق ج ٢، ص ١٨٧.

ولقد آلف الشيخ شلتوت كتابا في مقارنة المذاهب الفقهية[١]. بالاشتراك مع الأستاذ محمد علي السايس ونهج فيه المنهج المقارن يأتي فيه بالقضية الفقهية من وجهة نظر كل مذهب ثم يرجح المذهب الذي يناسب ظروف العصر مؤيدا بالأدلة والبراهين. ولذلك فهو كان من أوائل الذين اهتموا بتجديد الفقه بحيث يلائم العصر والبيئة حتى ينتفع الناس به ثائرا على التعصب والجمود وكان من آثار هذا المنهج أنه أفتى بجواز التعبد بالمذاهب الإسلامية الصحيحة السنية والشيعية[٢].

(ب) منهجه وأفكاره في التفسير

الشيخ شلتوت أمام عالم فسر القرآن الكريم فجلى هدايات القرآن في جوانب الحياة المختلفة وأظهر كثيرا من نواحي الإعجاز البياني والتشريعي والعقدي والأخلاقي وذلك في تبصر ووعي وادراك لثقافة العصر وقضاياه المتجددة. وهو في تفسيره يؤكد حقيقة هذا الدين وهو أنه الدين الذي رضيه الله للبشرية دينا خاتما أرسل به خاتم أنبيائه ورسله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه الدين العام الخالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين إذا استقامت البشرية على — منهجه تحقق لها التقدم والرقى والسعادة والأمن والاستقرار، فهو الدين الذي يصلح به كل زمان — ومكان لأنه يلبى حاجة العقل والقلب والجسد والروح (فطرة الله التي فطر الناس عليها) آية ٣٠ من سورة الروم. وهو الصراط المستقيم (صراط الله الذي له مافي السماوات ومافي الأرض) الآية الأخيرة من سورة الشورى وقد أدرك الشيخ شلتوت بوعيه الثاقب أن المسلم لا يمكن أن يعيش بعيدا عن حقائق العصر ومتغيرات الحياة ومتطلباتها فربط التفسير بالواقع وحارب الجمود والتقليد وقضى على ركود العقل واستغلال الدين لمصلحة فئة من الناس ودعا إلى الائتلاف والوحدة[٣].

وكانت الطريقة المألوفة في التفسير هي أن يسير المفسر مع آيات الذكر الحكيم آية بعد

---

١ - مقارنة المذاهب في الفقه للشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد علي السايس. الطبعة الثانية ، ص١ ومابعدها.

٢ - الشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد المرجع السابق ، ص ٣٤ ومابعدها.

٣ - من كلمات الأستاذ محمود عباس العقاد في تأبين الشيخ شلتوت نشر مجلة الأزهر الجزء السادس السنة الخامسة والثلاثون عدد شبعان ١٣٨٣هـ يناير ١٩٦٤م.

آية وسورة بعد سورة حسب الترتيب المصحفي واستمر الحال على ذلك أزمان حتى جاء عصر النهضة الحديثة ـ في القرن الرابع عشر الهجري فكان نهضة في جميع المجالات العلمية والفكرية والمادية والحضارية، وفي النهضة الفكرية ظهر التجديد في طريقة التفسير وأسلوبه على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسلك تلاميذ الشيخ محمد عبده وأعلام مدرسته هذا المنهج بالاتجاه إلى وجوب الهداية في القرآن، فالتفسير الذي لا يسعى إلى بيان وجوه الهداية لا يستحق أن يسمى تفسيرا وكذلك خلت تفاسيرهم من الإسرائيليات المكذوبه والأخبار الموضوعة والأقاصيص المعلقة، كما خلت إلى حد كبير من التعميق والإغراق في البحوث العربية من بلاغة ونحو وصرف ولغة. والبحوث الشرعية من فقه وأصول فقه وعلم وكلام، والبحوث الفلسفية والعلوم الطبيعية والكونية فالتوغل في تلك المباحث يبعد القارئ غالبا عن تعرف الهداية في القرآن.

ومن أراد تفسير القرآن الكريم على المنهج القويم فليتجه أولاً إلى بيان وجوه الهداية التي ارشد إليها القرآن الكريم في العقيدة والتشريع والعبادة والأخلاق ، وجوانب الحياة الأخرى ويتجه كذلك إلى الوجوه التي كان القرآن بها معجزة خالدة.

وقد أذن الله سبحانه بأن يكون في كل عصر وجيل علماء يبذلون جهودهم ويخصصون أنفسهم لخدمة كتاب الله وتفسيره كل على قدر طاقته وحسب ثقافته وأحوال عصره ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمود شلتوت رحمه الله فقد تغيرت أحوال الناس واختلف العصر وأصبح الناس في القرن العشرين في حاجة إلى تفسير يلائم حال العصر وثقافتهم وقام الشيخ شلتوت بواجبه نحو كتاب الله وخدمته وكتب بحوثه والقى محاضراته في تفسير القرآن بطريقة فريده ونموذج رائع وأسلوب جديد يلائم ذوق العصر وثقافته. عمد فيه إلى بيان وجوه الهداية والإعجاز في القرآن الكريم عقيدة وتشريعا وأخلاقا .

ووضح الشيخ شلتوت منهجه فقال أثناء تفسيره لسورة البقرة : «وقد سلكنا بهذا الصنيع سبيلا غير التي الفها الناس في التفسير لنضع بين يدي القارئ الموضوعات التي عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية والموضوعات التي عرضت لها فيما بعدها في سلك واحد يجمع بين حبات كل جانب ويعطي للناظر إليه صورة كاملة لجميع ما احتوت عليه تلك السورة

الكريمة وتعينه على الرجوع بكل مسألة فيها إلى نوعها وغرضها التي ترتبط فيها مع زميلاتها، ولعل القراء يلمسون من هذا الصنيع ذلك المعنى الذي يوحي به اهتمام السورة في الجانب الأول من جانبيها بتتبع أنباء بني إسرائيل وتقصيها على النحو العجيب والمؤذن بأن القرآن الكريم صادر من العليم الحكيم، كما يوحي باهتمام السورة في جانبها الآخر بعظمة هذا الدين وكونه منهجا واضحا وصراطا مستقيما يهدي للتي هي أقوم ويرسم للناس طريق السعادة في الدنيا والآخرة ويهيئ للأمة حياة هانئة مستقرة ونظاما قويا يعيشون في ظله آمنين مطمئنين»[١].

ولقد انتهج الشيخ شلتوت منهج التفسير الموضوعي وهو تفسير القرآن الكريم بجمع الآيات من السور المختلفة التي تحدثت عن موضوع واحد ودراستها دراسة موضوعية مرتبطا بعضها ببعض مستخرجا منها العبر والأحكام والعظات.

وقد تميز تفسيره للعشرة أجزاء الأولى من القرآن الكريم.

أولاً: بتنظيم وترتيب المعلومات والتبويب والفهرسة للموضوعات فكان يذكر إجمالاً في مستهل كل سورة: الموضوعات الرئيسية والمحاور التي تدور عليها ثم يبين مقاصد السورة ثم يبين طريقته في بيان الموضوعات وأسلوبه في البحث.

ثانياً: خلو تفسيره من الإسرائيليات والموضوعات والمرويات الضعيفة.

ثالثاً: تجنب في تفسيره أمرين يجب تنزيه التفسير عنهما:

الأمر الأول: التفسير على وفق آراء المذاهب والفرق.

الأمر الثاني: التفسير على مقتضى النظريات العلمية.

فنجد تفسيره خالياً من التأثير بالعصبية المذهبية أو الطائفية وإنما كان رائده الدليل ووجهته الحق وطريقته الاستقامة على منهج القرآن الذي يأمرنا بالوحدة ولم يكلف أحدا بأتباع مذهب معين من الناس إلا إذا وافق الحق والدليل من القرآن والسنة.

كما أنه لا ينبغي أن ننساق إلى النظريات العلمية والتأثر بها والتي قد تتغير من وقت

---

١ - تفسير القرآن الكريم للأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، ص ٧٩.

لآخر وقد تكون صحيحة وغير صحيحة[١].

رابعاً: يتميز تفسير الشيخ شلتوت أيضا بإبراز خصائص النظم القرآني.

خامساً: يتميز بتوضيح وبيان أوجه الهداية والموعظة في القرآن الكريم.

ج- منهجه في علم الكلام وآراؤه في بعض المسائل الإعتقادية[٢]

يرى الشيخ شلتوت أن السلف أفضل الناس عقيدة ومنهجا واهداهم طريقه ومذهب وأكمل الأمة إيمانا.

وجملة مذهبهم أن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ويشمل الإيمان بالله اعلى ووحدانيته وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما أخبر به الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم وثبت عنه بطريق صحيح وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتيه لا ريب فيها والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

ومذهبهم في آيات الصفات: أن يوصف الله سبحانه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم دون تكييف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل وإمرار صفات الله في القرآن على ظاهرها كما جاءت دون الخوض في تأويلها (أمروها كما جاءت) ويتركز مذهبهم في آيات الصفات على أسس ثلاثة.

الأول: تنزيه الله عزوجل عن مشابهة المخلوقين ذاتا وصفة وفعلا قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

الثاني: أن يوصف الله تعالى بما وصف نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فقط وينفى ما نفاه القرآن والسنة الصحيحة عنه.

الثالث: قطع الطمع في إدراك الكيفية لقوله تعالى (ولا يحيطون به علما) سورة طه آية ١١٠.

ويقول الشيخ شلتوت في وصف منهج السلف الصالح: (وقد كان علماء السلف رحمهم الله

---

١ - الشيخ شلتوت ومنهجه في التفسير المرجع السابق ، ص ١٦، ص ٢٢٧ - ٢٣١.

٢ - الإسلام عقيدة وشريعة طبعة سنة ١٩٨٥ ، ص ٢٥ ومابعدها.

الشيخ شلتوت ومنجه في التفسير المرجع السابق، ص ٤٠٥ وما بعدها.

تعالى: يكتفون بما قرره القرآن في العقائد والأخلاق والقصص ولا يحاولون التوسع فيه ولا السؤال عن تفصيلة وما كانوا يسألون إلا عن آيات الأحكام ذات الوجهين في الدلالة وإن منهجهم في ذلك لهو المنهج السليم الذي يندرئ به الخلاف الضار في أصول الدين وتقمع به العصبية العمياء التي تقطع أواصر الأخوة بين المسلمين[1].

فقد جعلوا القرآن إمامهم ودستورهم والهادي لهم إلى طريق السعادتين الدنيوية والأخروية أحلوا حلاله وحرموا حرامه ولم يتسألوا عن المتشابه وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه ولذلك دانت لهم الدنيا وانتشر الإسلام في ربوع العالمين في عهدهم وجابوا البلاد شرقا وغربا ينشرون الدين ويعلنون كلمة التوحيد فكان سبيلهم العمل وابتغاء مرضاة الله وترك الكلام فيما لا يجدى والتفوا حول الغاية التي وجههم القرآن إليها.

وكانوا على منهج العقيدة الصحيحة الخالصة الصافية والسلوك العملي في تطبيق ماجاء به القرآن ضمانا لفلاحهم والتمسك بأخلاق القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة.

ثالثا : دعوته للتقريب بين المذاهب[2]

من أهم جوانب منهج الشيخ شلتوت الإصلاحي: سعيه الدائب لتحقيق الوحدة الإسلامية والتقريب والتوفيق بين المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وديارهم.

ومن أجل ذلك عمل على تقريب الخلاف بين المسلمين في الفكر أو الجنسية أو المذاهب أو الطائفية. وأبعاد أسباب الخلافات والتنازع بينهم.

---

١ - مقدمة لتفسير سورة هود «مخطوط» بقلم الأمام الشيخ محمود شلتوت.

٢ - دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام جمع وترتيب محمد محمد المدني طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٦٦ ، ص١، ومابعدها ، مشيخة الأزهر لعلي عبد العظيم المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨٩ ومابعدها، مجلة رسالة الإسلام نشر دار التقريب بين المذاهب الإسلامية عدد المحرم ١٣٨٤هـ يونيه ١٩٦٤ ، ص ٢٠٢ ومابعدها، قصة التقريب بين المذاهب الإسلامية – محمد تقي الدين القمي ، ط شوال سنة ١٣٧٩ هـ ، ص ٣ ، ومابعدها، الشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد المرجع السابق، ص ٢٩٣ ، ومابعدها .

وكان يؤمن بأن الاتفاق الفكري بين المسلمين هو الأصل ويحتاج إلى توجيه وإرشاد إلى سبيل الاتحاد ولذلك كان دائما يبين الأبساب المؤدية إلى الوحدة والمنافع التي تترتب عليها من العزة والقوة والمنعة للمسلمين وكان يدعو إلى محاربة العصبية المذهبية لإزالة العوائق والموانع أمام تحقيق الوحدة الإسلامية.

وانطلاقا من هذا الفكر شارك الشيخ شلتوت من اول يوم في جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية من نشاتها، وكان من أوائل الرجال الذين نادوا بالتقريب بين المذاهب الإسلامية كلها التي لا تخالف أصلا من اصول الإسلام، وخاصة التقريب بين أهل السنة والشيعة لأن المسلمين جميعا ربهم واحد ودينهم واحد وكتابهم واحد وقبلتهم وأصول عقيدتهم وعبادتهم واحدة.

ويقول الشيخ شلتوت في دعوته من أجل التوفيق بين المسلمين: «إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة هي دعوة الإسلام والسلام وإن أسلوبها الذي تنهجه لهو الأسلوب الحكيم الذي أمر الله به رسوله الكريم في قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هوأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين).

وإن المتقي له في مقام ابتغاء العلم هو ذلك الذي لا تأخذه عصبية ولا تسيطر عليه مذهبيه ولا ينظر يمينا أو شمالا دون قصده».

ويقول أيضا: «لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم واسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة كان منها تلك الفصول المتتابعة في تفسير القرآن الكريم التي ظلت تنشرها مجلة «رسالة الإسلام» قرابة أربعة عشر عاما حتى أكملت كتاباً سوياً، أعتقد أنه تضمن أعز افكاري وأخلد آثاري، وأعظم ما أرجو به ثواب ربي، فإن خير ما يحتسبه المؤمن عند الله ما ينفقه من الجهد الخالص في خدمة كتاب الله. ولقد تهيأ لي بهذه الأوجه من النشاط العلمي أن أطل على العالم الإسلامي من نافذة مشرقة عاليه وأن أعرف كثيرا من الحقائق التي كانت تحول بين المسلمين واجتماع الكلمة وائتلاف القلوب على أخوة الإسلام.

وبهذا تكون الفكرة التي آمنا بها وعملنا جاهدين في سبيل تحقيقها قد تركزت الآن

وأصبحت رسالة الدار محل التقدير والتنفيذ»[١].

وكان يرى الشيخ شلتوت ومن معه أن فكرة التقريب بين المذاهب تقوم على أساس التعارف العلمي وتضييق شقة الخلاف وليس معناها التوحيد بين المذاهب وإنما التقريب المقصود هو أن لا يصل الخلاف في الفروع إلى حد العداوة فالتقريب اتجاه جاد داخل الإسلام مجرد من اللون الطائفي أو الإقليمي للتخلص من العداوة المتبادلة بين أصحاب المذاهب الإسلامية المختلفة والعمل على صيانة وحدة الأمة الإسلامية، والتقريب مرتبط ارتباطاً تاماً بوحدة الأمة المسلمة، ويسعى لإنقاذ الوحدة الإسلامية من عوامل الهدم والمكايد التي يدبرها للإسلام أعداؤه، وليس التقريب انتصارا وغلبه لمذهب على أخر، وليس إدماجاً لمذهب في آخر، وليس تقريبا بين الأديان المختلفة، وإنما يقوم على التسليم بحقوق وواجبات عامة للمسلمين في كل مكان بغض النظر عن مذهبه وجنسيته ولونه وكذلك اعتقاد اخوة المسلم للمسلم لأنها أخوة في الله، فليس بين المسلمين خلاف في الأساسيات والأصول العامة وإنما الخلاف في الفروع فحسب[٢].

ومن أجل هذه الأفكار البناءة انشات جماعة النقريب بين المذاهب في القاهرة سنة ١٩٤٨.

جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة[٣]

أنشئت هذه الجماعة في القاهرة سنة ١٩٤٨ واستمرت حتى عام ١٩٧٠م وقد انفتح بها باب للمسلمين عظيم من الأمل في توحيد صف المسلمين على اختلاف مذاهبهم في جميع انحاء العالم فقام المخلصون من هذه الأمة المحافظون على دين الإسلام بتأليف هذه الجماعة

---

١ - كتاب دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام. جمع وترتيب الشيخ محمد محمد المدني موضوع «مقدمة قصة التقريب للشيخ شلتوت» ص، ٨ – ١٤ طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٦٦.

٢ - مشيخة الأزهر لعلي عبد العظيم المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨٦ و مابعدها، الشيخ شلتوت ومنهجه في التفسير المرجع السابق، ص ٩١، ومابعدها والشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد المرجع السابق، ص ٢٩٣ ومابعدها.

٣ - مقرها القاهرة آنذاك ١٩ ش احمد حشمت بالزمالك وانظر المرجع السابق نفس الموضع.

مبتغين من ذلك تأليف قلوب المسلمين وتوحيد أمتهم وجمعهم على كلمة سواء ونبذ التعصب البغيض الذي يفرق شمل الأمة لكي يعود المسلمون كما كانوا أمة واحدة رائدها إعلاء كلمة الله وغايتها إعزاز دين الله ونشر شريعته، وإبلاغ العالمين رسالة خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وسلم).

ولقد جمعت هذه الجماعة صفوة من أهل العلم والدين والرأي عند أهل السنة والشيعة وفي مقدمة هؤلاء المغفور لهم: فضيلة الشيخ/ محمد مصطفى المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ شلتوت وكلهم قد تولى منصب مشيخة الأزهر.

ومن الشيعة المغفور لهم الامام الأكبر الحاج أقا حسين البروجردي الزعيم الأكبر لعلماء الشيعة بإيران ويسمى آية الله الكبرى والامام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء الشيعي العراقي والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي الشيعي اللبناني والشيخ العلامة محمد تقي القمي الذي كان أول من دعا الى هذه الفكرة وإلى تأليف هذه الجماعة، وهو عالم من علماء الشيعة الامامية بإيران جاء إلى مصر والتقى بالعلماء والمثقفين وعرض عليهم فكرته فوجد أذانا صاغية وقلوبا واعية وأعينا مبصرة ووجد ترحيبا وإقبالا وتشجيعا وقد أعتنق هذه الفكرة الألوف من مختلف البلاد الإسلامية فانتسبوا إلى جماعتها.

وكان من أثر هذا التقارب وجهود المؤسسين لجماعة التقريب ومنهج الشيخ شلتوت رحمه الله أن قرر الأزهر دراسة المذهب الشيعي الأمامي الزيدي في كلية الشريعة كما أن جامعة إيران أدخلت دراسة فقه السنة في كلية «المعقول والمنقول» بها وكانت للدار مجلة ربع سنوية تصدر بأسم «رسالة الإسلام» تصدر في معظم أعدادها ببحث في التفسير لفضيلة الشيخ محمود شلتوت.

والمنهج الذي سارت عليه جماعة التقريب بين المذاهب يتمثل فيما يأتي:

١- أن جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية لا تريد المساس بالفقه الإسلامي ولا إدماج بعضها في بعض بل هي ترى في هذا الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين لأنه دليل على خصوبة في التفكير وسعة في الأفق، واستيفاء، وحسن تقدير للمصالح التي أنزل الله شريعته لكفالتها وصونها.

٢- لا تمد الجماعة يدها إلا إلى أقرب المذاهب الإسلامية التي تعتقد العقائد الصحيحة للإسلام والتي يجب الإيمان بها.

٣- الآراء والأفكار التي لا صلة لها بالعقائد الصحيحة لا تؤدي ولا تدفع إلى التقاطع والتناحر، وإنما يعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه.

٤- العمل على تبصير المسلمين بدينهم وقطع أسباب الخلاف والتفريق بينهم.

٥- بيان ماهو عقيدة يجب الإيمان بها وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها وأن من بين هذه المعارف مايظن أنه من العقائد وهو ليس منها عند التحقيق.

والغرض من جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية أن تكون مركزا إسلاميا لهذه الفكرة تتمركز فيه جهود جميع المعنيين بها في أنحاء العالم، وتتبادل بحوثهم وأفكارهم وعلومهم في رفق وحسن تقبل فيتهيأ لها جو من البحث العلمي الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة.

وحينئذ تنجلي أمام المسلمين أسباب الخلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها ويصلون في المسائل أو النظريات الخلافية نفسها إلى الرأي الصحيح الذي يهدي إليه العقل والدليل، فإذا جاء بعد ذلك مالم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به الأدلة كان أمره بعد ذلك هينا لا ينبغي أن يقضي إلى التقاطع والتناكر والتقاذف وإنما هو خلاف في الفروع تبعا لاختلاف الافهام ومعرفة الأدلة، وبذلك يتبادلون الاحترام والمودة والتعارف والتعاون كما هو شأن المؤمنين المخلصين.

ولما كان الشيخ شلتوت يتطلع إلى تحقيق الوحدة الإسلامية كما تطلع ويتطلع إليها غيره، لأنه أدرك الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين من جراء الفرقة والتنازع والاقتتال الذي أدى إلى ضعفهم وتكالب الأمم الغربية المستعمرة عليهم وقد مزقتهم العصبيات والفروق المذهبية والخلافات الطائفية فيد اجتهاده في جماعة التقريب بين طائفتي اهل السنة والشيعة وظل مع زملائه في الفكرة يقوم بواجبه نحو التوفيق والتقريب. ولإيمانه بالفكرة اقترح في إحدى جلسات الدار أن يعتبر السنة والشيعة المشتركون في الجماعة مذاهب إسلامية لا طوائف أو فرق. وهو الذي كتب المقدمة العلمية المعروفة لتفسير مجمع البيان

كما كان يكتب تفسيره للقرآن الكريم في مجلة دار التقريب وهي (رسالة الإسلام) وكان في هذا الوقت وكيلا للأزهر وفي أثناء توليه شيخا للأزهر الشريف أصدر فتواه الشهيرة بشأن المذاهب الإسلامية وهي جواز إتباع مذهب الامامية الجعفرية أو الزيدية مقررا أنها ليست فتوى رجل واحد وإنما هي فتوى كل أولئك الرجال الذين حملوا أمانة التقريب.

ونستطيع تلمس دعوته للتقريب ونبذة للعصبية المذهبية وحبه للوحدة بين المسلمين في قوله: (إن المتقي لله في مقام ابتغاء العلم هو ذلك الذي لا تأخذه عصبية ولا تسيطر عليه مذهبية ولا ينظر يمينا أو شمالاً دون قصده.

كنت أود لو أستطيع أن أصور بنفسي فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام والتي كان عليها الأئمة الاعلام في تاريخنا الفقهي أولئك الذين كانوا يترفعون عن الصعبية الضيقة ويربئون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم احدهم أنه أتى بالحق الذي لا مريه فيه وأن على سائر الناس أن يتبعوه ولكن يقول (هذا مذهبي وما وصل إليه جهدي وعلمي ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ماقلت فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي والحديث إذا صح فهو مذهبي).

ثم يقول مصورا جمال الوحدة بين المسلمين وكمالها: كنت أود لو استطيع ان اتحدث عن الاجتماعات في دار التقريب حيث يجلس المصري إلى الإيراني أو اللبناني أو العراقي أو الباكستاني أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الاسلامية، وحيث يجلس الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الامامي والزيدي حول مائدة واحدة تدوي أصوات فيها آداب وعلم وفيها تصوف وفقه وفيها مع كل ذلك روح الأخوة وذوق المودة والمحبة وزمالة التعليم والعرفان.

ثم هو يبين لنا الأسباب التي دعت إلى الفرقة والصعبية ويرشدنا إلى كيفية الخروج منها والعمل على إزالتها ليتوحد الصف الإسلامي فيقول: لقد كان أكثر الكاتبين عن الفرق الإسلامية متأثرا بروح التعصب المقوت، فكانت كتاباتهم مما تورث نيران العداوة والبغضاء بين أبناء الملة الواحدة، وكان كل كاتب لا ينظر إلى من خلفه إلا من زاوية واحدة وهي تسخيف رأيه وتسفيه عقيدته بأسلوب لا يليق بالمسلم، وشره أكثر من نفعه

ثم يقول عن الوحدة وانها مطلب أساسي للجماعة المسلمة: إن الله سبحانه طلب من الأمة الإسلامية أن تتوحد كلمتها فلا تكون شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم رقاب بعض، وقد استغل المستعمرون أسباب الفرقة بين المسلمين أسوأ استغلال، ورغم أن المصلحين من المسلمين تنبهوا إلى الأضرار التي تحيق بدينهم وبلادهم من جراء هذه الفرقة فنادوا بوجوب وحدة الصف الاسلامي والتخلي عن أسباب النفرة بين أبناء الملة الواحدة، والعقيدة الواحدة، وليست الدعوة إلى تقريب المذاهب الاسلامية دعوة إلى لقاء أو غلبة مذهب على حساب مذهب آخر ولكنها دعوة إلى تنقية المذاهب من الشوائب التي أثارتها العصبيات والنفرات الطائفية وأذكتها العقلية الشعوبية ولقد فهم المسلمون الأولون حقيقة هذا الدين الحنيف واختلفوا في فهم نص من كتاب الله أو سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ولكنهم مع هذا الخلاف — كانوا يداً واحدة على من عداهم.

ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا دينهم تبعاً لأهوائهم فتفرقت الأمة إلى شيع وأحزاب ومذاهب وعصبيات واستباح بعضهم دماء بعض، وطمع فيهم الأعداء ومن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أذى وذهبت ريحهم وضعفت كلمتهم ولقى الإسلام على يد هؤلاء وأولئك مالقى من نكبات.

ومصائب، ولولا قوة تعاليمه وصفاء جوهره ومنبعة وسلامة وطهارة عقيدته واستقامتها مع الفطرة الإنسانية لحرمت الإنسانية من مزاياه وفضائله[١].

بهده الكلمات الرائعة وضح الشيخ شلتوت للأمة الإسلامية المنهج الذي يجب أن تستقيم عليه وإنها لكلمات جديرة بالدراسة والفهم والاهتمام لعل المسلمين اليوم يدركون أسباب ماحاق بهم من خلاف ونزاع أدى إلى التناحر والتقاتل بالسلاح بين المسلم وأخيه المسلم في هذه السنوات العصيبة والحق أن الشيخ شلتوت وجه الأمة الإسلامية إلى مافيه خيرها وعزها بالرجوع مباشرة إلى كتاب الله ومنجه المستقيم وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

١ - مقدمة قصة التقريب للشيخ محمود شلتوت في (كتاب دعوة التقريب) الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية جمع وترتيب الشيخ محمد محمد المدني السابق، ص١ ، ومابعدها.

رابعاً : المبادئ الفقهية لفتواه بجواز التعبد بالمذاهب الإسلامية[1]

انتهينا فيما سبق إلى أن الشيخ شلتوت أهتم بالفقه المقارن وانه لم يكن يتعصب لمذهب بعينه إلا إذا قوى دليله وبانت حجته وأنه كان يرى وجوب التقريب بين المذاهب الإسلامية الصحيحة السنية والشيعية توحيدا لصف الإسلام والمسلمين لأن في الاتحاد قوة وفي التفرق ضعف ومذله. والله خلقنا امه واحدة دينها واحد ولغتها واحدة وقبلتها واحدة ولإيمانه العميق بهذه المبادئ في الوقت الذي كانت فيه بذور الخلاف بين أهل السنة والشيعة موجودة حاول بقدر إمكانه هو ومن سار معه على درب التقريب قطع بذور الخلاف وإحلال بذور الوحدة والتعاون محلها فعندما سئل «إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد احد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الأمامية الإثني عشرية مثلا؟؟ أجاب فضيلته وكان وقتها شيخا للأزهر بما يلي:

«إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين بل نقول إن لكل مسلم الحق في أن قلد بادي ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيرة — أي مذهب كان — ولا حرج عليه في شيء. وإن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الأثني عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعه لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز — لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد — تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات».

---

١ - مشيخة الأزهر لعلي عبد العظيم ، ج ٢، ص ١٨٧، الشيخ شلتوت ومنجه في التفسير المرجع السابق، ص ٩١ ومابعدها، الشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد المرجع السابق، ص ٢٩٣ ومابعدها.

خامساً : اجتهاداته ومكانته العلمية

كان الشيخ شلتوت يعتقد أن الاجتهاد من أهم الأسس التي يقوم عليها اي إصلاح أو تجديد وان اي إصلاح أو تجديد لا يقوم على الاجتهاد مصيره إلى الجمود ثم الفناء.

والاجتهاد الذي يعتقده أشبه بسلسلة متصلة حلقاتها تسلم اولها إلى اخراها وتأخذ اخراها من أولاها، فهو اجتهاد مبني على أساس الماضي وقد التزم الشيخ شلتوت بهذا الاجتهاد الجمود في البحث فهو يؤمن بأن كل تفكير لا يقوم على أساس من الاجتهاد مقضي عليه بالجمود وبما ينتهي إليه من موت لا مفر منه.

ولذلك نجد الشيخ شلتوت يصرح في مواضع كثيرة بأن الاجتهاد مصدر من اهم مصادر التشريع الاسلامي، وهو نعمة من الله اعز بها المسلمين عن أن يخضعوا لغيرهم في تشريع احكامهم، فيما يجد لهم من امور لم يرد في الشرع عنها حكم، فيقول عن الاجتهاد:

وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا في أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح في دائرة مارسمه من الأصول التشريعية فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ولم يقيده في كل شيء بمنصوص قد لا يتفق مع مايجد من شؤون الحياة كما لم يلزم اهل أي عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار مااختاروا[١].

وكان دائما ينادي باتباع أحكام الله تعالى دون الخضوع فيها لراي معين أو مذهب خاص فيقول: ((واجب علينا الا ندين بالولاء والانقياد لغير أحكام الله ورسوله ولا نتابع قولا لمتقدم أو متاخر لا يستند إلى دليل من الكتاب والسنة، وبذلك تكون فتاوانا وآراءنا مستمدة من ينابيع الإسلام ومصادرة الأصلية ولا نبالي فيها خلاف من يخالفنا))[٢].

فكان الشيخ شلتوت بحق ينهج في منهجه الاجتهادي منهجا عظيما يعتبر امتدادا حقيقيا للحركة التي أبداها أستاذه: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في الثورة على التقليد

---

١ - تفسير الشيخ شلتوت – ص، ٢٠٨ الطبعة العاشرة سنة ١٩٨٤/.

٢ - أعلام في تاريخ وادي النيل – محمد رفعت المحامي، ص ٢٨٠.

والجمود والمناداة بالاجتهاد والتجديد.

ولإيمانه بضرورة الاجتهاد والإصلاح والتجديد وقف موقفا صلبا في وجه الذين ينادون بغلق باب الاجتهاد بقوله: «يجب أن نجتهد وان نؤمن بأن حاجة اليوم من الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالأمس وان نؤمن بأن فضل الله في كل ذلك لم يكن وقفاً على الأولين، وغير صحيح مايقال إن السابقين حللوا المصادر وقعدوا القواعد وطبقوها على كل مايمكن أن يجيئ به الزمن ويحدث للناس من اقضية وحاجات»[١].

ولنظرة الشيخ شلتوت العميقة في الاجتهاد وأنه السبيل لتوحيد الأمة الإسلامية لا فرق فيها بين أهل السنة والشيعة طالما أن الجميع مسلمون ويلتزمون العقيدة الإيمانية الصحيحة كان يقول: «انتهى زمن العصبية ولا انسى أني درست المقارنة بين المذاهب بكلية الشريعة بالأزهر فكنت اعرض آراء المذاهب في المسالة الواحدة وأبرز من بينها مذهب الشيعة، وكثيرا ما كانت أرجح مذهبهم خضوعا لقوة الدليل ولا انسى ايضا اني كنت افتي في كثير من المذاهب بمذهب الشيعة، وأخص منها بالذكر ما نجد الناس في حاجة ملحة إليه وهو فيما يختص بالقدر المحرم من الرضاع كما اخص بالذكر ما تضمنه قانون الأحوال الشخصية من مسائل ومنها على سبيل المثال: الطلاق الثلاث بلفظ واحد فإنه يقع في أكثر المذاهب السنية ثلاثا ولكنه يقع في الشيعة واحدة رجعية وقد رأى القانون العمل به...»[٢].

ولكل ما سبق حظى الشيخ شلتوت بمكانه علمية فريدة في عصرة فكان إماما ممتازا في شخصيته، ممتازا في خلقه، ممتازا في فطرته الطبيعية، فأحتل مكانة سامية في فقه الشريعة الإسلامية أتاحت له أن يكون المرجع الأكبر في عصره لطلاب المعرفة في كل ما يتعلق بمشكلات العصر الحديث وموقف الإسلام منها وقد اعانه على بلوغ هذه المنزلة:

١ـ مواهبه الشخصية حيث كان يتمتع بذكاء حاد وذاكرة قوية وحب للبحث والقراءة والاستيعاب، وبصيرة مهلمه في فقه ما يستوعبه من دراسات.

---

١ - رسالة الأزهر للشيخ شلتوت، ص ٢١، ٢٢، ملحق مجلة الأزهر عدد شعبان سنة ١٣٧٨ هـ يناير سنة ١٩٥٩م.

٢ - رسالة الأزهر للشيخ شلتوت ، ص ٢١، ٢٢، ملحق مجلة الأزهر عدد شعبان سنة ١٣٧٨ هـ يناير ١٩٥٩م.

٢- تأثر تأثرا كبيرا بالفقيهين المجتهدين ابن تيميه وتلميذه ابن قيم الجوزية ثم تأثر بالإمامين الكبيرين جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ثم تأثر بعلاقته القوية وصداقته الشخصية للباحثين الكبيرين الإمام المراغي والإمام عبد المجيد سليم، ولكنه لم يقلد واحدا منهم في آرائه، وإنما كان تأثيرهم فيه دعوته لأن يطلق لعقله العنان في البحث والدراسة دون تأثر بمذهب من المذاهب أو طائفة من الطوائف فإن التبس عليه أمر عاد إلى الكتاب والسنة وكبار الباحثين في شتى الاتجاهات.

٣- تعمق في القراءة والبحث والدراسة ما شاء الله أن يتعمق فدرس آراء أهل السنة والمعتزلة والأشاعره، كما درس المذاهب الأربعة ومذهب الشيعة الأمامية والشيعة الزيدية ومذهب الظاهرية ومذهب الإباضيه وأعانه على ذلك بصيرته النفاذة وتفكيره اللماح من إدراك الحقيقة في ثنايا هذه المذاهب وغيرها.

٤- أفادته تجاربه العديدة ومباشرته لكثير من الأعمال الثقافية الهامة في الإذاعة والمؤتمر الإسلامي ووزارة الشؤون الاجتماعية وغيرها أفاده كل ذلك في الاتصال بالمشكلات الاجتماعية العديدة والبحث عن حلول مناسبة لها في نطاق الشريعة الإسلامية، كما أفادته رحلاته العديدة في أنحاء العالم وصلاته بكبار زعماء العالم الإسلامي وكبار المستشرقين في معرفة كثير من الحقائق والوان المعارف العديدة التي لم تتح لغيره من الشرعيين.

لكل ما سبق كان الشيخ شلتوت — رحمه الله — صاحب بصيره ملهمه في فقه القرآن الكريم والحديث الشريف وبهذا بلغ مبلغ الاجتهاد فيما يصدره من آراء أو يكتبه من فتاوى او يؤلفه من مصنفات وكان جريئاً فيما يعتقده حقا، فإذا بحث موضوعا الم بأطرافه وأقوال السلف فيه ، ووازن بينها، فإذا أطمئن إلى رأى اقتنع به عقله واطمأن إليه قلبه أعلنه على الملأ مؤيدا بالأدلة والبراهين، غير ملتفت إلى مخالفة المخالفين او جمود المقلدين حتى ولو خالفه الجميع وبهذا كانت له آراءه الاجتهادية في شتى المسائل الاجتهادية: فأفتى بحل إيداع الأموال في صناديق التوفير والأرباح الناتجة عنها وافتى بجواز التعبد على المذاهب الفقهية الثمانية المعروفة وهي مذهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، والشيعة الإثني عشرية والشيعة الزيدية والظاهرية والإباضية. كما أفتى بحل تنظيم النسل وغير ذلك من الفتاوى

المذكورة في كتابه الفتاوي.

ونستطيع تلمس جوانب الاجتهاد عند الشيخ شلتوت من موقفة من قضية الربا أو الفوائد في أجابته الشهيرة على الفتوى التالية:

نص الفتوى ((من المشاريع الهامة التي تعود بالخير على المسلمين ما يحتاج إلى قرض من المصارف يتقاضى عنه المصرف ربحاً، فهل يحجم المسلمون عن ذلك على انه ربا ويترك المجال لغير المسلمين وما حكم الشرع في الأسهم والسندات؟؟)).

أجاب فضيلته قائلا: لاشك في أن القرآن حرم على المؤمنين التعامل بالربا والربا حدد بالعرف الذي نزل فيه القرآن بالدين يكون لرجل على آخر فيطالبه به عند حلول اجله فيقول له الآخر: آخر دينك وازيدك على مالك فيفعلان ذلك. (وهو الربا اضعافاً مضاعفه) فنهاهم الله عنه في الإسلام، وأوضح أن هذا الصنيع لا يجري عادة إلا بين معدم غير واجد وموسر يستغل حاجة الناس غير مكترث بشيء من معاني الرحمه التي يبني الإسلام مجتمعه عليها، والتي لو عدمت في المجتمعات لأصبحت كغابات الحيوانات المفترسة، وهذا النوع من لا تقبل إنسانية فاضله الحكم بإباحته، وقد قابل القرآن الكريم حرمته في جميع الآيات التي وجد فيها بالصدقة التي تبذل في مساعدة الفقير المحتاج، وتشير هذه المقابلة إلى ان تلك الحالة كان جديرا بها أن تجري فيها الصدقة وهي التبرع المحض فإن لم تكن صدقة فلا أكثر من الرد بالمثل، ومن النظرة إلى الميسرة (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) [١].

(لا تظلمون ولا تظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) [٢].

أما الزيادة والمضاعفة فهما ظلم وعدوان وهما من موجبات المقت والغضب عند الله (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) [٣].

والفقهاء تمشيا مع توسيع نطاق التراحم والبعد عما يتفح على الناس باب التراحم المادي

---

١ - آية ٢٧٦ سورة البقرة.

٢ - الآيتان ٢٧٩، ٢٨٠ سورة البقرة.

٣ - الآية ١٣١ من سورة آل عمران.

في الضغط على أرباب الحاجات توسعوا كثيرا فيما تناوله الربا، وكان لهم في ذلك مشارب مختلفة وآراء متعددة، ورأى كثير منهم أن الحرمة فيما يحرمون تتناول المتعاقدين معا المقرض والمقترض وإني — الشيخ شلتوت — اعتقد أن ضرورة المقترض وحاجته مايرف عنه إثم ذلك التعامل لأنه مضطر او في حكم المضطر والله يقول: (وقد فصّل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه)[١]. وقد صرح بذلك بعض الفقهاء فقالوا يجوز للمحتاج الأستقراض بالربح[٢] وإذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تبيح لهم هذه المعاملة وكان تقديرها مما يرجع إليهم وحدهم وهم مؤمنون بصيرون بدينهم فإن للأمة أيضا ضرورة او حاجة كثيرا ما تدعوا إلى الاقتراض بالربح، فالمزارعون كما نعلم تشتد حاجتهم في زراعاتهم وإنتاجهم إلى ما يهيئون به الأرض الزارعية، والحكومة كما نعلم تشتد — حاجتها إلى مصالح الأمة العامة وإلى ماتعد به العدة لمكافحة الأعداء المغيرين، والتجار تشتد حاجتهم إلى ما يستوردون به البضائع التي تحتاجها الأمة وتعمر بها الأسواق ونرى مثل ذلك في المصانع والمنشآت التي لا غنى لمجموع الأمة عنها والتي يتسع بها ميدان العمل، فتخفف عن كاهل الأمة وطأة العمال العاطلين، ولا ريب أن الإسلام الذي يبني أحكامه على قاعدة اليسر ورفع الضرورة والعمل على العزة والتقدم، وعلاج التعطل يعطي للأمة في شخصي هيئتها وأفرادها هذا الحق، ويبيح لها — مادامت مواردها في قلة — أن تقترض بالربح تحقيقا لتلك المصالح التي بها قيام الأمة وحفظ كيانها.

غير أني أرى أن يكون تقدير الحاجة والمصلحة مما يؤخذ عن —أولى الرأي— من المؤمنين القانونيين — والاقتصاديين والشرعيين ويكون ذلك في ناحيتين: ناحية تقدير الحاجة وناحية تقدير الأرباح، واختيار مصدر القروض فلا يكون قرض إلا حيث تكون الحاجة الحقيقية ولا يكون قرض إلاّ بالقدر المحتاج إليه وتدفع إليه الضرورة والحاجة ولا يكون قرض إلا من جهة لا تضمر استغلالنا واستعمارنا ولو أن الأمم الإسلامية تكاتفت على وضع

---

١ -آيه ١١٩ سورة الأنعام.

٢ - راجع البحر الرائق شرح كنز الدقائق لأبن نجيم الحنفي، ج ٦، ص ١٣٧ ط ٢ دار المعارف والأشباه والنظائر لأبن نجيم ط دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٥، ص ٩٢.

أساس اقتصادي يحقق مصالحها ويقيها شر التحكم الأجنبي لوحدوا من مبادئ الإسلام الاقتصادي ما يجعلهم في مقدمة الأمم اقتصادا وقوة وحضارة أما الفرق بين الأسهم والسندات فهو أن لأسهم من الشركات التي أباحها الإسلام باسم المضاربة وهي التي تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها وأما السندات وهي القرض بفائدة معينه لا تتبع الربح والخسارة فإن الإسلام لا يبيحها إلا حيث دعت اليها الضرورة الواضحة التي تفوق أضرار السندات التي يعرفها الناس ويقرها الاقتصاديون[١].

هذه فتواه في فوائد القروض نقلناها بنصها من كتاب الفتاوي والذي يعتبر مرجعا هاما في حل المشكلات المعاصرة من وجهة نظر الإسلام ومن خلال هذه الفتوى يتضح ان الشيخ شلتوت رحمه الله كان لا يصدر رأيا إلا مؤيدا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية مدعما بالبراهين القوية وعندما يخالفه بعض الفقهاء والمحدثين في بعض آرائه فكان لا يضيق بهم ولا يتعصب لرأيه لأنه كان مجتهدا يدعوا إلى الاجتهاد.

وقد اقتفينا أثره وسرنا على منهجه في دار الإفتاء المصرية لمسايرة ما يستجد من مشكلات في هذا العصر تحتاج إلى اجتهاد لحلولها ولقد ترك لنا الشيخ شلتوت ثروة علمية ضخمة بما أصدره من مؤلفات علمية قيمة.

مؤلفات الشيخ شلتوت

للأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت مؤلفات وبحوث علمية كبيرة القدر عظيمة النفع نذكر اهمها:

١- القرآن والمرأة

٢- القرآن والقتال

٣- مقارنة المذاهب الفقهية

٤- يسألون

---

١ - الشيخ محمود شلتوت، الفتاوي، ص ٣٥٢ – ٣٥٥ طبعة دار الشروق سنة ١٩٨٠.

٥- المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية.

٦- فقه القرآن والسنة

٧- تنظيم النسل.

٨- منهج القرآن في بناء المجتمع

٩- الوصايا العشر

١٠- الإسلام والتكافل الاجتماعي

١١- أحاديث الصباح في الإذاعة.

وقد جمعت هذه المؤلفات والبحوث في الكتب الجامعة الآتية:

١- الإسلام عقيدة وشريعة

٢- الفتاوى

٣- من توجيهات الإسلام

٤- تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى).

٥- إلى القرآن الكريم جمعه وقدم له ابنه الأكبر – عميد/ هادي محمود شلتوت رحمه الله.

سادسا: دورة في الإصلاح الاجتماعي

المصلحون في كل أمة هم مشاعل الهداية ومصابيح الأمل والتوجيه وهم الدلائل على الخير لمن يرجوه ويطلبه ولقد كان من أئمة الإصلاح في مصر والعالم الإسلامي الشيخ محمود شلتوت. كان الشيخ شلتوت يؤمن بفكرته في الإصلاح والتجديد في كل الميادين ويرى أنه لابد من وضع الخطط الكافية لهذا الإصلاح والتجديد لأن أي وضع يريد له صاحبه النجاح والاستمرار والاستقرار في وجوده وفي غير وجوده، لابد أن يسير في خطه محكمه بحيث تبدأ هذه الخطوة بتحديد الهدف بكل دقه، ثم رسم المنهج الفكري الواضح ثم إخراج هذا الوضع إلى حيز الواقع والتنفيذ بالأسلوب المقنع القائم على أسس قوية ومتينة. وبذلك فدعوة الشيخ شلتوت للإصلاح والتجديد تقوم على:

١- تحرير العقل في مختلف شؤون الحياة.

٢- التوفيق بين الدين وتطورات الحضارة المعاصرة.

٣- تحريره من قيود التحزب والعصبية والجمود ثائرا على التخلف وداعيا إلى نبذ الخرافة والتقليد مع المحافظة على روح الدين وجوهره فكان له من وراء ذلك كله آراء وأفكار خالف بها من سبقه من الذين دأبوا على التقليد والجمود[١].

ومما دفع الشيخ شلتوت إلى إصلاح حال المجتمع ما وجده من تخلف المسلمين عن المشاركة في السيطرة على الواقع المعاصر والفهم الخاطئ من المسلمين للإسلام وما وفد إليهم من مخالطتهم لغيرهم وتمكن منهم بسبب ركودهم في تدبر معنى الإسلام الصحيح.

ولذلك سعى لإصلاح حال المسلمين الثقافية والفكرية والأخذ بيدهم إلى طريق التقدم والنهوض في شتى المجالات وقام بتصحيح فهم المسلمين للإسلام بعد أن شوهته الأوهام والخرافات التي لا تمت إلى الواقع بصله.

والإصلاح الاجتماعي الذي قام به الشيخ شلتوت يتمثل فيما قام به من دور فعال في إصلاح بعض السلبيات في المجتمع المصري في عصر الشيخ شلتوت ليست عنا ببعيد ولا غريب، فلا تزال بعض آثاره باقية حتى اليوم، مثل الإيمان بالخرافات والأوهام والتعويذات والشعوذات والأباطيل.

ثم استجدت مشاكل اجتماعية أخرى بعد ذلك كان من نتيجتها ماساد المجتمع من فوضى وقلق وانعدام الفرص المتكافئة وانتشار النفاق والرياء وتفشي الظلم والرشوة . . . الخ.

وكل هذا قد شجع عليه فساد الحكم في البلاد، كما شجع عليه الاستعمار وأعوانه الذين ابتليت بهم البلاد والذي كان من أهم مبادئهم فرق تسد.

ولقد أسهم الشيخ شلتوت بدور فعال في إصلاح هذه الأوضاع المخالفة لشرع الله وعمل على

١- الشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد المرجع السابق، ص ٢٢٨، ص ٢٣٣.

تحرير العقل من الأوهام والخرافات والرجوع به إلى جوهر الإسلام وحقيقته النقية السليمة.

وندعو الله أن يوفقنا جميعا للعمل بشرعه الحكيم والالتزام به قولاً وعملاً من خلال كتاب الله وسنة نبيه ومنهجه الكريم الحكيم إنه نعم المولى ونعم النصير.

مراجع البحث

١- الإسلام عقيدة وشريعة طبعة ١٩٨٥م.

٢- الأشباه والنظائر لأبن نجيم طبعة دار الكتب العلمية ١٩٨٥م.

٣- أعلام في تاريخ وادي النيل للأستاذ/ محمد رفعت المحامي.

٤- البحر الرائق شرح كنز الرقائق لأبن نجيم الحنفي الطبعة الثانية دار المعارف.

٥- تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت الطبعة العاشرة سنة ١٩٨٤.

٦- دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام جمع وترتيب محمد محمد المدني طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة ١٩٦٦.

٧- رسالة الأزهر للشيخ محمود شلتوت.

٨- الشيخ شلتوت ومنهجه في التفسير رسالة دكتوراه مقدمة لكلية أصول الدين بالقاهرة سنة ١٩٨٩ للباحث عبد العزيز عزت.

٩- الشيخ محمود شلتوت وحركة الإصلاح والتجديد رسالة ماجستير مقدمة لكلية أصول الدين بالقاهرة سنة ١٩٨٨ للباحث سيد محمد الصاوي.

١٠- الفتاوي للشيخ محمود شلتوت طبعة دار الشروق سنة ١٩٨٠.

١١- قصة التقريب بين المذاهب الإسلامية للشيخ محمد تقي الدين القمي طبعة شوال ١٣٧٩هـ

١٢- مشيخة الأزهر للأستاذ/ علي عبد العظيم طبعة مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٩٧.

١٣- مقارنة المذاهب في الفقه للشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد علي السايس الطبعة الثانية.

١٤- مقدمة تفسير سورة هود ـ مخطوط ـ بقلم الشيخ محمود شلتوت.

١٥- مجلة الأزهر الجزء السادس عدد شعبان ١٣٨٣هـ يناير ١٩٦٤.

١٦- مجلة الأزهر وملحقها عدد شعبان سنة ١٣٧٨ هـ يناير ١٩٥٩م.

١٧- مجلة رسالة الإسلام نشر دار التقريب بين المذاهب الإسلامية عدد المحرم ١٣٨٤هـ يونية ١٩٦٤م

١٨- مجلة الرسلة العدد ٤٣٧ المجلد التاسع.

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر

سيد أحمد الشال

من علماء الأزهر (متقاعد)، وصهر المغفور له الشيخ محمود شلتوت

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن حياة عظماء الرجال تقاس بمقدار كفاحهم ونضالهم من اجل بلوغ المثل العليا والقيم النبيلة للمجتمع المثالي.

والإمام الأكبر الشيخ محمودشلتوت احد هؤلاء الرجال الذين قطعوا في هذا الطريق شوطاً بعيدا، فقد كان فقيهاً واسع الأفق بصيرا بالأحكام الشرعية الملائمة لحاجات الناس ومقتضيات العصر، وكان مفسرا حافظاً لكتاب الله، وملماً بسنن الكون، وعالما اجتماعياً ومصلحاً كبيرا يعرف أمراض المجتمع ووسائل علاجها.

وكان رحمه الله مجددا لا يخشى في الحق لومة لائم، فقد حارب الجمود والعصبية المذهبية التي جعلت من المذاهب أدياناً، وفرقت بين المسلمين وجعلتهم شيعاً واحزاباً، وقد ندد بفكرة سد باب الاجتهاد في الشريعة الاسلامية واعتبره حجرا على العقل، وتعطيلاً لكتاب الله، ومجافاة لنصوصه الداعية الى البحث والنظر.

لقد كان الإمام الأكبر ـ بحق ـ رائدا من رواد النهضة الاسلامية في العصر الحديث، وإماما فذا من ائمة المسلمين الذين حملوا لواء الإصلاح في الأزهر وكان من الإباء والترفع والخلق العظيم بمنزلة يعرفها له كبار الحكام حتى إنهم يتطامنون في حضرته رعاية لمقامه وتقديرا لكلمة الحق التي عرف بها والتي كانت طبعه وطابعه.

مولده ونشأته

ولد رحمه الله في ٢٣ ابريل ١٨٩٣م بقرية بني منصور مركز إيتاي البارود مديرية البحيرة ـ حالياً محافظة البحيرة ـ وبعد ان اتم حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية التحق بالأزهر الشريف (بمعهد الإسكندرية الديني) سنة ١٩٠٦م.

وكان أول فرقته في جميع سني الدراسة، ونال شهادة العالية النظامية عام ١٩١٨م وكان ترتيبه أول الناجحين فيها.

وبعد تخرجه عين مدرساً بمعهد الإسكندرية الديني دون أن ينازعه منازع ولم يكن التعيين إذ ذاك سهلاً هيناً كعهدنا به اليوم، لأن التدريس الرسمي بالأزهر كان شرفاً لا يناله إلا أصحاب المواهب العالية، ولكن بزوغ نجم الشيخ شلتوت مبكرا رشحه بإجماع أساتذته لنيل ذلك الشرف، وعهد اليه بتدريس الفقه والتفسير والحديث.

مواقفه الوطنية

لم يكن من المنتظر أن يعكف الشيخ شلتوت على الدرس وحده، فإن آماله الكبار، وحميته الوطنية دفعتا به الى متابعة نشاطه العلمي فيما يتصل بعلوم الدين واللغة العربية، وفي الأوساط الاجتماعية وفي الصحافة بكتابة المقالات الوطنية إسهاماً منه في الثورة المصرية بثغر الإسكندرية بعد الحرب العالمية الأولى.

وهكذا رأى فيه الناس وطنياً غيورا، وعالماً فقيهاً من طراز متجدد ودفعته شجاعته الوثابة الى أن يكون ـ في شبابه الباكر ـ صاحب رأي في كل ما يدور حوله، وبذلك لفت أنظار العلماء الى مواهبه، فاختير ليكون محاضرا في مادتي الفقه والأصول بالقسم العالي بالأزهر سنة ١٩٢٧م من قبل أن يمر على تخرجه أكثر من تسع سنوات، مع أن دراسة الفقه والأصول في القسم العالي كانت وقفاً على من بلغوا النهايات من أعمارهم الدراسية، وكان الشيخ شلتوت وهو الذي مازال شاباً جديرا بما أسند اليه، فبهر بعلمه الغزير وفكره الثاقب تلاميذه، وحببهم في العلم ورغبهم في تحصيله.

آراؤه في إصلاح الأزهر

لما عين المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخاً للأزهر ١٩٢٨م أدرك أن الأزهر يقف جامدا مع أن الحياة تتحرك من حوله، ولهذا قويت في نفسه بواعث الإصلاح فاعلن انه يريد للأزهر اصلاحاً شاملاً يوقظه من سباته، ويفتح فيه باب الاجتهاد في العلم والدين.

وسرعان ما تجاوب فكر الشيخ محمود شلتوت الشاب مع فكر الشيخ المراغي في إصلاح الأزهر، فما كاد الشيخ شلتوت يقرأ في الصحف برنامج الشيخ المراغي عن إصلاح الأزهر حتى احتل منافذ احساسه، فاخذ يكتب في صحيفة السياسة وفي الأهرام والمقطم داعياً الى

تنفيذه والأخذ بما جاء فيه.

وشاء الله أن يبعد الشيخ المراغي عن الأزهر مجبرا غير مختار، وبالطبع غضب الشيخ شلتوت لإبعاد شيخ الأزهر، وازداد غضبه، حين راى أن من خلفه في مشيخة الأزهر يقف من آراء الشيخ المراغي الإصلاحية موقف المعارض مما دعا الشيخ شلتوت الى ان يقود حملة صادقة للدعوة الى اصلاح الأزهر، فاصدر شيخ الأزهر الجديد قرارا بفصله مع بعض زملائه ممن يؤمنون بفكره في الإصلاح وكان ذلك في ١٧ سبتمبر ١٩٣١م.

ولم يسكت الشيخ، ولم تلن قناته، بل تابع نقده لسياسة الأزهر، ونشر افكاره الاصلاحية في الصحف اليومية، والمجلات.

وهكذا حورب الشيخ شلتوت في مصدر رزقه، فلم يحزن، واشتغل بالمحامات والبحوث العلمية، وفي أثناء هذه الفترة اختير خطيباً لمسجد الأمير محمد علي فقبل رغم ما في ذلك من مخاطر، واستطاع أن يؤدي رسالته من فوق المنبر وتزاحم الناس عليه والتفوا من حوله وكان المسجد خاصاً في مبنى سراي الأمير محمد علي بمنيل الروضة فأقنع الشيخ الأمير بفتح باب للمسجد يطل على الشارع حتى يتمكن جمهور المصلين من عامة الشعب من أداء الصلاة، والاستماع الى خطبة الجمعة.

وفي عام ١٩٣٥م أعيد الشيخ شلتوت مكرماً للأزهر وعين وكيلاً لكلية الشريعة، فلم يصرفه العمل الإداري عن متابعة الدرس، وأصر على ان يقوم بتدريس مادة جديدة لم تكن مقررة من قبل هي مادة (الفقه المقارن) وحصر اتجاهه في المذاهب الأربعة لأنها المذاهب المقررة في الأزهر .. وكان لدراسة هذه المادة الجديدة بكلية الشريعة حينذاك أثر بالغ الأهمية في نفوس الدارسين لها، فقد عرفوا من خلالها أن آراء الأئمة يؤخذ منها ويرد، وأن الطالب المستنير ورث فقه الأئمة جميعاً، ولم يتجمد فقهه في زاوية خاصة.

اختيار الشيخ شلتوت عضواً في مؤتمر (لاهاي بهولندا)

وفي سنة ١٩٣٧ عقد بأوروبا مؤتمر لاهاي الدولي بهولندا (للقانون المقارن) ودعي اليه الأزهر فوقع الاختيار على الشيخ محمود شلتوت ليكون ممثل الأزهر في هذا المؤتمر، ومثل وزارة العدل الشيخ عبدالرحمن حسن، ومثل جامعة فؤاد الأول الدكتور عبدالرازق السنهوري وكان عميدا لكلية الحقوق.

و ألقى الشيخ شلتوت بحثاً هاماً تحت عنوان (المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة

الاسلامية) وسط بحوث ألقاها ممثلو دول العالم اجمع، فكشف الشيخ ببحثه هذا النقاب عن نواح كثيرة، وكنز دفينة، وأبان ـ للعالم أجمع ـ جوانب في الشريعة الاسلامية ـ تشهد بعظمتها واتساعها ـ مما لم تعرض لها القوانين، ولا اثارت فيها بحوثاً.

مما لزم التنويه بحاجة البشرية الى هذا البحث الذي أضاف فيه الشيخ الى جانب الإقناع بأهمية التشريع الاسلامي جانب الإصرار على أن يلقى البحث باللغة العربية لتصبح لغة القرآن ولأول مرة لغة رسمية وسط مؤتمر دولي وقد اثار هذا البحث رجال القانون في العالم، بما اثبت من مبادئ قيمة، ودارت حوله بحوث ومناقشات عديدة، كان من نتائجها أن سجل المؤتمر بإجماع أعضائه قراره التاريخي الخطير بالنسبة لرجال التشريع الأوروبي، وقد جاء في هذا القرار:

قرارات مؤتمر لاهاي بهولندا

١ـ اعتبار الشريعة الاسلامية مصدرا من مصادر التشريع الحديث.

٢ـ اعتبارها حية قابلة للتطوير.

٣ـ اعتبارها قائمة بذاتها وليست مأخوذة عن غيرها.

٤ـ تسجيل هذا البحث في سجل المؤتمر باللغة العربية، واعتباره من المجموعة العلمية التي تدخر للرجوع اليها.

٥ـ استعمال اللغة العربية ـ لغة القرآن والشريعة الاسلامية ـ في دورات المؤتمر المقبلة، وأن يدعى اليه أكبر عدد من علماء الإسلام على اختلاف المذاهب والأقاليم.

وقد امتد نفع هذا البحث فكان الرسالة العلمية التي تقدم بها الشيخ شلتوت لنيل عضوية جماعة كبار العلماء، وقد وافق عليها جميع الاعضاء ونال بها الشيخ العضوية بإجماع الآراء سنة ١٩٤١، وكان يومئذ أصغر الأعضاء سنا.

وقد اغتبط شيخ الأزهر الشيخ المراغي بمقدم الشيخ شلتوت عضوا بجماعة كبار العلماء، وباركت الجماعة حلوله بينهم، وبدأت تنشط وذلك بفضل حيوية وحماس الشيخ شلتوت الذي كان أصغر الاعضاء سنا مما جعله قادرا على الإسهام في دفع الجهود، وتنويع البحوث، وكان من مظاهر ذلك أن تقدم الشيخ شلتوت بمقترح جوهري يبعث في جماعة كبار العلماء فيضا من الحركة، ويحدد لها طريقها في العمل المثمر البناء .. وكان من أهم ما جاء في اقتراحه ما يلي:

أن يكون لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم، وان يكون لهذا المكتب مكان معين معروف شأن كل الهيئات الرسمية التي تعمل لأغراض خاصة. اما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يأتي:

* معرفة ما تهاجم به الأديان عامة والدين الإسلامي خاصة، والرد عليه ردا مقنعاً بأسلوب علمي ملائم لطريقة البحث الحديث.

* وضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس ببدعة، والعمل على نشر ذلك ليرجع اليه الناس.

* العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في الكتب المتداولة من إسرائيليات دسّت على التفسير، وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن الكريم، والتي لا يدل على صحتها نقل ولا يؤيدها عقل.

* إصدار الفتاوى في الاستفتاءات التي ترد من المسلمين في جميع الأقطار الى مشيخة جامع الأزهر.

* بحث المعاملات التي جددت وتجد في العصر الحاضر، وبيان حكم الشريعة فيها حتى يظهر للناس سعة صدرها وقدرتها على تلبية حاجات الناس في مختلف العصور.

* تنظيم طرق الوعظ والإرشاد، والإشراف على مجلة الأزهر.

* التنقيب عن الكتب المفيدة في مختلف العلوم والعمل على احيائها وإخراجها إخراجاً علمياً.

أزعجت هذه المقترحات الكثرة من اعضاء جماعة كبار العلماء فتحدثوا بشأنه مع الإمام المراغي متعجبين من أن يكون أصغر الأعضاء سناً هو الذي يتولى المقترحات ويرسم الخطة لأصحاب الفضيلة أساتذته، ولكن الشيخ المراغي أوصى ان تؤلف لجنة لدراسة هذه المقترحات ثقة منه في الشيخ.

وألفت اللجنة وكان أكثرها بالطبع ممن يعارضون مقترحات الشيخ شلتوت وانتهى الأمر الى الركود والجمود .. ولكن الشيخ شلتوت لم ييأس من الطريقة وظلت هذه الأفكار تعيش بداخله يدعو لها في كل مكان، إذ يعز عليه أن يكون للأزهر هيئة من اكبر علمائه ثم لا تعمل شيئاً .. بل ويعز عليه ان تكون الأكثرية من علمائها بعيدين عن التأثير العلمي في محيط الأزهر وفي العالم الاسلامي على امتداد ربوعه، وأن يكون من غير علماء الأزهر من

يتولون معالجة شؤون الحياة الاسلامية وثقافتها على نحو لا يستطيعه كثير من هؤلاء العلماء الكبار.

لم ييأس الشيخ شلتوت، ومضى في دعوته للاصلاح - دونما خوف ولا وجل ومضت السنوات تلو السنوات، وأصبح الشيخ شلتوت شيخاً للازهر ١٩٥٨م وشاء الله ان يحقق له ما كانو يصبو اليه، فعمل على إنشاء (مجمع البحوث الاسلامية) حيث رأى فيه الأمل الذي جاهد من اجله وأراد له ان يحقق ما لم تحققه الهيئة، وأضاف اليه من الشمول ما جعل عضويته تتسع لكي تشمل غير الأزهريين من أعلام الدين الاسلامي في جميع أقطار الأرض.

الجهاد الموصول

واصل الشيخ جهاده في سبيل اصلاح الأزهر حيث فاجأ المسؤولين عام ١٩٤٢م بمحاضرة ألقاها في كلية الشريعة تحت عنوان (السياسة العلمية التوجيهية للازهر) أثنى فيها على المقترحات الاصلاحية التي كان قد تقدم بها الإمام المراغي في ١٩٢٩ إبان مشيخته الأولى للازهر عام ١٩٢٨م وانتهى به الأمر الى مشيخة الأزهر مرة ثانية عام ١٩٣٥م غير أنه لم يأخذ بما جاء فيها.

فلم تزل كتب الأزهر على ما كانت عليه من التعقيد الذي يصعب على القارئ فهمه، ولم نزل نشغل أنفسنا بالفروض الفقهية المستحيلة التي اشتغل بها فقهاء العصر المملوكي والتركي ومن جاء بعدهم.

ولم تزل الإسرائيليات ذائعة تملأ من كتب التفسير التي تدرس في الأزهر فراغاً كبيراً.

* ولم يزل باب الاجتهاد في الفقه مغلقاً

* ولم يزل الطلاب يمتحنون في المقروء فقط، وهم لا يقطعون من الزمن الدراسي في العام غير أربعة أشهر إن لم تقل .. وأن الأزهر بوضعه هذا قاصر عن تحقيق رسالته المنشودة في خدمة العالم الاسلامي .. وكل هذا يدل على أن الإصلاح الذي نادى به الشيخ المراغي قد تجمد ولم ينطلق .. ومن ثم كان لهذه المحاضرة أثرها القوي في الأوساط العلمية .. ودبت بسببها القطيعة بين الشيخ شلتوت ومن يؤمنون بإصلاحاته وبين شيخ الأزهر الذي يملك الرأي ثم لا يسرع في التنفيذ.

* ومرت الأيام وانتقل الإمام المراغي الى جوار ربه وأعقبه سواه وسواه من مشايخ الأزهر وحاله الأزهر كما هي .. حتى أذن الله أن تكون مقاليد الأزهر بيد الشيخ شلتوت الذي عين

شيخاً للازهر عام ١٩٥٨م، والذي صادف تعينه فرحة، واحدث استبشارا لدى كل الراغبين في الإصلاح وصدر في عهده القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها.

ايران ومصر ودورهما في التقريب بين المذاهب الاسلامية

لم يقصر الشيخ محمود شلتوت جهاده على إصلاح الأزهر فقط بل شغل نفسه بضروب مختلفة من الإصلاح كان من أبرزها جهاده المتواصل للتقريب بين المذاهب الاسلامية.

فقد حضر الى مصر حضرة صاحب السماحة الأستاذ محمد تقي القمي عالم الشيعة الإمامية بإيران والتقى بالشيخ محمود شلتوت، وبرزت حينذاك فكرة التقريب بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة الإمامية وهما المذهبان الأساسيان في الاسلام، وذلك بدافع القضاء على اسباب الخلاف بين اصحاب العقيدة الواحدة.. وتألف ما يسمى (بجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية) في يناير ١٩٤٧م برئاسة المصلح الكبير الوزير محمد علوية باشا وبتاييد الإمام شيخ الأزهر والإمام عبدالمجيد سليم وجماعة كبار العلماء.

وكانت جماعة التقريب ترى أن الشعوب الاسلامية أمة واحدة ربها واحد. ورسولها واحد. ودينها واحد.

كما ترى أن القرآن والسنة المطهرة هما أساس الدين فبهما تقررت قواعده وإليهما يرجع المسلمون في كل شان من شؤون الحياة.

وكان من أبرز ما قامت به جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية حينذاك استنكارها لما صدر من هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. إذ على أثر صدور هذا القرار الجائر، عقدت جماعة التقريب بين المذاهب جلسة خاصة في مساء السبت ٢٣ من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ ـ ٦ من ديسمبر سنة ١٩٤٧، اصدرت فيها هذا البيان ممهورا بتوقيعات ممثلي الطوائف الاسلامية البالغ عددهم ثمانية عشر عالماً من كبار علماء المسلمين، وموجهاً الى الشعوب الاسلامية. وقد أذاع هذا البيان على العالم الاسلامي بالراديو حضرة صاحب الأفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ عبدالمجيد سليم وكيل جماعة التقريب ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر.

ونذكر هنا بعض ما جاء في البيان:

أيها المسلمون

إن جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية. لتعلن باسمكم، وهي تمثل جميع طوائفكم، وشعوبكم شديد استنكارها لما يراد بالوطن الاسلامي من الاعتداء على فلسطين بالتقسيم وندعوكم جميعاً للجهاد في سبيل دفع هذا الخطر الداهم متماسكين، متعاونين باذلين كل ما تملكون من اموال وأنفس وجهود، لا فرق في ذلك بين طائفة وطائفة ولا بين شعب وشعب فالجماعة ترى ـ كما يرى كل مسلم عارف بدينه ـ أن الشعوب الاسلامية على اختلاف أجناسها أمة واحدة ربها واحد ورسولها واحد ودينها واحد، وأن كل قطر مسلم إنما هو جزء مقدس من الوطن الاسلامي، فإذا تعرض لخطر المستعمرين كان حقاً على المسلمين جميعهم في مختلف الأقطار أن يدفعوا هذا الخطر.

أيها المسلمون

إن تاريخكم حافل بالمثل العليا للعزة والإباء والتضحية، ولقد كان سلفكم، على قلتهم في العدد والعدد والأموال، يقاتلون قوماً أشد من أعدائكم مراساً واقوى باساً، يدفعهم الى ذلك إيمان لا يتزلزل، وثقة في الله لا تتحول، فنصرهم الله واستخلفهم في الأرض ومكّن لهم دينهم وجعلهم أئمة يهدون بأمره لما صبروا (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

أيها المسلمون

لقد تضافر أعداؤكم على باطلهم فلا تفشلوا عن حقكم، ولا تكونوا غرضاً ترمَون ولا ترمُون، ويغار عليكم ولا تغيرون، فإنه ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، واثبتوا أمام عدوكم واقبلوا تحديهم، واقعدوا لهم كل مرصد .. وانصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم وقد وعدكم الله وعد الحق إذ يقول: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) والمؤمنون الذين وعدهم الله هذا الوعد هم الذين ذكرهم الله جل شأنه في قوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون).

أيها الأخوة

بعد إذاعة ما جاء في البيان على العالم الاسلامي في ديسمبر ١٩٤٧م ورد الى دار التقريب بين المذاهب الاسلامية خطاب من حضرة صاحب السماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر الى حضرة صاحب السماحة الأستاذ محمد تقي القمي عالم الشيعة الإمامية

بإيران، وأمين السر العام لجماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ـ القاهرة.

وفيما يلي نص الخطاب:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فقد اطلعت عند عودتي من لبنان الى القاهرة على النداء البليغ الذي اصدرته جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية الى العالم الاسلامي بشان قضية فلسطين، فابتهجت به كثيرا، وقدرت الروح العالية والعاطفة الشريفة الباعثة على اصداره، فاقدم لحضرتكم ولحضرات اعضاء الجماعة الكرام أجزل الشكر والثناء.

ولا ريب عندي في أن العالم الاسلامي قاطبة سيلبي هذا النداء، نظرا لما عرف به اعضاء الجماعة المحترمون من الغيرة الاسلامية والحمية الدينية، ولما يتمتعون به من منزلة سامية ومقام محترم بين جميع المسلمين.

وتفضلوا يا صاحب السماحة بقبول خالص الشكر ووافر الاحترام.

التوقيع

محمد امين الحسيني

٢٨ محرم ١٣٦٧ (١١ ديسمبر ١٩٤٧)

ومما تقدم يتبين أن جماعة التقريب كانت ترى أن الشعوب الاسلامية أمة واحدة، ربها واحد ورسولها واحد، ودينها واحد.

كما كانت ترى أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما أساس الدين فبهما تقررت قواعده وإليهما المرجع في كل شأن من شوون الحياة.

وكان دور الشيخ شلتوت في إنجاح هذا العمل الذي لو تحقق له النجاح لعاد على المسلمين بالخير الكبير ووقاهم من الشرور الكثير والخطير.

كما كان دور الشيخ شلتوت الدعوة الى الجماعة محاضرا وكاتباً، وفي ظلالهما اصدر تفسيره لكتاب الله منذ أن توفر عليه عام ١٩٤٩م، وقد ظهر معظم التفسير منجماً على صفحات مجلة (رسالة الاسلام) لسان حال جماعة التقريب ويتميز هذا التفسير بأنه تفسير للمسلمين أجمعين، وليس وقفاً على مذهب معين من المذاهب الفقهية ولا يميل الى لون خاص من الوان العقيدة الكلامية، ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر او أهل الباطن،

فقد خلا من العصبيات التي فرقت وحدة المسلمين وجعلتهم شيعا واحزابا.

أيها الاخوة الكرام

إن مما يؤسف له أنه مضت على قضية فلسطين السنوات تلو السنوات، ولا يزال البطش الاسرائيلي مستمرا على الشعب الفلسطيني البطل الذي يطالب باستعادة ارضه المغتصبة على مدى أكثر من نصف قرن من الصراع.

واليوم وقد بلغ البطش الاسرائيلي مداه على أطفال الحجارة يحصدونهم حصدا حتى بلغت المواجهة ذروة كريهة من العدوان الجبان غير المتكافئ بين أطفال الحجارة الصغار المكشوفين، وعسكريين محصنين ومسلحين بأسلحة الحرب الحقيقية من صواريخ وطائرات للإغارة ودبابات ومدافع بعيدة المدى وأنواع القذائف القتالية التي لا تقتل فحسب وإنما تمزق القتيل إربا إربا.

أيها الأخوة

إن الأمر يستلزم منا جميعا وحدة الصف الاسلامي وتوحيد الكلمة والجهود الكبيرة للحفاظ على المقدسات الاسلامية وحمايتها من الاعتداءات الاسرائيلية الوحشية. لذلك اصبح من الضروري في هذا الصدد أن يتواصل الدعم العربي والاسلامي لكفاح ونضال الشعب الفلسطيني سواء من خلال الانتفاضة او من خلال تقديم المساعدات اللازمة للمفاوض الفلسطيني حتى يستطيع الوقوف على أرض صلبة في مواجهة العدو الغادر والمماطلات الاسرائيلية.

أيها الاخوة

يقول الله في كتابه الكريم عن بني اسرائيل (لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة او من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون).

وهذه شهادة ربنا فيهم وهو العليم بنفوسهم .. فاثبتوا أمامهم، واقعدوا لهم كل مرصد، واعلموا أن الاستشهاد في سبيل الله حياة، والمسلم يتمنى الموت في ساحة القتال واليهودي لا يتمنى الموت أبدا ...

يقول الله عنهم (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين).

أيها الاخوة

لقد جعل الله مقاليد نصركم في أيديكم.

فابشروا .. وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .. وقد وعدكم الله وعد الحق إذ يقول (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) والمؤمنون الذين وعدهم الله هذا الوعد هم الذين ذكرهم جل شأنه في قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا واجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون).

والآن، وبعد ان تكلمنا عن تأسيس جماعة التقريب بالقاهرة سنة ١٩٤٧م، وقلنا إنه كان من أبرز اعمالها حينذاك استنكارها لما صدر من هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، كان لابد لنا من تكملة جهاد الشيخ محمود شلتوت المتواصل نحو الأزهر الشريف.

ففي سنة ١٩٥٠م عين الشيخ شلتوت مراقباً عاماً للبحوث والثقافة الاسلامية بالأزهر فوضع أساساً لإصلاح مراقبة البحوث، ولعلاقة مصر الثقافية مع العالمين العربي والاسلامي وغيرهما.

وعين في ١٩٥٧م وكيلاً للأزهر فبدأ الحديث يكثر عن ضرورة اصلاح الازهر، وحل مشاكله، والقضاء على عزلته كي تتوازن فيه علوم الدين واللغة مع علوم الحياة، ويتساوى خريجوه مع خريجي التعليم العالي حتى صدر القرار الجمهوري باختيار الشيخ محمود شلتوت شيخاً للازهر في ١٣ اكتوبر سنة ١٩٥٨م، فبدأ العالم الاسلامي بعامة يحسن ايقاعاً جديداً في الأزهر إذ تولى امامته ومشيخته من وقف حياته مناضلاً عنه، ومجاهداً في سبيل اصلاحه والنهوض به.

وصدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الذي عرف بقانون تطوير الأزهر، ودخل الأزهر بهذا القانون مرحلة جديدة، وكان الهدف منه كما جاء في المذكرة الايضاحية لمشروع القانون (أن نظام الأزهر بوضعه القائم يجعل الدارسين فيه يحصلون من علوم الدين حظا كبيرا ولكنهم لا يكادون يتصلون بعلوم الدنيا اتصال النفع والانتفاع. والإسلام في حقيقته الأصيلة لا يفرق بين علم الدين وعلم الدنيا، بل يجمع بينهما كما يجمع بين المطالب المادية والسبحات الروحية فهو دين اجتماعي ينظم سلوك الناس في الحياة ليحيوا حياتهم في حب الله عاملين مؤثرين في المجتمع في ظل طاعة الله).

وجاء في المذكرة الايضاحية ايضاً: (والأزهر إذ يعد علماء في الدين وفي لغة القرآن لم يتهيأ بعد لتأهيل العالم الديني المتخصص في عمل من أعمال الخبرة والانتاج التي تحتاج اليها نهضة المسلمين في كل البلاد. ومن ثم كان هناك نوع من الانعزال بينهم وبين المجتمع الذي

يعيشون فيه ونشأت مشكلة تعطل كثير من هؤلاء الخريجين زادتهم انعزالاً عن المجتمع).

لهذا ولغيره من مبررات التطوير كان لابد من تجديد الأزهر والاعتراف بمكانته وأثره مع الاحتفاظ بطابعه وخصائصه وصفته التي استحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا في شرق الأرض وغربها اكثر من ألف سنة.

الأسس والمبادئ التي قام عليها التطوير

ولعلاج مشاكل الأزهر من صميمها كان لابد من تقرير مبادئ لتكون أساساً لكل محاولة إصلاح وهذه المبادئ هي:

أولاً: أن يبقى الأزهر وأن يدعم ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة في الشرق والغرب.

ثانياً: أن يظل كما كان منذ اكثر من الف سنة حصناً للدين وللعروبة يرتقي به الاسلام ويتجدد ويتجلى في جوهره الأصيل ويتسع نطاق العلم به في كل مستوى وفي كل بيئة ويذاد عنه كل ما يشوبه.

ثالثاً: أن يخرج علماء قد حصلوا كل ما يمكن تحصيله من علوم الدين وتهيئوا بكل ما يمكن من أسباب العلم والخبرة للعمل والانتاج في كل مجال من مجالات العمل والإنتاج فلا تكون كل حرفتهم او كل بضاعتهم هي الدين.

رابعاً: أن تتحطم الحواجز والسدود بينه وبين الجامعات ومعاهد التعليم الأخرى وتزول الفوارق بين خريجه وسائر الخريجين في كل مستوى وتتكافأ فرصهم جميعاً في مجالات العلم ومجالات العمل.

ولعل من الخير أن نذكر هنا بعض المحاسن التي أحدثها قانون تطوير الأزهر، فقد تحققت آمال المسلمين، وخرج الأزهر من عزلته، وعادت اليه مكانته، وفتحت أمامه أبواب المستقبل الجديد .. ولا غرو فهذا أول قانون في تاريخ الأزهر يضع حجر الأساس لبناء المرحلة الابتدائية الازهرية التي تعتبر قاعدة التعليم التي يقوم عليها بناء المعاهد في المرحلة الاعدادية والثانوية .. كما أنه أول قانون يسند مهمة تحفيظ القرآن الكريم وتجويده للازهر بدءاً من الصف الأول في المرحلة الابتدائية وما بعدها. ويعدها من مسؤولياته الخطيرة بعد أن كانت مهمة تحفيظ القرآن الكريم لا تخضع لقانون ولا تسير وفق منهج محدد.

هذا وقد حرص القانون على تعليم الفتيات بدءاً من المرحلة الابتدائية وبذلك فتح

الأزهر صفحة جديدة وانشئت لأول مرة في تاريخ الأزهر للفتيات. وخطا الأزهر في سبيل انشائها خطوات موفقة. وكان الحدث الأكبر هو انشاء كلية البنات الاسلامية التي تطورت فأصبحت جامعة للبنات تتشعب فيها الدراسة الى شعب للدراسات الاسلامية والعربية والاجتماعية والمعاملات والإدارة والطب وغير ذلك.

كما حرص القانون على تعليم اللغات الحية بدءاً من المرحلة الابتدائية، وتذويب الحواجز بين التعليم الأزهري والتعليم العام نهائياً في كل المراحل.

وكانت الحسنة الكبرى بصدور هذا القانون - أن ظهرت جامعة الأزهر للنور، وعلى وجه الخصوص ظهرت الكليات العملية الجديدة بالأزهر بجانب الكليات النظرية التي كانت موجودة قبل صدور القانون وهي الشريعة وأصول الدين واللغة العربية.

وعلى وجه العموم فلسنا بصدد دراسة هذا القانون الصادر في عهد الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت غير انه ينبغي ان ننبه الى أنه من أعظم القوانين في تاريخ الأزهر، وأول خطوة رسمية في تمكين الجامع الأزهر من مسايرة التقدم العلمي والاجتماعي في العصر الحاضر وفي تزويد طلابه بما يجب أن يحيط به طالب الأزهر من علوم الحياة ومن حرية البحث وتنمية الملكات.

حياة الشيخ العلمية

لو استعرضنا في هذه الترجمة الموجزة النشاط العلمي للإمام الأكبر الشيخ شلتوت منذ كان مدرساً بمعهد الاسكندرية الديني لوجدنا أنه متعدد الجوانب.

فقد كان رحمه الله يقوم بالمواعظ الدينية في كل المناسبات. وكان للشيخ جمهور من المثقفين يتوافدون من كل مكان للاستماع الى محاضراته وخطبه في مسجد الأمير محمد علي متحدثاً عن وقائع الزمن، وداعياً الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة باسلوب شيق يأخذ بالألباب.

وأحاديثه التي كان يلقيها كل صباح في الإذاعة المصرية تعتبر قبساً من نور النبوة، وكان لها أكبر الآثار في نفوس الناس عامة حيث كانت الإذاعة تنقلها الى اقصى البلاد في مصر والعالم العربي.

وأما محاضراته الموسمية في تفسير القرآن الكريم بدار الحكمة ودور التعليم والجمعيات والهيئات فحدث عنها ولا حرج.

وبحوثه الاسلامية والاجتماعية كانت موضع حفاوة قراء الصحف والمجلات.

وعضويته للجان الفتوى بالأزهر، واللجنة العليا للعلاقات الثقافية بوزارة التربية والتعليم، والمجلس الأعلى للإذاعة، والمؤتمر الاسلامي ورئاسته لجنة العادات والتقاليد بوزارة الشؤون الاجتماعية، واللجنة العليا لمعونة الشتاء، ورئاسة مجمع البحوث الاسلامية.

ذلك كله يدين له بالعمل المخلص الذي جعله يؤدي دوره على الوجه الأكمل ولقد أثمرت حياته وازدهرت بالعلم والتأليف، فقدم للمكتبة الاسلامية أربعة عشر كتاباً ملأت فراغاً كبيرا كان الناس في مسيس الحاجة اليه وسنتحدث عن ذلك وعن تلك المؤلفات تحت عنوان (مؤلفاته)، فيما يلي:

وأما عن مؤلفاته القيمة التي كشف فيها عن أسرار الشريعة الإسلامية، وبين أنها العلاج الناجح لشاكل المجتمعات فهي:

١ـ فقه الكتاب والسنة والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات القاها على طلاب الليسانس بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول.

٢ـ كتاب مقارنة المذاهب في الفقه الاسلامي بالاشتراك مع فضيلة الشيخ محمد علي السايس الاستاذ بكلية الشريعة حينذاك ويدرس الآن بكلية الشريعة والقانون.

٣ـ كتاب (يسألون) الذي طبعته وزارة الارشاد سابقاً.

٤ـ كتاب منهج القرآن في بناء المجتمع، وقد طبعته وزارة الأوقاف ويقع في ٢٣٢ صفحة.

٥ـ المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الاسلامية وقد تحدثنا عنها سابقاً.

٦ـ القرآن والقتال.

٧ـ القرآن والمرأة ويقع في ١٠٨ صفحة.

٨ـ حكم الشريعة الاسلامية في تنظيم النسل.

٩ـ الإسلام والوجود الدولي للمسلمين.

١٠ـ الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب ويقع في ١٠٠ صفحة.

هذا وقد كان من حظ القراء أن كتب الشيخ شلتوت المذكورة وغيرها قد جمعت في مجلدات ثلاثة وهي:

١ـ الإسلام عقيدة وشريعة، ويقع في ٤٧٩ صفحة من الحجم الكبير، ونشر في أول طبعة له في ربيع الآخر سنة ١٣٧٩ هـ ـ اكتوبر سنة ١٩٥٩م، ليتحدث عن أصول الإسلام في العقيدة

والتشريع، فيتكلم عن ذات الله وصفاته، وعن القضاء والقدر وعالم الغيب والجبر والاختيار ثم عن طريق ثبوت العقيدة في كتاب الله، وعن السنة ومكانتها في الإسلام عقيدة وتشريعا، وعن الإجماع وثبوت العقيدة، وكلها فصول تمس الحاجة الى الإلمام بها في اسلوب شيق ومفيد.

وقد جاء الفقيه الكبير بالجديد حقا فيما أفاض فيه من حديث الأسرة زواجا وطلاقا ونسلا وميراثا، ومن حديث المال والحدود والقصاص، والمسؤولية الجنائية والمدنية ومن حديث أسس الدولة في الإسلام ومكانة الشورى وأولي الأمر، والتكافل الاجتماعي والعلاقات الدولية في الاسلام، والحرب والمعاهدات في الإسلام والوفاء بالمعاهدات.

ثم تكلم عن الأخلاق في الإسلام وصلاح الظاهر من صلاح الباطن.

ثم تكلم في القسم الثالث عن مصادر الشريعة، وعرض في الباب الأول: القرآن وفي الباب الثاني: السنة والباب الثالث: أسباب اختلاف الأئمة في فقه القرآن والسنة. والباب الرابع: الرأي والنظر.

٢ـ وللشيخ الكبير كتاب آخر تحت عنوان: (من توجيهات الاسلام) ويقع في ٥٣٦ صفحة من الحجم الكبير ونشر في اول طبعة له في جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ هـ ـ ديسمبر سنة ١٩٥٩م وطبع أكثر من عشر طبعات. وهذا الكتاب مكمل لكتاب الإسلام عقيدة وشريعة من ناحية إذ اشتمل على بعض ما لم يات به، وهو مفصل ما أجمل من ناحية ثانية، إذ عالج بعض ما عالج من بحوث سابقة رأى أن تكتب على نحو آخر من البسط والتذليل لتصل الى كل قارئ. وبالجملة بالكتاب تحدث عن الموضوعات الآتية: الناس والدين. في الحقل الاجتماعي. في شؤون المرأة. في التعبئة والجهاد. في الاخلاق. في رحاب رمضان ـ أحاديث الحج. في ظلال الذكريات الاسلامية ـ في الجماعة والحكم.

٣ـ أما الفتاوى[1]، دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية العامة فالحاجة اليها ضرورية وذلك لأنه إذا كانت الضرورة تدعو الى تنوير المسلمين في حياتهم اليومية عن طريق الفتاوى، فإن فتاوى الإمام الأكبر تتميز بطابع خاص هو الإحساس القوي بالحياة اليومية وبأحداثها، والعمق، في فهم الإسلام وتطبيق مبادئه، فالإمام الأكبر قد عاش في

١ـ هذا وقد كانت آخر طبعة للكتاب هي الطبعة السابعة عشر ـ بدار الشروق.

فتاواه بين المسلمين، وفي صلات المسلمين بغيرهم ومرت عليه التطورات العديدة والقوية في حياة الإنسان، وهو مقدر لهذه التطورات التي دفع اليها تقدم العلم، وكانت ثمرتها الحضارة الصناعية والمادية التي يتمتع بها الإنسان حيناً وتسد حاجته اليومية حيناً آخر، وقد يشقى بها حياته أحياناً، فهو لم يكن في عزلة عن الحياة الإنسانية المعاصرة، يوم حلل المشكل، ووضح عناصره، وآثاره على الفرد والجتمع ثم استوحى القرآن والحديث الصحيح بما أفتى به.

أما تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى فقد نشر في رجب ١٣٧٩ هـ - يناير ١٩٦٠م ويقع في ٦٨٠ صفحة من الحجم الكبير وطبع أكثر من عشر طبعات. بدار الشروق.

ويقول الدكتور محمد البهي المدير العام للثقافة الاسلامية بالأزهر في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب:

إن منهج هذا التفسير يتمثل فيما يلي:

أولاً: جعل السورة وحدة واحدة، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادئ إنسانية عامة.

ثانياً: عدم إقحام غير القرآن على القرآن من رأي خارج عنه، او مصطلح انتزع من مصدر آخر. فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضاً. كما أطلق الحرية للقرآن في أن يدلي بما يريد دون ان يُحمل على ما يراد.

ثالثاً: لم يكن له ان يدع القرآن ينطق بما يدل عليه، إلا بعد أن يزيل العقبات التي كانت تحول دون ذلك، فكان من منهجه التعقيب على آراء المسفرين السابقين.

ولأنه تفسير للمسلمين جميعاً آثر به فضيلة الأستاذ الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر - منذ أن توفر عليه في عام ١٩٤٩ - مجلة (رسالة الإسلام) التي تصدرها جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية بالقاهرة.

وقد آثر فضيلته هذه المجلة بهذا (التفسير) لأنه اقتنع، بعد أن كان من المؤسسين للجماعة بأنها اللسان الذي ينقل للمسلمين ما يريده الاسلام لهم في قرآنه الكريم، لا ما يريده مذهب معين ولا اتجاه فكري خاص.

ولذا فهو تفسير سيلقاه العالم الاسلامي جميعه بالترحيب، سنيه وشيعيه، وكل من آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

وكافينا الآن أنه (التفسير) الذي تخلص من تلك الحزبية السياسية والمذهبية،

والطائفية، وبذلك يفتح قلب المؤمن وعقله الى كتاب الله مباشرة، ويصل بين روح المسلم ومبادئ الرسالة الإسلامية الخالدة.

والواقع أن انتاج الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت لهذه المؤلفات المتعددة الجوانب، والتي كرس لها حياته العلمية في غضون خمسين عاماً تقريباً قد غطت حاجة العالم الاسلامي في عصره الحاضر، او على الأقل له ما تشتد حاجته اليه في صحوته الراهنة.

تقدير الدوائر الاسلامية والعالمية له

منح فضيلة الإمام الأكبر الدكتوراه الفخرية سنة ١٩٥٨م من جامعة شيلي ومنح وسام العرش من جلالة الملك محمد الخامس ملك المغرب سنة ١٩٦٠م، وقد دعته وزارة الشؤون الدينية في اندونيسيا لزيارة رسمية ومعه جماعة من العلماء وقررت جامعة جاكارتا منحه الدكتوراه الفخرية في العلوم الاجتماعية والشريعة الاسلامية.

ومن البلاد التي زارها الملايو، والفلبين، وهونغ كونغ، بقصد التعرف على أحوال المسلمين وجمع كلمتهم، وكان ممثلو الجيش والحكومة ورجال السلك السياسي يشاركون الشعب المسلم في استقباله.

وقد دعاه المسلمون في يوغسلافيا لزيارتهم هناك، ووعد بتلبية الدعوة عند أول فرصة تسمح له بها صحته.

وقد دعته جامعة القرويين لزيارتها في عيدها المئوي الحادي عشر وإلقاء كلمة هناك، وأناب عنه فضيلة وكيل الأزهر حينذاك.

هذا وقد استن فضيلة الإمام الأكبر سنة حسنة حيث قرر منح الممتازين والعاملين على خدمة الاسلام والمسلمين درجات الدكتوراه الفخرية من الأزهر فمنح درجة العالمية الفخرية من درجة أستاذ لثلاثة من كبار العرب والمسلمين منهم السيد الأستاذ ادهم خالد نائب رئيس مجلس الوزراء.

وفي سنة ١٩٦٠م منح الأزهر فخامة الرئيس احمد سوكارنو العالمية الفخرية من درجة أستاذ في حفل كبير ضم كبار المسلمين بقاعة الشيخ محمد عبده.

هذا وقد زار الإمام الأكبر في منزله بمصر الجديدة الرئيس العراقي عبدالسلام عارف سنة ١٩٦٣م.

وزاره بمنزله ايضاً إمبراطور الحبشة هيلاسلاسي سنة ١٩٦٢م.

كما زاره الرئيس مكاريوس رئيس قبرص في مكتبه بالازهر، والرئيس عبدالله السلال رئيس اليمن الشمالية سنة ١٩٦١م وغيره وغيره من الملوك والرؤساء.

الإمام الأكبر في ذمة الله

اختاره الله الى جواره ليلة الاسراء والمعراج من شهر رجب سنة ١٣٨٣ هـ - الموافق ١٣ ديسمبر ١٩٦٣م، ومن حسنات الختام أن قبضه الله اليه ساعة أن كان صوته يسمع الدنيا بفضل ليلة الإسراء والمعراج.

وعندما أعلنت جمهورية مصر وفاته أحدث منعاه اثرا اليماً في نفوس المسلمين، وفاضت الصحف في مراثيه وتقديره، لما له من آثار جليلة في خدمة الاسلام والمسلمين.

وإذا كان رحمه الله رحمة واسعة قد غاب عنا، وفارق دنيانا فإن أعماله الجليلة وكتبه المتعددة باقية تحمل مشعل التوجيه، وتوقد جذوة الإيمان، وتذكر به، والذكر للإنسان عمر ثان.

رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما جاهد، ورضى عنه وأرضاه.

الشيخ محمود شلتوت

أحد كبار علماء الأزهر الشريف

الدكتور محمد رأفت عثمان

عميد كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر بالقاهرة وعضو مجمع البحوث الإسلامية

الإمام الأكبر الشيخ محمود محمد شلتوت، شيخ الجامع الأزهر، هو أحد أعلام علماء مصر والعالم العربي والإسلامي، بزغ نجمه ولمع بوصفه أحد علماء الشريعة الموثوق بعلمهم، فتوجهت اليه الأنظار عارفة بعلمه وفضله وإمامته واجتهاداته ..

شغل نفسه بالعلم، فألف الكتب، وقام بتدريسه للطلاب الملتحقين بالأزهر الشريف، ورأى أن تعريف الناس بأمور دينهم لا يقتصر على التلقي عنه في دروسه بين طلابه، فاتخذ الإذاعة والصحافة من منابره التي ينشر من خلالها العلم على الناس، يوضح لهم أحكام شريعة الإسلام، بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، والأسلوب السهل، ولم يكن علمه وحده هو مزيته الشخصية، بل كان لصوته الجهوري رنة وسمة خاصة يعرف بها، زادته قبولاً ومحبة عند الجماهير التي تسمع أحاديثه الصباحية في الإذاعة المصرية ..

مولده ونشأته العلمية

ولد رحمه الله في ٢٣ من شهر ابريل سنة ١٨٩٣، وكان مولده بإحدى القرى التابعة لمحافظة البحيرة بمصر، هي قرية منية بني منصور، مركز ايتاي البارود ..

ورغبة من اهله في أن يتلقى العلم في الأزهر الشريف، كان لابد أن يهيأ للالتحاق بالأزهر الشريف بحفظ القرآن الكريم كله، لاشتراط الأزهر لقبول الطلاب في معاهده التابعة له أن يكونوا حافظين للكتاب الكريم، فانتظم عند شيخ يعلمه حفظ القرآن الكريم حتى أتم حفظ كتاب الله، ثم تقدم الى معهد الاسكندرية الديني فقبل به سنة ١٩٠٦.

واستمر في تلقي العلم عن اساتذته في الأزهر الشريف، حتى تخرج فيه بحصوله على شهادة العالمية النظامية سنة ١٩١٨ متفوقاً فقد كان أول الناجحين في هذه الشهادة.

قيامه بالتدريس

بعد أن تخرج الشيخ محمود شلتوت في الأزهر الشريف بحصوله على شهادة العالمية

النظامية تم تعيينه مدرساً بالمعهد الذي التحق به في أول حياته الدراسية، وهو معهد الاسكندرية الديني، وكان ذلك في عام ١٩١٩، وظل يقوم بالتدريس بهذا المعهد حتى سنة ١٩٢٧ حيث نقل الى القاهرة ليشغل وظيفة مدرس في القسم العالي لمادتي الفقه، وأصول الفقه، قبل أن يمضي على تخرجه وقت طويل، وكان هذا دليلاً على فضله وعلمه، لأن القيام بتدريس مادتي الفقه وأصول الفقه كان لا يسند إلا للمشايخ الذين بلغوا النهايات من أعمارهم الدراسية، فمع أن الشيخ محمود شلتوت كان في هذه الفترة الزمنية في سن الشباب، إذ كانت سنه حينئذ في أوائل الثلاثينيات، فإنه كان جديرا بالوظيفة التي اسندت إليه، فبهر بعلمه الغزير وفكره القوي تلاميذه، وحبهم في العلم، ورغبتهم في تحصيله.

مناداته بإصلاح الأزهر

كان الشيخ محمود شلتوت احد الأعلام في سلسلة الذين نادوا بإصلاح الأزهر وتطوير نظامه، فمن المعلوم أن الأزهر الشريف ليس هو الهيكل المادي المكون من الأحجار والأخشاب وغيرهما من مواد البناء الأخرى، وإنما هو العلم والثقافة والفكر، والتعرف على رياض الشريعة الغناء، في العقيدة والتفسير، والحديث والفقه، وأصول الفقه، والنحو والصرف، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، والمنطق والفلسفة، وسائر ما يموج به هذا المعهد العريق من علوم وفنون وآداب.

وإذا كان الأزهر مثابة للناس في بيان الأحكام وتدريس العلوم المختلفة فإنه بهذا الوصف يكون كائنا حيا قابلا للنمو والتطور والتغير. كما تتطور وتتغير سائر الأحياء، لأن طبائع الأشياء تقتضي التطور. وإذا لم يتصور الشيء بذاته احتاج الى التطوير الى الأفضل والأكمل، فمبدأ التغير قانون أزلي تخضع له الأشياء، فالصحاري تتطور، والمدن تتطور، والقرى والنجوع، والإنسان ذاته له في حياته أطوار، ولا يوجد موجود لا يجوز عليه التغير إلا الخالق الأعظم تبارك وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ..

ولهذا المعنى وجدنا الأزهر الشريف تعتريه رياح التغيير والتطوير في أدائه لمهمته العلمية الكبيرة، فلم يكن في عهد الأزهر الأول توجد امتحانات للطلاب، بل كانت الإجازة العلمية يعطيها الشيخ لتلميذه للدلالة على أنه فهم نصا معينا، وتؤهله هذه الاجازة للقيام

بالتدريس، وكان اول قانون نظم الدراسة في الأزهر هو القانون الذي أصدره الخديوي اسماعيل حاكم مصر سنة ١٢٨٨ هـ الموافق لسنة ١٨٧٢ من التاريخ الميلادي، وآخر قانون ينظم الأزهر والهيئات التي يشملها هو القانون رقم ١٠٣ الصادر في سنة ١٩٦١.

فصل الشيخ شلتوت من الازهر لمناداته بالاصلاح

كان الذين ينادون بالتغيير والتطوير للازهر الشريف يلاقون في بعض الأحيان معارضة شديدة من بعض الشيوخ في الأزهر الذين يتخوفون من التغيير والتطوير الى الأفضل في أداء الأزهر الشريف لمهامه العلمية ..

وممن نادوا بتطوير الأزهر الشيخ محمود شلتوت، ولكن آراءه الإصلاحية للازهر لقيت معارضة شديدة من المشرفين على سياسة الأزهر. انتهت بصدور قرار بفصله من العمل بالأزهر في ١٧ من شهر سبتمبر سنة ١٩٣١ هو وبعض من زملائه من شيوخ الأزهر، الذين يؤيدون فكرته الإصلاحية، وكان قرار فصله من الشيخ الظواهري، شيخ الأزهر في هذا الوقت ..

ومع هذا ظل الشيخ يتابع نقده لسياسة الأزهر، واستمر يعمل على شيوع أفكاره الإصلاحية، ينشرها في الصحف اليومية والمجلات، وعمل في فترة فصله بالمحاماة، واشتغل بالبحوث العلمية، وفي سنة ١٩٣٥ أعيد للازهر. وعين مفتشاً بالمعاهد الأزهرية، ثم وكيلاً لكلية الشريعة الإسلامية، ثم عضوا بالمجمع اللغوي ..

الشيخ يمثل الأزهر في مؤتمر لاهاي الدولي سنة ١٩٣٧

في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٥٦ هـ / اغسطس ١٩٣٧م انعقد بمدينة لاهاي بهولندا مؤتمر القانون المقارن في دورته الثانية ووجهت الدعوة الى الأزهر الشريف، ليختار من يمثله في هذا المؤتمر الدولي، فكان اختيار شيخ الأزهر في هذا الوقت وهو الشيخ المراغي لشيخين من خيرة علمائه، هما:

١- الشيخ محمود شلتوت.

٢- الشيخ عبدالرحمن حسن عبدالمنعم ..

وقدم الشيخ محمود شلتوت الى المؤتمر بحثاً في بيان المسؤولية الجنائية والمسؤولية المدنية في نظر الإسلام، وقدم الشيخ عبدالرحمن حسن عبدالمنعم بحثا في علاقة القانون الروماني بالشريعة الإسلامية، والرد على بعض المستشرقين في دعواهم أن الشريعة الإسلامية متأثرة بالقانون الروماني.

وقد بذل وفد الأزهر الشريف الجهد العلمي، الذي أدى الى أن يقرر المؤتمر بالإجماع ما يلي:

أولاً: اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام والقانون المقارن.

ثانياً: اعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور.

ثالثاً: اعتبار الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها، ليست مأخوذة من غيرها.

رابعاً: تسجيل البحث الذي تقدم به الشيخ محمود شلتوت، وهو بيان المسؤولية الجنائية والمسؤولية المدنية في نظر الإسلام في سجل المؤتمر باللغة العربية، واعتباره بين المجموعة العلمية التي تدخر للرجوع اليها.

خامساً: استعمال اللغة العربية في المؤتمر، والتوصية بالاستمرار في ذلك في الدورات المقبلة.[١]

تدرج الشيخ شلتوت في الوظائف وعضويته في الهيئات العلمية

في سنة ١٩٤١م تم اختيار الشيخ محمود شلتوت عضوا بهيئة كبار العلماء. وهي التي تحول اسمها في القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م الى مجمع البحوث الإسلامية، ثم في سنة ١٩٤٦ اختير عضوا في المجمع اللغوي بالقاهرة، وفي سنة ١٩٥٠ عين مراقباً عاماً للبحوث والثقافة الإسلامية بالقاهرة، ثم تولى وكالة الأزهر الشريف في سنة ١٩٥٧م، وفي ١٣ من شهر اكتوبر سنة ١٩٥٨ صدر القرار الجمهوري بتعيين الشيخ محمود شلتوت شيخاً للجامع الأزهر، وظل في هذا المنصب الجليل الى أن توفاه الله عز وجل في ليلة الإسراء والمعراج من شهر رجب سنة ١٣٨٣

١ـ تاريخ الفقه الإسلامي، بمراجعة وتصحيح وتهذيب الشيخ محمد علي السايس ص ١٤١، مطبعة وادي الملوك بمصر. والمنتقى في تاريخ التشريع الإسلامي للدكتور محمد انيس عبادة ص ١٧٦، مطبعة دار التأليف بمصر. والمدخل للفقه الإسلامي للدكتور حسن علي الشاذلي ص ٣٤٨، دار الإتحاد العربي بمصر.

هـ الموافق ١٣ من ديسمبر ١٩٦٣م.

وبوفاته ختمت حياة حافلة لعالم من أكبر علماء الأزهر الشريف، من أعظمهم شهرة ومن أكثرهم نشاطاً في الدعوة الى الله، ونشر الثقافة الاسلامية، المبرأة من التعصب المقوت، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير الجزاء على ما قدم لأمته الإسلامية من العلم النافع.

مؤلفات الشيخ شلتوت

تنوعت نواحي التأليف عند عالمنا الكبير، وتعددت حتى بلغت ٢٦ مؤلفاً مطبوعاً، منها ما ألفه في علم التفسير وله في هذا عدة أجزاء في مجلد، لكنه لم يتم، وله بحث في حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي، ورسالة في القرآن والمرأة، وبحث في القرآن والقتال، وبحوث أخرى بعناوين: هذا هو الإسلام، وعنصر الخلود في الإسلام، والإسلام والتكافل الاجتماعي، وفقه السنة، وفصول شرعية اجتماعية، وله محاضرة في حكم الشريعة الإسلامية في تنظيم النسل، ورسالة في الدعوة المحمدية، وفقه القرآن والسنة الجزء الأول، وتوجيهات الإسلام، والإسلام والوجود الدولي، ومقارنة المذاهب في الفقه بالاشتراك مع الشيخ محمد علي السايس، وله كتاب الفتاوى، وكتاب الإسلام عقيدة وشريعة.[1]

الشيخ شلتوت فقيهاً

على الرغم من أن الشيخ محمود شلتوت تعددت مواهبه العلمية في مجالات مختلفة، فنراه مفسرا للقرآن الكريم، ومشتغلاً باللغة العربية حتى اختير عضوا في المجمع اللغوي بالقاهرة، ونراه كذلك ناشرا للثقافة الاسلامية عن طريق الصحف والإذاعة، وداعياً الى الاصلاح، فإننا مع ذلك نجد أنه غلبت عليه صفة الفقيه، ولعل ذلك يرجع الى نشاطه العلمي الذي قام به بعدما نقل من معهد الإسكندرية الديني الى القسم العالي بالقاهرة، وتمثل هذا النشاط العلمي في قيامه بالتدريس لمادتي: الفقه والأصول، وقيامه أيضاً بالتأليف في مجال المسائل الخلافية ومقارنة المذاهب الفقهية الإسلامية، وتصدى للفتوى في المسائل التي ترد اليه

---

١ ـ بعض هذه الكتب والبحوث أشارت اليها الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص ١٠٩١، وضع لجنة برئاسة محمد شفيق غبريال. دار نهضة لبنان للطبع والنشر. بيروت ١٩٨١.

من المستفتين، وهي في كثير من نواحيها مسائل فقهية، في أبواب الطهارة، والعبادات، والمعاملات، وفقه الأسرة، وغير هذا من قضايا تحدث للناس في حياتهم اليومية الخاصة والعامة، وليست قضايا عقائدية إلا في حالات قليلة بالنسبة الى مسائل الفقه وقضاياه الكثيرة.

الشيخ محمود شلتوت مجتهد فتوى

تحتاج الأمة الإسلامية في كل عصر الى من يبين للناس أحكام الدين في معاملاتهم وصلاتهم بعضهم ببعض، وصلاتهم جميعاً بالخالق تبارك وتعالى، ومن المعلوم أن التصرفات تتجدد والأحداث تختلف من عصر الى عصر، ويحدث للناس والمجتمعات قضايا مختلفة باختلاف البيئات والأعراف والثقافات، فكان من اللازم وجود المجتهدين في كل عصر ليساعدوا الناس على التعرف على أحكام دينهم، ولهذا وجدنا علماءنا القدامى يبينون أن الاجتهاد فرض في كل العصور، ومؤلف جلال الدين السيوطي كتاباً بعنوان (الرد على من أخلد الى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض) وكان الشيخ محمود شلتوت أحد العلماء الذين دخلوا من باب الاجتهاد، وثقف نفسه ثقافة علمية دينية عالية المقدار، مما مكنه من أن يفتي الناس في أمور دينهم ..

ولعلي لا أكون مبالغا اذا قلت إن الشيخ محمود شلتوت وصل بعلمه وفكره الى درجة علمية كبيرة تؤهله لأن يحوز مرتبة مجتهد الفتوى. واجتهاد الفتوى هو أحد أنواع الاجتهاد الثلاثة، فمن المعلوم أن الاجتهاد هو بذل الفقيه وسعه في استنباط الأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

ومعنى بذل الوسع أن يحس الفقيه من نفسه العجز عن المزيد على ما بذله من جهد علمي في فهم ما تفيده الأدلة الشرعية.[1]

والتقليد يضاد الاجتهاد، وقد عرف العلماء التقليد بعبارات مختلفة فهو عند البعض: قبول رأي الغير بلا دليل ولا حجة، وعرفه الجرجاني بأنه عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما

---

١ - حاشية الصاوي على الشرح الصغير لأحمد الدردير، ج٤، ص١٨٨، وأصول الفقه الاسلامي للاستاذ.

يقول او يفعل معتقدا الأحقية فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، وقال الجرجاني: إن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه.

ويرى بعض العلماء أن أخذ القول من الغير مع معرفة دليله يمكن ان يسمى تقييدا، ويكون هذا واسطة بين التقليد والاجتهاد، وعلل هذا الرأي بأنه لا ينطبق عليه تعريف الاجتهاد ولا تعريف التقليد.[1]

والأنواع الثلاثة التي يتنوع إليها الاجتهاد هي:

النوع الأول: الاجتهاد المطلق، أي الاجتهاد المستقل، وهو أن تتوافر في الشخص القدرة على استنباط الحكم في جميع أبواب الشرع بقواعده التي أصلها لمذهبه لا بقواعد غيره، بأن كان يستطيع ان يفتي في كل ابواب الفقه من طهارة، وعبادات، ومعاملات، ومسائل الأسرة، والعقوبات من قصاص وحدود وتعزيرات، وسائر أبواب الفقه بالقواعد التي وضعها في استنباط الأحكام. والأمة الإسلامية ثرية بمن حازوا درجة الاجتهاد المطلق، ككثير من علماء الصحابة رضي الله عنهم، وأئمة المذاهب الفقهية المشتهرة ..

النوع الثاني: اجتهاد المذهب. وهو أن يكون له القدرة العلمية على معرفة الأحكام في الوقائع التي لم يرد فيها نص عن الإمام الذي يلتزم مذهبه. بطريق التخريج على نصوص هذا الإمام او القواعد المنقولة عنه، فاجتهاده لا يخرج عن دائرة إمام مذهبه، ومجتهد المذهب كابن القاسم وابن وهب، وأشهب من علماء الفقه المالكي. والكمال بن الهمام في الفقه الحنفي، والغزالي والنووي في الفقه الشافعي.

النوع الثالث: اجتهاد الفتوى، وهو أن يكون له القدرة العلمية على ترجيح قول الإمام من أئمة الفقه الإسلامي على قول إمام آخر، أو قول عالم من العلماء من على قول عالم آخر. ومجتهد للفتوى ككبار المؤلفين من أهل المذاهب الفقهية الإسلامية.[2]

والشيخ محمود شلتوت لم يكن له ـ فيما أعلم ـ قواعده وأصوله التي استقل بها عما أصله وقعده أئمة الفقه الإسلامي في استنباط الأحكام الفقهية، وإنما كان بسعة اطلاعه، وفكره

---

١ ـ شرح كتاب النيل وشفاء العليل، لمحمد بن يوسف اطفيش، ج١٧، ص ٤٧٤، ٤٧٥.

٢ ـ رد المختار على الدرر المختار (حاشية ابن عابدين، ج٥، ص ٣٦٥).

المستنير. ينظر في المسألة ويطلع على آراء الفقهاء فيها، ثم يفتي بالرأي الذي يطمئن اليه، وقد يستعين في ذلك بقواعد وأصول غيره من العلماء او بتعليلهم لرأيهم، غير متعصب لمذهب معين او لشخصية عالم بذاته، سواء أكان من أصحاب المذاهب الفقهية المشتهرة ام من غيرهم، وفيما أعلم لم يدع الشيخ محمود شلتوت أنه مجتهد اجتهادا مطلقاً، ولا أظن أنه وجد في العصر الحديث الذي نعيش فيه، من بلغ هذه المرتبة العلمية العالية، وهي مرتبة الاجتهاد المطلق التي بلغها أئمة المذاهب الفقهية المشتهرون..

وأيضا لم يكن الشيخ مجتهد مذهب لأنه لم يحصر نفسه في بحثه عن الحكم في القضايا التي يتعرض لبيان الحكم الفقهي فيها في اتباع أصول إمام بعينه لا يتعداها عند إبداء الرأي كما هو الشأن في مجتهد المذهب، ولا ألزم نفسه بتخريج القضية الجديدة على قضية قديمة قال فيها إمام من أئمة الفقه يلتزم مذهبه برأي.

فالشيخ محمود شلتوت لم يكن – إذن – مجتهدا اجتهادا مطلقا، ولا مجتهدا اجتهاد مذهب، ولكنه وصل بعلمه إلى درجة مجتهد الفتوى.

بعض ملامح آرائه في الفقه الإسلامية

الشيخ شلتوت بثقافته الواسعة، واشتغاله بدراسة وتدريس الفقه الإسلامي وأصوله، وتوافر الأسس العلمية فيه التي تؤهل الشخص ليقوم بالتعرف على الأحكام الشرعية من مصادرها المعتبرة ، كل ذلك أهله ليكون صاحب فكر مستقل منطلق من قيد التبعية لمذهب معين ونرى بعضاً من ملامح آرائه في الفقه الإسلامي فيما يلي:

أولاً: يحارب الخرافات والأوهام التي شاعت بين الناس، ويبدي رأيه فيها معتمدا على الأدلة الشرعية، حتى لو كان رأيه الذي يبديه مخالفاً لما يقوله الفقهاء القدامي، ولهذا وجدناه ـ مثلاً ـ في مسألة زواج الانسي بالجنية او بالعكس، يلتمس العذر لبعض فقهائنا القدامى في تصورهم وقوع مثل هذا بناء على ما شاع بين عوام الناس من حدوث هذا الزواج الغريب، وبين الشيخ أن الزواج بالجان وهم من الأوهام التي استقرت عند كثير من الناس، وأن بعض الفقهاء جاراهم وبينوا حكم ذلك، جرياً على طريقتهم في افتراض الحوادث.

قال الشيخ [١]: «صدق كثير من الناس ماشاع من ذلك من الجن (يقصد الزواج بالجن ودخولهم في جسم الإنسان ونحو ذلك) وتناقلوا فيه الحكايات التي ربما رفعوها إلى السلف الصالح ، واستمروا على ذلك، حتى جاراهم الفقهاء ، وفرضوا صحته، واتخذوا من هذا الفرض مادة جعلوا منها حقلا للتدريب على تطبيق كثير من الأحكام الشرعية عليهم ، وكان منهم من تحدثوا عن صحة التزواج بهم، وعن وجوب الغسل على الإنسية إذا خالطها جنى، وعن انعقاد الجماعة بهم في الصلاة، وعن مرورهم بين يدي المصلى، وعن روايتهم عن الإنسي، ورواية الإنس عنهم، وعن حكم استنجاء الإنس بزادهم وهو «العظم» وعن حكم الأكل من ذبائحهم ، إلى غير ذلك مما نراه منشورا في كتب الفقه، أو نجده في كتب خاصة ذات عناوين خاصة بالجن».

ثم قال الشيخ: «وإني أعتقد أن ذلك من فقهائنا لم يكن إلا مجرد تمرين فقهي، جرياً على سنتهم في افتراض الحالات والوقائع التي لا يرتقب وقوعها أو التي لا يمكن أن تقع، وإذن ففروض الفقهاء التي لم يقصدوا بها إلا مجرد التدريب الفقهي، لا تصلح أن تكون دليلا أو شبه دليل على الوقوع والتحقق، فلنتركهم على سنتهم يفترضون ومردنا في ذلك إلى القرآن الكريم».

وبين الشيخ أن القرآن الكريم ينفى هذا واستشهد بالآية الكريمة التي تبين امتنان الله تعالى علينا بأن خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها، قال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ووضح أن الجن لا يعلمون الغيب ولا يقدرون على الايذاء الاتصالي بالإنس أو التلبس ، ثم قال: «ومع هذا كله قد تغلب الوهم على الناس، ودرج المشعوذون في كل العصور على التلبيس، وعلى غرس هذه الأوهام في نفوس الناس، استغلوا بها ضعاف العقول والايمان ، ووضعوا في نفوسهم أن الجن يلبس جسم الإنسان، وأن لهم قدرة على استخراجه، ومن ذلك كانت بدعة الزار، وكانت حفلاته الساخرة المزرية، ووضعوا في نفوسهم أن لهم القدرة على استخدام الجن، في الحب والبغض، والزواج والطلاق وجلب الخير ودفع الشر وبذلك كانت «التحويطة والمندل وخاتم سليمان»،

---

١ ـ الفتاوى للشيخ شلتوت ، ص ٢٥ دار الشروق بمصر.

استخدموهم في إظهار الغيب، من مسروق ضائع أو مستقبل مخبوء. واستخدموهم في العلاج، استغلوهم في كل شيء. وصارت لديهم مهنة منها يتعيشون، وللمال يجمعون، وبالعقول يعبثون».

ثم يقول: «وقد ساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بالعلم والدين ، وأيدوهم بحكايات وقصص موضوعة أفسدوا بها حياة الناس، وصرفوهم عن السنن الطبيعية في العلم والعمل. وعن الجد النافع المفيد وجدير بالناس أن يشتغلوا بما يعنيهم، وبما ينفعهم في دينهم، ودنياهم ، جدير بهم أن لا يجعلوا لدجل المشعوذين سبيلا إلى قلوبهم، فليحاربوهم وليطاردوهم، حتى يطهر المجتمع منهم وليعرفوا ما أوجب الله عليهم معرفته، مما يفتح لهم أبواب الخير والسعادة».

ثانيا : لا يهاب الغير في إبداء الرأي

كان الشيخ شلتوت شجاعا في إبداء مايراه صوابا وإن خالف الكثيرين، وهذا هو أحد أخلاق العلماء الملتزمين بأوامر الشرع وأحكامه. ويظهر ذلك في رأيه الفقهي الذي أبداه في حكم الأرباح التي تدفعها مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة في صندوق التوفير.

فبين الشيخ محمود شلتوت أن بعض علماء الحلال والحرام يرى أن الربح الذي تدفعه مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة في صندوق التوفير حرام، لأنه إما فائدة ربوية للمال المودع، أو منفعة جرها قرض. وكلا الأمرين حرام في نظر الشريعة، وعلى هذا يجب رده، ويحرم أخذه والانتفاع به.

يبين الشيخ شلتوت هذا الرأي ثم يقول: «والذي نراه – تطبيقا – للأحكام الشرعية والقواعد الفقهية السليمة – أنه حلال ولا حرمة فيه».

وعلل هذا الرأي – وإن خالفه في هذا كثيرون – بقوله: «ذلك أن المال المودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير، ولم يقترضه صندوق التوفير منه، وإنما تقدم به صاحبه إلى مصلحة البريد من تلقاء نفسه طائعا مختارا، ملتمسا قبول المصلحة إياه، وهو يعرف أن

المصلحة تستغل الأموال المودعة لديها في مواد تجارية[١]، ويندر فيها - إن لم يعدم - الكساد او الخسران».

وقد قصد بهذا الإيداع: أولا: حفظ ماله من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد وقصد ثانيا: إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها، ليتسع نطاق معاملاتها، وتكثر أرباحها فينتفع العمال والموظفون، وتنتفع الحكومة بفائض الأرباح».

«ولاشك أن هذين الأمرين: تعويد النفس على الاقتصاد، ومساعدة المصلحة الحكومية غرضان شريفان، كلاهما خير وبركة ويستحق صاحبهما التشجيع، فإذا ماعينت المصلحة لهذا التشجيع قدرا من أرباحها منسوبا إلى المال المودع أي نسبة تريد، وتقدمت إلى صاحب المال، كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاوني عام، يشمل خيرهما صاحب المال والمال، والحكومة، وليس فيها مع هذا النفع العام أدنى شائبة لظلم أحد، أو استغلال لحاجة أحد» ولا يتوقف حل هذه المعاملة على أن تندمج في نوع من أنواع الشركات التي عرفها الفقهاء، وتحدثوا عنها وعن أحكامها».

ثم قال الشيخ: «ومن هنا تبين أن الربح المذكور ليس فائدة لدين حتى يكون ربا، ولا منفعة جرها قرض حتى يكون حراما على النهى عنه،[٢]. وإنما هو كما قلنا تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع»[٣].

ثالثا: إعمال فكره فيما يحل إحدى المشكلات وفق قواعد الفقه الإسلامي

ويظهر هذا في رأيه في تكدس لحوم الذبائح بمنى، فيبين رأيه بقوله: «إن هذه المشكلة ليست ناشئة عن أصل التشريع الذي هو خير كله، وإنما نشأت عن عدم التنظيم، وعدم الإلمام بأحكام الشرع، فإن الشرع لم يطلب من كل حاج أن يذبح، فالذي نوى الحج واستمر على إحرامه حتى أكمل حجه لايجب عليه ذبح، ولم يوجب أن يكون الذبح - فيما يطلب فيه الذبح - في خصوص منى ولا مجزرتها، ولا في اليوم الأول من أيام النحر، وأيام النحر كلها

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ يشير الشيخ الى ان حديث كل قرض جر نفعا فيه ربا ـ لم يسلم به بعض العلماء ووصفوه بالضعف.

٣ ـ المرجع السابق.

زمن للذبح ، والحرم كله مكان للذبح، والذبح لم يطلب عينا إلا في حالات مخصوصة، وما عداها فالحاج مخير بينه وبين غيره من صدقة أو صيام».

«فلو عرف الحاج أحكام الله على هذا الوجه - فيما يختص بالدماء - فتصدق من لم يطلب منه الذبح، وذبح من طلب منه الذبح، وفرقوا الذبح على الأماكن والأيام، ثم تخيروا الذبيحة من غير العجاف والمرضى، وهيئوها بالسلخ والتقطيع لما كان لهذه الشكوى موضع» .

ثم قال الشيخ في نهاية كلامه في هذه المسألة: «إنه على فرض تكدس اللحوم كما يقولون، بعد مراعاة الأحكام الشرعية في زمان الذبح ومكانه ، وطلبه وعدم طلبه، يجب على المسلمين -- وفيهم والحمد الله موسرون كثيرون - أن يعملوا على استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظ هذه اللحوم وادخارها طيبة، ثم توزيعها على الفقراء والمتحاجين في جميع الأقطار الإسلامية إن ضاق بها القطر الحجازي أو بيعها بأثمان تصرف فيما ينفع الفقراء والمساكين، أو في سبيل الله العامة»[١] .

رابعا : عدم التعصب في ابداء الرأي لمذهب معين

وهو منهج عند الشيخ يصرح به في كتابه «الفتاوى» في كلمته التي قدم بها كتابه إلى القراء، ومنها يقول: «وهذه مجموعة من الفتاوى والأحكام أجبت بها على أسئلة السائلين في موضوعات مختلفة، بعضها نشرته الصحف والمجلات للقارئين، وبعضها أذاعته الإذاعة على المستعمين لم ألتزم فيها مذهبا خاصا، ولم أتقيد برأي فقيه معين إلا بالكتاب العزيز، والسنة الصحيحة، وقواعد الإسلام العامة الخالدة»[٢] .

وهذا المنهج الذي بينه الشيخ شلتوت يظهر في أن ترجيحاته في القضايا التي أبدى الرأي فيها لم تكن محصورة في مذهب معين من المذاهب الفقهية، فنراه في مسألة مسح الرأس في الوضوء يرجع القول بأن المسح يجزئ بأي جزء من الرأس قل أم كثر مادام في دائرة ما

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ الفتاوى للشيخ شلتوت ، ص ١٥.

يصدق عليه اسم المسح[١].

وهذا الرأي الذي رجحه الشيخ هو ما يراه الإمام الشافعي رضي الله عنه[٢].

وفي مسألة الدلك عند غسل أعضاء الوضوء يرجح المالكية الذين يرون أنه من فروض الوضوء[٣].

وفي مسألة عقد الزواج بعبارة النساء نجد الشيخ يرجح ما يراه الحنفية من صحة عقد الزواج بعبارة المرأة[٤].

وفي مسألة إعسار الزوجة بالنفقة ولم ترض الزوجة بالمقام معه من أجل ذلك نجده يرجح ما يراه ابن قيم الجوزيه أحد كبار فقهاء الحنابلة المشتهرين، وهو أنه إذا كانت قد تزوجته وهي عالمة بإعساره، أو كان حال الزوج موسرا ثم أعسر لا يملك طلب الفرقة في الحالتين، أما إذا كان قد غرها عند الزواج بأنه موسر، ثم تبين لها إعساره فإنه يكون لها حق الفسخ[٥].

وهكذا نجده لا يتعصب لمذهب معين من المذاهب الفقهية، ووجدناه كذلك عند حكايته للآراء الفقهية يذكر آراء فقهاء المسلمين،سواء أكانوا من أهل السنة أم من غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، ففي مسألة الطلاق في الحيض، أو في طهر مسها فيه، يذكر رأي الشيعة الإمامية، والمعتزلة مع رأي غيرهم من فقهاء أهل السنة، فيبين أن الائمة الأربعة المشتهرين وجمهور الفقهاء يرون وقوع الطلاق إذا حدث في الحيض او في طهر مسها فيه، وأن هناك رأي آخر يقول بعدم وقوعه، وذكر أن من القائلين بهذا الرأي الباقر والصادق من أئمة الشيعة الإمامية، وابن عليه من فقهاء فرقة المعتزلة[٦].

---

١ ـ مقارنة المذاهب في الفقه للشيخين محمود شلتوت ومحمد علي السايس ص ١١ وسنعتبر الآراء في هذا الكتاب منسوبة إلى الشيخين، لأنه لم يبين في الكتاب البحوث التي كتبها كل منهما منفردا.

٢ ـ المجموع للنووي، ج ١، ص ٤٣١.

٣ ـ مقارنة المذاهب في الفقه، ص ١٩.

٤ ـ مقارنة المذاهب في الفقه، ص ١٩.

٥ ـ مقارنة المذاهب في الفقه ص، ٩٠، ٩١.

٦ ـ المصدر السابق، ص ٧٦.

وكذلك عند ذكر آراء العلماء في ايقاع الطلاق ثلاثا بكلمة واحدة في وقت واحد يذكر أن من القائلين بأنه يقع طلقة واحدة رجعية فقهاء الشيعة الزيدية، وأن بعض الأمامية يرى أنه لا يقع به شيء[١].

من أفكاره في التفسير

أولا: اهتم الشيخ شلتوت ببيان التحريف الذي يحدث من البعض في فهم القرآن، فنراه يبين أن بعض الناظرين في القرآن يروج لحصول التشاؤم، ويحرف معنى بعض الآيات القرآنية، ليدلل على مايروج له.

يقول الشيخ: «وقد تعلق بعض الناظرين في القرآن المروجين لسنة التشاؤم الفاسدة، بقوله تعالى في وصف العذاب الذي نزل بقوم عاد «إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر»[٢]. «فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات»[٣]. «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما»[٤] وقالوا إن القرآن يرشد بهذه الآيات الى أن الأيام نحسا وسعودا، وأيدوا بهذه الآيات ما نسبت روايته عن النبي (صلى الله عليه وسلم) لابن عباس (رضي الله عنه): «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر».

ثم قال الشيخ محمود شلتوت: «وقد عرض الألوسي في تفسيره للروايات التي افتعلت ترويجا للتشاؤم بالأيام وللتفاؤل بها، ويعجبني قوله في هذا المقام: ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع كلها، فقد قال سبحانه: سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما» فإن كانت نحوسه الأيام لذلك فقل لي: أي يوم من الأسبوع حلا منها؟

قال الشيخ: «والحق – كما قال – إن كل الايام سواء ولا اختصاص ليوم بنحوسة ولا لآخر بسعد، وإنه مامن ساعة من الساعات إلا وهي سعد على شخص، ونحس على آخر، باعتبار ما يقع فيها من الخير على هذا، ومن الشر على ذاك فإن استنحس يوم من الأيام

---

١ ـ مقارنة المذاهب في الفقه ـ ص ٧٦.

٢ ـ الآية ١٩ من سورة القمر.

٣ ـ الآية ١٦ من سورة فصلت.

٤ ـ الآية ٦-٧ من سورة الحاقة.

لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم لما يقع في الأيام كلها من أحداث ، وما أولج الليل في النهار، والنهار في الليل إلا لايلاد الحوادث، ولا تأثير لما يقع فيها من أحداث، ولا شأن للوقت أو المكان أو الأشياء في نحوسة أوسعود.

«نعم لبعض الأوقات شرف ترجع إليه في نظر الشرع مضاعفة الجزاء لعاملي الخير أو الشر، ولكن شرف الأوقات الذي يضاعف به جزاء العاملين شيء، ونحوستها وسعودها باعتبار ذاتها، وعلى وجه يعم الناس جميعا، شيء آخر. لا يعرفه الإسلام، ولا يبيح لأحد أن ينسبه إليه»[١].

ثانيا : يرى أنه لا حرمة في البحث عن حقيقة الروح

يبين الشيخ أن الروح لاتزال حقيقتها من الأمور الغيبية التي لم يتوصل الإنسان إلى معرفتها إلا أن هذا ليس مانعا من البحث عن حقيقتها، فلم يقم دليل على تحريم البحث بشأنها، يقول الشيخ: «فلا تزال حقيقتها من الغيب الذي لم يكشفه الله للإنسان، وهي في ذلك ككثير مما ينتفع به الإنسان بآثاره دون أن يعرف كهنه، وباب البحث عن حقيقتها مفتوح لم يمنع منه نص ديني، ولا حجة للقائلين بحرمة البحث عنها في قوله تعالى: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي»[٢].

فقد رجح بعض العلماء أن المراد منها في الآية القرآن نفسه، وقد سماه الله روحا «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا»[٣] وسابق الآية ولاحقها يرشد إلى صحة هذا الرأي.

وإذن فلا يتعين أن يكون المسؤول عنه هو روح الحياة، على أنه لو كان هو روح الحياة فليس في الآية أكثر من أنها من أمر الله، وهو لا يمنع البحث عن حقيقتها»[٤].

ثالثا: يرى الشيخ شلتوت أن معنى القدر الذي جاء في القرآن ليس معناه كما يفهم كثير

---

١ ـ الفتاوى للشيخ محمود شلتوت. ص ٣٤، ٣٥.

٢ ـ الأية ٨٥ من سورة الأسراء.

٣ ـ الاية ٥٢ من سورة الشورى.

٤ ـ الفتاوى. للشيخ شلتوت. ص ١٩، ٢٠.

من الناس.

فيبين الشيخ محمود شلتوت أن كثيرا من الناس يفهمون كلمة «القدر» التي وردت في القرآن الكريم على معنى أن الانسان لا اختيار له في أفعاله والصحيح غير ذلك، يقول الشيخ[١]: «القدر الذي جاء في القرآن الكريم مضافا إلى الله مثل قول: «إنا كل شيء خلقناه بقدر»[٢]. وقوله تعالى: «وما ننزله إلا بقدر معلوم»[٣] وقوله تعالى: «والذي قدر فهدى»[٤] وغير ذلك، يرجع معناه إلى أن الله خلق هذا الكون على سنن مضبوطة، ومقادير معينة، ولم يكن صادرا عن طريق الصدفة التي لا تعتمد على نواميس يجرى عليها ، ويسير على مقتضاها ، ويؤدي بها مهمته، ولا توجد في القرآن كلمة «قدر» بالمعنى الذي يفهمه كثير من الناس، والذي يرجع إلى أن الانسان مجبور في أفعاله بحيث يكون مقهورا عليها.

والقدر بالنسبة للإنسان معناه أنه خلقه بإرادة وحرية واختيار فيما كلفه به من أعمال الخير، والبعد عن أعمال الشر، وكل نصوص القرآن تدل على ذلك دلالة واضحة، واختيار الإنسان أساس لتكليفة ومحاسبته. ومحال أنه يكون مجبورا على فعله ثم يكلف ويثاب أو يعاقب على مالايستطيع صرف نفسه عنه وعلم الله بما سيكون من الإنسان باختباره وإرادته يحقق معنى الاختيار وينفي القهر والجبر. وصفة العلم صفة كشف وليست صفة تأثير».

رابعا: يرى وجوب تنقية التفسير من الإسرائيليات وذكر مثالا للإسرائيليات ماقيل عند تفسير قوله تبارك وتعالى: «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم»[٥] قال الشيخ: «ومن أغرب ما قيل في حقيقتها أنها إنسان وأنه علي – رضي الله عنه – وقيل إنها ولد ناقة صالح فر هاربا حينما عقر القوم أمه. وانفتحت له في طريقه صخرة فدخلها ثم

---

١ ـ الفتاوى، ص ٤٧.

٢ ـ الآية ٤٩ من سورة القمر.

٣ ـ الاية ٢١ من سورة الحجر.

٤ ـ الاية ٣ من سورة الاعلى.

٥ ـ الآية ٨٢ من سورة النمل.

انطبقت عليه، فهو في باطنها إلى أن يخرج قرب يوم القيامة وقيل إنها دابة قديمة خلقت في عهد الأنبياء المتقدمين، وأن موسى سأل ربه أن يريه إياها ، فأخرجها ثلاثة أيام ولياليها، تذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها، فرأى عليه السلام منظرا فظيعا، فقال: يارب ردها، فردها، أو أنها هي الثعبان الذي كان في جوف الكعبة، واختطفته العقارب حينما أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم، فألقته العقارب بالحجون، فالتقمته الأرض وهو في باطنها حتى يخرج يوم القيامة».

قال الشيخ: «وقد فات المفسرين أن يضعوا حدا لصون التفسير عن هذه الإسرائيليات التي أظلمت الجو على طلاب الهداية القرآنية، وشغلتهم عن اللب والجوهر بما ألصقته بالقرآن. وقصروا جهودهم على النبيين فيما ألصق.

وليس هذا خاصا بالدابة، وإنما هو ريح السموم هبت على كتب التفسير من نواح كثيرة في كل أمر غيبي أخبر به القرآن، ولم يتصل به بيان قاطع عن الرسول (عليه السلام)، فقد قيل مثله في «يأجوج ومأجوج» وفي «الصور» وفي «اللوح المحفوظ» وفي غيرها.

وقد تتبع بعض المفسرين غرائب الأخبار التي ليس لها سند صحيح، وأغدقوا من شرها على الناس وعلى القرآن، وكان جديرا بهم أن يقيموا بينها وبين الناس سدا يقيهم البلبلة الفكرية فيما يتصل بالغيب الذي استأثر الله بعلمه، ولم ير فائدة لعباده في أن يطلعهم على شيء منه، وإذ كان للناس بطبيعتهم ولع بسماع الغرائب وقراءتها ، فما أشير أثرها في إلهائهم عن التفكير النافع فيما تضمنه القرآن من آيات العقائد والأخلاق وصالح الأعمال».

«والذي أحب أن أقرره هنا بهذه المناسبة فيما أخبر الله به من شؤون الغيب التي لم يتصل بها بيان قاطع عن الرسول من الدابة، والصور، ونحوهما ، هو أننا نؤمن به على القدر الذي أخبر الله به دون صرف اللفظ عن معناه، ودون زيادة عما تضمه الخبر الصادق، فنؤمن مثلا بأنه سيكون في آخر الدنيا صور ينفخ فيه فتكون صعقة، ثم ينفخ فيه أخرى فيكون البعث، أما الخوض في حقيقته ومقداره، وكيفية النفخ فيه، أو حمله على أنه تمثيل السرعة إفناء

العالم وبعثه بسرعة النفخة المعروفة للناس، فانه رجم بالغيب ، وتقول على الله بغير حق»[١].

خامسا: يرى أنه ليس في القرآن ما يفيد رفع عيسى بجسمه إلى السماء – يقول الشيخ[٢]:

«ليس في القرآن الكريم، ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الارض، وأن كل ما تفيده الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه ورافعه إليه، وعاصمة من الذين كفروا وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يفعله أعداؤه ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه».

ثم قال الشيخ: «إن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء، وأنه فيها حي الى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان، فإنه لا يكون بذلك منكرا لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه، ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن، إذا مات فهو من المؤمنين يصلى عليه كما يصلى على المؤمنين، ويدفن في مقابر المؤمنين، ولا شبهة في إيمانه عند الله، والله بعباده خبير بصير».

الفتوى تثير ضجة على الشيخ

بعد أن نشرت هذه الفتوى من الشيخ محمود شلتوت في مجلة الرسالة قامت ضجة من بعض العلماء بردودهم على الشيخ في فتواه، ورد الشيخ عليهم وبين ضعف ما استندوا إليه. و وضح أن في كتب التراث رأيين في هذه القضية مبينا مصادره في هذه الكتب، كما ذكر ما يراه جماعة من علماء العصر الحديث لهم مكانة في العلم كبيرة، فذكر أن الشيخ محمد عبده قال وهو بصدد تفسير آية آل عمران: «إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي» ان للعلماء هنا طريقتين: إحداهما وهي المشهورة أنه رفع بجسمه حيا وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى، والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها المتبادر منه وهو الإماتة العادية، وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح.

---

١ ـ الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ص ٥٤ - ٥٦.

٢ ـ المرجع السابق.

ثم قال الشيخ شلتوت: «ثم يذكر (يعنى الشيخ محمد عبده): أن لأهل هذه الطريقة في أحاديث الرفع والنزول تخريجين: أحدهما أنها آحاد تتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالطقعي، وليس في الباب حديث متواتر، وثانيهما: تأويل النزول».

ثم ذكر ما يراه الشيخ محمد رشيد رضا وهو قوله «وجملة القول انه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حيا حياة دنيوية بحيث يحتاج بحسب سنن الله إلى غذاء... وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ، وإنما هي عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها في المسلمين، ثم تكلم الشيخ محمد رشيد رضا عن الأحاديث وقال: «إن هذه المسألة من المسائل الخلافية حتى بين المنقول رفع المسيح بروحه وجسده إلى السماء»[1].

وبعدها ذكر الشيخ شلتوت ما أجاب به الشيخ المراغي شيخ الأزهر الشريف عن سؤال رفع إليه، وجاء في إجابته قوله: «ليس في القرآن الكريم نص صريح قاطع على أن عيسى (عليه السلام) رفع بجسمه وروحه، وعلى أنه حي الآن بجسمه وروحه ، وقول الله سبحانه: «إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا» الظاهر فيه أنه توفاه وأماته ثم رفعه، والظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفع درجات عند الله كما قال في إدريس (عليه السلام): «ورفعناه مكانا عليا» وهذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء المسلمين، فهو عند هؤلاء توفاه الله وفاة عادية. ثم رفع درجاته عنده، فهو حي حياة روحية كحياة الشهداء، وحياة غيره من الأنبياء ، لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حي الآن بجسمه وروحه، وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها ، ثم قال الشيخ المراغي: «ولكن هذه الاحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة، والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر» ثم قال: «وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى (عليه السلام) حي بجسمه وبروحه، والذي يخالف في ذلك لايعد كافرا في نظر الشريعة».

---

١ ـ الفتاوى للشيخ شلتوت ص ٨١ وذكر في الهامش مصدر ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا.

أفكاره في علم الكلام

أولا: يرى - ككثير من العلماء أن العقيدة لا تثبت إلا بالمتواتر: بين الشيخ شلتوت في كتاباته[١] أن العلماء متفقون على أن الدليل العقلي الذي سلمت مقدماته، وانتهت في احكامها الى الحس أو الضرورة يفيد ذلك اليقين ويحقق الإيمان المطلوب.

وأما الأدلة النقلية فالكثيرون من العلماء يرون أنها لا تفيد اليقين، ولا تثبت بها وحدها عقيدة والذين يرون أن الدلالة النقلية تفيد اليقين وتثبت بها العقيدة شرطوا أن يكون الدليل النقلي قطعيا في وروده قطعيا في ثبوته ودلالته، قال: «ومعنى كونه قطعيا في وروده أن لا يكون هناك أي شبهة في ثبوته عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وذلك إنما يكون في المتواتر فقط، ومعنى كونه قطعيا في دلالته أن يكون نصا محكما في معناه، وذلك إنما يكون فيما لا يحتمل التأويل، فإذا كان الدليل النقلي بهذه المثابة، أفاد اليقين وصلح لأن تثبت به العقيدة».

وبعد أن ذكر الشيخ شلتوت أمثلة فيما ورد في الكتاب الكريم من آيات تحدثت عن توحيد الله عزوجل ، واليوم الآخر، والملائكة والنبيين، قال: «هذا هو شأن العقائد وطرق اثباتها، ولابد أن يعم العلم بها جميع الناس، ولا يختص بطائفة دون أخرى، ولأنها أساس الدين وبها يكون المرء مؤمنا، فكيف يتصور في مؤمن أن يجهلها؟ ومن مقتضيات هذا العلم العام بها أن لا يقع خلاف بين العلماء في ثبوتها أو نفيها[٢].

ثانيا: يوافق من يرون من علماء الإسلام أن الإنسان خلق غير مقهور بين الشيخ شلتوت أن القضاء والقدر اللذين ورد في القرآن ذكرهما وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة ليسا إلا النظام العام الذي خلق الله عليه الكون، وربط فيه بين الأسباب والمسببات والنتائج والمقدمات، سنة كونية دائمة لا تتخلف ، وكان من بين تلك السنة أن خلق الانسان حرا في فعله، مختارا غير مقهور ولا مجبور، ويوضح الشيخ شلتوت أن الاسلام لا

---

١ ـ الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت، ص ٦٧.

٢ ـ المرجع السابق.

يسمح أن يضل الإنسان، أو ينحرف عن أوامر الله في عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، قال «ولو صح ذلك لبطلت التكاليف، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب، ودعوة الانسان الى دين الله ومايجب، ووعده بالثواب لأهل الخير، وبالعقاب لأهل الشر - باطلا وعبثا - لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده»[١].

عناية الشيخ شلتوت بالفقه المقارن والتقريب بين المذاهب

كان من الطبيعي لشخصية علمية كالشيخ شلتوت، الذي يلم بالآراء المتعددة في مجال الفقه الاسلامي، ويدرك الحجج والأدلة التي يستند إليها الفقهاء في القضايا المختلفة، أن يعنى بالفقه المقارن، ويوليه اهتمامه، خاصة وأنه يحتاج إلى الاطلاع على فقه المذاهب المختلفة عندما يتعرض للفتوى في مسألة من المسائل، ولهذا وجدناه يضع الفقه المقارن في دائرة اهتمامه، وتكون كتابته في كثير من القضايا متعرضة لبيان أكثر من رأى في القضية المعروضة ثم يبدي رأيه المعتمد على الأدلة، وقد أثمر اهتمامه بالفقه المتقارن كتابا اشترك فيه مع شيخ معاصر له هو الشيخ محمد على السايس، وسميا هذا الكتاب. باسم مقارنة المذاهب في الفقه بينا فيه فائدة المقارنة والأسباب التي أدت إلى اختلاف أئمة الفقه الاسلامي، واشتمل على كثير من المسائل في الطهارة، والصلاة والزكاة، والزواج والطلاق، والقضاء ، والميراث.

وكان يقوم بتدريس هذا الكتاب لطلاب كلية الشريعة بجامعة الازهر الشريف، مما كان له أثر في تعرف الطلاب على الآراء المتعددة في القضايا المختلفة، وترسيخ احترام الآراء المتعددة وتهيئة الطلاب نفسيا لقبول حكم في مذهب فقهي آخر غير المذهب الذي ينتمى إليه هؤلاء الطلاب ولا يخفى ما لهذا من أثر في تخفيف حدة التعصب لمذهب فقهي معين.

وكان لفتواه بجواز التعبد بأي مذهب فقهي إسلامي معتبر أساسها الذي تعتمد عليه، ذلك أن الفرق الإسلامية التي تؤمن بثوابت الإسلام لا تختلف في آرائها الا في المسائل الظنية،

---

١ ـ المرجع السابق.

التي لا يقطع فيها برأي دون رأي آخر. وما عدا المسائل الظنية لا يتصور ولا يقع فيها الاختلاف بين علماء سائر المذاهب الإسلامية المعتبرة.

وأصبح الاتجاه إلى ذكر آراء سائر الفرق والمذاهب الإسلامية منهجا يتبع في الكتابات الفقهية المقارنة، وتوجيها يوجه إليه طلاب الدراسات العليا في كليات الشريعة بجامعة الأزهر الشريف.

جزى الله شيخنا أحسن الجزاء على ماقدم من علم نافع وجهد في خدمة شريعة الاسلام والمسلمين.

محمود شلتوت

مجتهدا ورائدا للتقريب

قراءة تاريخية ووثائقية

الدكتور محمد كمال الدين إمام

كلية الحقوق ـــ جامعة الاسكندرية

أولاً: خلفية تاريخية

بدأ القرن العشرون وقد أصبح للأزهر في حياتنا الثقافية ما يجعله ينساب في نسيجها كله، لم يعد مجرد قلعة للعلم والدين، ولا مجرد سياج يحمي حقوق الامة ويعبر عن إرادتها ويصل بصوتها الى الحكام والأمراء، بل أصبح الأزهر اضافة الى ذلك كله، يرى نفسه قائد العقل المسلم. وتهيأت في داخله منذ أواخر القرن التاسع عشر حركة اصلاحية سعت الى تطوير مؤسساته، وتعديل مناهجه. وبدأت قوانين تنظيم الأزهر يتتابع صدورها. ومن أبرزها في نهاية القرن التاسع عشر القانون الذي وضع في يوليو سنة ١٨٩٦. وأشرف على تنفيذه مجلس إدارة يضم طائفة من كبار علماء مصر والاسلام. خلصت نيتهم وتوافرت لديهم وسائل التنفيذ وإصرارهم عليه، وهم المشايخ حسونة النواوي، ومحمد عبده، وسليم البشري، وعبدالكريم سلمان، وسليمان العبد، وكان لكل واحد من هؤلاء جهوده العلمية، وانتاجه الفكري في مجال اصلاح العقل، محمد عبده في (رسالة التوحيد) وتقاريره الاصلاحية، وسليمان العبد في (باكورة الكلام). وغيرهم ممن تصدروا للتدريس في الجامع الأزهر. ومدرسة دار العلوم. وقد جاء قانون تنظيم الأزهر على أيدي هؤلاء ليضم من وجوه الاصلاح ما رأوه كفيلاً بانهاض الازهر. ولأول مرة وضعوا شروطاً للانتظام في سلك الجامع الأزهر. فقرروا ألا يعتبر من طلبة الازهر إلا من بلغ الخمس عشر سنة على الاقل. وأن يكون له دراية بالقراءة والكتابة. وحافظا نصف القرآن الكريم، وقسمت العلوم الى قسمين مقاصد ووسائل.

القسم الأول: ويضم مواد التوحيد والاخلاق الدينية والفقه وأصوله. والتفسير والحديث.

والقسم الثاني: ويستوعب النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق، ثم الحساب والجبر والعروض والقافية، وشجع القانون الطلبة بوضع مكافآت لمن يتفوق في تاريخ الاسلام، أو يبرز

في الانشاء قولاً وكتابة، واللغة متناً ومبادئ، والهندسة وتقوّم البلدان، ومنع التقيّد في الدراسة بكتب دون أخرى، وحرّم قراءة التقارير والحواشي في السنوات الأربع الأولى وأجازها بعد ذلك، وجعل أقل مدة للدراسة اثني عشرة سنة وأكثرها خمس عشرة سنة، وجعل الامتحان على مرحلتين، الشهادة الأهلية وهي لمن قضى ثماني سنوات فأكثر، والشهادة العالية وهي لمن قضى اثني عشرة سنة فأكثر. وجعل لحامل كل شهادة أهلية وظائف معينة، لقد فتح هذا القانون أبواب الأزهر كلها وضرب في كل واحد منها بسهم من الاصلاح، ولفت الذهن الى أن هناك خيرا غير الذي عرف الى يوم وضعه، وان التمسك بما كان عليه من قبلنا لا معنى له مادام لا يطابق الواقع، ولا يتفق مع حاجات العصر، ولا شبهة في أن الأزهر قد تغير بعد القوانين الاصلاحية، إن لم يكن من جهة العلم وتحصيله، فمن جهة قابلية أهله للرقي، فقد أصبحوا طلاب اصلاح بعد أن كانوا لا يطيقونه إلا مغلوبين على أمره.

وقد سمى هذا القانون باصلاح الشيخ محمد عبدّه، وقد ظل مطبقاً عشر سنوات ثم انفرط منهجه، وغاب أثره بخروج الشيخ محمد عبده من مجلس الادارة، ثم وفاته سنة ١٩٠٥، إلا أن القانون وضع تلاميذ الاستاذ الإمام على درب جديدة، ومسالك مستحدثة، تمثلت في الثورة على ما كان في الأزهر من مناهج للدرس، ومراجع الدراسة، وأظهرت كوكبة من تلاميذ الإمام محمد عبده مقدرة فائقة في النقد المنهجي كان في مقدمتهم حسين والي في كتابيه (التوحيد) و(كلمة التوحيد)، والشيخ بدر الدين الحلبي في كتابه الهام (التعليم والارشاد)، والعلامة طنطاوي الجوهري في مؤلفاته وتفسيره، والشيخ محمد مصطفى المراغي ـ استاذ العلامة محمود شلتوت ـ في أعماله وأقواله، ولقد كان هذا التطور عظيماً، إذا قيس بالقرن التاسع عشر الذي تراكمت فيه العصبية المذهبية في رحاب الأزهر على نحو أرهق العقل، وشوه النقل حتى يروي صاحب التعليم والارشاد (لقد كان أهل المذاهب في مصر من نصف قرن ـ الكتاب صادر سنة ١٩٠٦ ـ مضى كالدول المتحاربة لا يتأخر صاحب مذهب عن أذية صاحب مذهب آخر متى لاحت له فرصة وأمكنته، ولقد سمعت الشيخ عبدالرحمن البحراوي يقول: كنا إذا خرجنا من الأزهر للحضور على السيد أحمد الكتبي مفتي الحنفية

بمكة آخر عمره بزاوية العيني بقرب الأزهر خرجنا وكل واحد منا قد جعل عباءته على رأسه يداري بها شخصه عن الناس، وكان من يسمع بحالنا. يسمعنا من القول ما كنا لا نجد بداً من تحمله والصبر عليه).

يضاف الى ذلك الاعتماد في الدرس على كتب المتأخرين، وهي عصية على الفهم، لا يتسع بها عقل، ولا ينمو من خلالها فكر، وأصبحت قراءة المقررات الدراسية والامتحان فيها من أشد الأمور حتى ليذكر الشيخ بدر الدين الحلبي أنه في سنة ١٣١٧هـ كان الناجحون في امتحان الكفاءة من طلبة الأزهر في فقه أبي حنيفة ثلاثة طلاب اثنان من سوريا والثالث من مصر، وذلك من جملة عدد من دخلوا قاعة الامتحان وكانوا أكثر من ثلاثمائة، لقد كان توجيه الاستاذ الإمام الى تعديل المناهج، واصلاح المؤسسة الازهرية عملاً رائداً، صحيح انه لم يسر به الى نهاية الشوط، ولكن جاءت أجيال من مدرسته لتعمل على إكمال رؤيته، وانجاز رسالته، ويعد الانفتاح على المذاهب الأربعة من أهم حصاد غرسه، وهو ما نادى به في مذكراته، وفي كتابه (الاسلام والنصرانية) بل إنه دعا الى الانفتاح على الفقه الإسلامي كله بمذاهبه المختلفة، وهذا الانجاز جاء بعد عصور ورث فيها الأزهر روح التعصب المذهبي حتى الكمال بن الهمام عن أحد علماء الحنفية منع المناكحة بين أهل السنة والاعتزال، وكان الشيخ محمد مصطفى المراغي ـ المدرس والقاضي وشيخ الأزهر بعد ذلك ـ هو الذي أكمل المسيرة، ونزل بالأفكار الى أرض الواقع في قوانين المحاكم، وفي مواد الدراسة. والمراغي ـ كما وصفه محمود شلتوت ـ ما خرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره، عن أن يكون تلميذاً للإمام محمد عبده.

لقد تحركت مياه كثيرة في عالم الفكر والتشريع، وأفرز الواقع جبهات لمقاومة التبشير، ومجابهة الاستجلاب التشريعي، وأصبح الانفتاح المذهبي ضرورة لأمرين:

الأول: الإيمان بصحة الأصول التي تنتمي اليها كل المذاهب الاسلامية وهي أصول واحدة ومشتركة.

الثاني: الواقع المتحرك الذي يحتاج في صناعته على عين الشريعة الى الفقه الاسلامي كله باعتباره وحدة متكاملة لا تفاريق مذهبية، يقول أحد تلاميذ الإمام ـ مؤكداً دعوته

الى تعليم يستوعب كل المذاهب، والى تشريع يتعامل مع كل المذاهب.. (ولو ذهبنا نستقرئ افراد المضار التي تنشأ من التقيد بمذهب واحد في المحاكم الشرعية لخرجنا الى حصر ما لا يبلغه الحصر، وعد ما لا يستوعبه العد).

لقد كانت الدعوة الى الانفتاح الفقهي على المذاهب الاربعة فكرة راودت بعض رجال الاصلاح من قبل، اشار اليها الكواكبي في (أم القرى)، وظهر لها دعاة في المغرب العربي، ولكنها في مصر بعد عصر الأستاذ الإمام تحولت الى تيّار فاعل في الحياة الفقهية والتشريعية، له أسبابه ودواعيه. ونادى الكثيرون بكتاب جامع للفروع الفقهية في المذاهب الأربعة. يضم ما هو أيسر على الناس في العبادات. وأضبط لأمورهم في المعاملات. بل هي دعوة ذات شقين:

الأول: كتاب جامع لفقه الفروع في المذاهب الأربعة مع التخير مراعاة لحال الناس وفي هذا الصدد صدرت مؤلفات كثيرة، كانت ذروتها اللجنة التي شكلت من علماء المذاهب الأربعة في الأزهر الشريف برئاسة شيخ الأزهر في أوائل العشرينات من القرن الماضي، واستهدفت إعداد كتاب فقهي على المذاهب الاربعة، وضع له نموذج وافقت عليه اللجنة في ١١ فبراير سنة ١٩٢٣. وكان ثمرته كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذي ينسب خطأ للشيخ عبدالرحمن الجزيري، وقد أضاف اليه بعض علماء الإمامية مذهبه ليكون جامعاً للمذاهب الخمسة.

الثاني: الاتجاه في التشريع والفتوى على المذاهب الأربعة. بل إن الشيخ المراغي ـ على الرغم من كونه حنفي المذهب. كان يأخذ من كل المذاهب ما يناسب العصر والمصلحة، ورأى خطورة الأخذ بأقوال المذاهب الأربعة دون سواهم وكتب عام ١٩٢٧ (بحوثاً في التشريع الاسلامي وأسانيد قانون الزواج والطلاق) دعا فيها الى (اختيار ما صح دليله، وما قام البرهان على أن فيه مصلحة للناس من أقوال أئمة الهدى وفقهاء الإسلام)، وقد يقضي ذلك على تلك الفكرة الخاطئة فكرة وجوب تقليد المذاهب الاربعة دون سواها، سواء أوافقت مذاهبهم مصالح المجتمع أم خالفتها، ثم قال (والخلاصة أنه يجوز تقليد غير المذاهب الأربعة متى صح النقل عنهم. وفهم مرادهم) بل انه يشير الى غير مذاهب أهل السنة بقوله (وفي العالم الاسلامي الآن مذاهب منتشرة يدين بها ملايين المسلمين. في اليمن وفارس، وبلاد الهند، ولهم كتب مطبوعة وغير مطبوعة، ولهم متون وشروح وحواشي، مثل التي عندنا سواء بسواء،

ومنهم مجتهدون، وفيهم من يرجح قولاً على قول).

ثانياً : الشيخ محمود شلتوت المجتهد

في ظلال هذه البيئة المفعمة باتجاه التغيير تنظيرا وتطبيقا، وفي رحاب مدرسة الشيخ المراغي التي تمد بجذورها الى جهود الأستاذ الإمام محمد عبده نشأ وتشكل فكر الإمام محمود شلتوت، الإمام المجتهد، ورائد التقريب العملي بين المذاهب، فقد ولد أواخر القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة ١٨٩٣ في منية بني منصور مركز ايتاي البارود، وتلقى تعليمه الديني في معهد الاسكندرية وكان أول فرقته في جميع سنوات الدراسة، حيث نال درجة العالمية سنة ١٩١٩ ليبدأ في هذا العام الثوري حياة المعلم في ذات المعهد الذي تفوق في معهد الاسكندرية الديني، ومنذ المقالة الأولى لفت اليه الانظار بثقافته الواسعة وإلمامه بالفقه رواية ودراية، ونزوله الى الحياة الواقعية مشاركا في جوانبها السياسية والاجتماعية والعلمية، متأثرا بعلمين كبيرين ظلا يعملان في عقله الى آخر العمر وهما الشيخ محمد مصطفى المراغي، والعلامة عبدالمجيد سليم، وعندما نادى الإمام المراغي باصلاح الأزهر في مذكرة شهيرة، كان أول صوت أزهري ارتفع لتأييده هو الشيخ محمود شلتوت، دافع عنه أمام زملائه، وبشر بدعوته بين الجماهير في مقالات نشرت في حينه بمجلة السياسة اليومية، ولم يعبأ بما أصابه، فقد ظل على موقعه سواء في داخل الأزهر او حين أخرج منه، لأنه في الواقع كان يدافع عن فكره هو، وعن حياة عقلية جسدها كاتبا، وعبر عنها استاذا قدر له أن يكون في طليعه اساتذة الفقه المقارن في مصر عندما ادخل مقررا في كلية الشريعة بعد عام ١٩٣٠، كان عليه أن يضع المنهج، وأن يحدد مفرداته، وأن يقوم بتدريسه، وأن يكتب فيه، فجاء كتابه في مقارنة المذاهب سنة ١٩٣٦ دراسة في المنهج وحصيلة معاناة في ارتياد مجال غاب كثيرا عن قاعات الدرس، وبرامج الإعداد، وقد أعانه على ذلك ذكاء حاد، وألمعية متفردة، وإلمام عميق بمذاهب أهل السنة ما بقى وما درس، ومذاهب الشيعة زيدية وإمامية، ومذهب الإباضية، وأعلن في وضوح من خلال كتابه (مقارنة المذاهب).

(إن على المسلم إذا تعذر عليه أن ينال الأحكام من أدلتها أن يسأل أهل الذكر، وليس عليه أن يلتزم مذهبا معينا، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ورسوله على

أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة) وهو رأي ثبت عليه الإمام محمود شلتوت فقد قال في حديث له نشر بمجلة الأزهر وهو شيخ له وقد كان للاجتهاد في الأحكام مجال واسع تفرقت به المذاهب وتعددت. وعلى رغم تعددها واختلافها في كثير من الأحكام، وتعدد الآراء في المسألة الواحدة، فقد كان الجميع يلتفون حول أصل واحد وكلمة سواء، هي الإيمان بالمصادر الأولى وتقديس كتاب الله وسنة رسوله، وقد صح عن جميع الأئمة (إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط).

من هنا تعاون الشافعي، والحنفي، والمالكي والحنبلي، والسني والشيعي، ولم يبذر الخلاف بين أرباب المذاهب الاسلامية إلا حينما نظروا الى طرق الاجتهاد الخاصة، وتأثروا بالرغبات، وخضعوا للايحاءات الوافدة. فوجدت ثقوب نفذ منها العدو المستعمر، وأخذ يعمل على توسيع تلك الثقوب، حتى استطاع أن يلج منها الى وحدة المسلمين، يمزق ويفرق شملها، ويبعث البغضاء والعداوة الى أهلها، وبذلك دبت فيهم عقارب العصبية المذهبية، وكان من آثارها السيئة ما كان يحفظه التاريخ من تنابز أهل المذاهب بعضهم مع بعض، وتحين الفرص لإيقاع بعضهم لبعض، والدين من ورائهم يدعوهم هلموا الى كلمة الله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين).

إن هذه الآفاق الواسعة التي حلق فيها الشيخ محمود شلتوت هي التي جعلته العالم المجتهد، وكان يرى أن الفقه الاسلامي حتى يأخذ مكانه يحتاج الى أمرين لابد منهما.

الأول: أن نعيد تنظيم الفقه الاسلامي، وأن نوضح مقاصده، وأن ننظم وسائله، وعندنا كنوز مطمورة أوضائعه في غمرة نظام التأليف القديم. فالفقه الاسلامي ثروة من ثرواتنا الغالية، ولكن محاسنه غير واضحة المعالم في الكتب الموجودة الآن، ولابد من تنظيم هذا الفقه تنظيماً ييسر الانتفاع به لكل من يريد الانتفاع.

ويسوق لنا الشيخ الجليل مثالاً لأهمية تقديم تراثنا المذخور فيقول (إني في مؤتمر لاهاي الذي عقد سنة ١٩٣٧ للقانون المقارن، قدمت بحثاً عن المسؤولية المدنية والسؤولية الجنائية. وقدمت لهم نوعاً من المسؤوليات لا تعرفه القوانين، موجود عندنا في الفقه المقارن، وهو المسؤولية السلبية - أي المسؤولية بطريق الترك - وهي تقصير الانسان في عمل توجبه

الانسانية، وذلك كما لو منع الإنسان الماء عن آخر حتى مات، أو ترك مبصر أعمى يتردى في هاوية ولم ينقذه. فالشريعة الاسلامية تحاسب على هذا العمل ولا تعفي صاحبه من المسؤولية. هذا النوع من المسؤولية الإنسانية في زوايا كتب الفقه غير مبرز ويحتاج الى جهد كالذي بذله الشيخ شلتوت في بحثه فلقيت الشريعة في مؤتمر الفقه المقارن الاعتراف والتقدير، ولقى الشيخ نفسه بهذا البحث تكريما خاصاً تمثل في اختياره عضوا في هيئة كبار العلماء.

الثاني: وهو كما يقول الشيخ شلتوت نفسه لا يقل أهمية عن سابق (هو واجب ربط الفقه بالحياة العامة، ومعرفة رأيه في كل مسألة من المسائل المستجدة، وهو واجب يحتاج الى تعديل في مناهج الدرس حتى يصنع الفقيه القادر على الاستنباط مع فهم عميق للنصوص والوقائع على السواء) وعندما عين الإمام محمود شلتوت شيخاً بالأزهر طالبه الكثيرون بهذا الاصلاح الذي كان هو من كبار دعاته، ومن المنظرين له، ومن الممارسين في كتاباته لأسسه وقواعده.

كتب حسين فوزي ـ عداة تعيين الشيخ شلتوت شيخاً للازهر في مجلة (المجلة) القاهرية، يقول: (نحن لا نريد للازهر أن يتحول الى جامعة علمانية. ولا نطالبه بأكثر من أن يخرج علماء يعيشون في زمانهم، أي في النصف الأخير من القرن العشرين. يفهمونه بقدر ما يفهمون رسالتهم الانسانية السامية، لأن أداء هذه الرسالة يقتضيهم أن يعرفوا زمانهم تمام المعرفة. وأن يكونوا خبيرين بكل مشكلاته الروحية والمادية).

ومن يمن الطالع أن الإمام محمود شلتوت كان في ذاته عالماً مجتهدا، وكانت رؤيته تستوعب المنهج والتفاصيل.

١.من اجتهاداته في المنهج

العلم منهج وأدوات، قبل أن يكون تفاصيل وجزئيات، وقد تحرك الشيخ محمود شلتوت على مساحات واسعة لتصويت المنهج، وتحديد الأدوات.

أ. رفض الجمود المذهبي

امتدادا لمدرسة الإمام محمد عبده، وأستاذيه الشيخ محمد مصطفى المراغي والشيخ عبدالمجيد سليم رأى العلامة محمود شلتوت في الجمود المذهبي عقبة كؤودا أمام تحريك الواقع وصنعه على عين من شريعة الله، فنعى الجمود، واستبعده من دائرة الفهم الصحيح للاسلام يقول: إن المتأخرين حينما تحكمت فيهم روح الخلاف، وملكتهم العصبية المذهبية، راحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم، وانتقلت المذاهب بهذا الوقع عن أن تكون أفهاما يصح أن تناقش فترد وتقبل، الى التزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها ان يخالفها او يعتنق غيرها، وحرموا بذلك النظر في كتاب الله وسنة رسوله. أو حرموا العمل بثمرة النظر فيهما، ونشأ عن ذلك ان فترت الهمم، ووقف الفقه الاسلامي، واشتغل علماء المذاهب بالانتصارات المذهبية، واختصار المطولات وشرح المختصرات، وهكذا حرم الناس الفقه، وملكة الفقه.

ب. نقض إدعاء الاجماع على العمل بالمذاهب الأربعة

امتدادا لرؤية الشيخ المراغي ايضأ رفض الشيخ محمود شلتوت، من زاوية منهجية وتطبيقية، مقولة الاجماع على العمل بالمذاهب الأربعة، وقال نقلاً عن الإمام أبي شامة (ينبغي لمن اشتغل بالفقه الا يقتصر على مذهب إمام، ويعتقد في كل مسألة صحة ما كان أقرب الى دلالة الكتاب والسنة المحكمة، وذلك سهل عليه إذا حصل العلوم ... وليجتنب التعصب، والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة، فإنها للزمن مضيعة، ولصفوه مكدرة، وكما قال شارح (مسلم الثبوت) فإن الاختلاف رحمة بالنص، وترفيه في حق الخلق).

وادعاء ابن الصلاح بوقف الفقه على المذاهب الاربعة لا دليل عليه، وللعلامة (محمد شفيع الديو بندي) في كتابه (جواهر الفقه) ملمح لطيف، يقول (إن انتهاء سلسلة التقليد على المذاهب الأربعة ليس بأمر عقلي ولا شرعي، بل اتفاقي محض، ... وعندما رأينا أن جميع المذاهب سوى هذه الأربعة قد اندرست لم يبق لدينا سبيل سوى حصر التقليد في هذه الأربعة اضطرارا).

وهو قول يحتاج الى ضبط لأنه غير المذاهب الأربعة من غير أهل السنة بقي قائماً له علماؤه وكتبه، وحصر الفقه فيما جاء عن طريق أهل السنة جمود مردود، بل تطرف

البعض ورأى في بقاء المذاهب الأربعة اختيارا إلهيا لا يحتاج الى دليل كما ذكر وأيد العلامة محمد زكريا الكاندهلوي في كتابه (الشريعة والطريقة) نقلاً عن الملاجيون في (التفسير الأحمدي) يقول (والانصاف أن انحصار المذاهب في الأربعة إنما هو فضل إلهي، وقبولية من عند الله تعالى لا مجال فيها للتوجيهات والأدلة).

ولا تعليق يذكر على هذه الميتافيزقيا الصوفية.

٢. من اجتهاداته في الفروع

لم يدع العلامة الشيخ محمود شلتوت طوال حياته قارئه او سائله او مجتمعه في حيرة، بل كان يجتهد ويفتي، ولا يتردد عن استنباط الأحكام للحوادث الجديدة، والنوازل الطارئة، هكذا كان منذ حمل أمانة العلم، وكان الدليل رائده في الاستنباط، والحق غايته في الفتوى، واجتهاداته في الفروع كثيرة، وله فيها كتب مجموعة، وأقوال مخطوطة، نختار منها القليل الدال على منهجه، والمعبر عن عمق مساهماته في فقه العصر.

١. تنظيم النسل

سئل الإمام محمود شلتوت عن تحديد النسل أكثر من مرة فلخص وجهة نظره قائلاً: إن كلمة تحديد النسل، بهذا القيد وبمعنى ايقاف النسل الى حد معين لا يتفق مع أمة تريد النهوض والقوة، واتساع العمران، وكثرة الأيدي العاملة في الزراعة والصناعة. وهو فوق ذلك لا يتفق وما حثت عليه الشريعة الاسلامية من الزواج، وما بينته ايضاً من امتنان المولى على الناس بنعمة البنين والحفدة، كأثر من آثار الزواج مع طمأنينة النفوس على الرزق، ... وبذلك ترى أن التحديد بهذا المعنى العام تأباه طبيعة الحياة، وحكمة الحكيم تأباه، وكذلك الشريعة الاسلامية تمنعه ولا ترضاه.

أما تحديد النسل بمعنى تنظيمه بالنسبة الى:

- السيدات اللاتي يسرع اليهن الحمل.
- بالنسبة لذوي الأمراض المتنقلة (أي الوراثية).
- بالنسبة للذين تضعف أعصابهم من مواجهة المسؤوليات.

أقول: إن تنظيم النسل لشيء من هذا، وهو تنظيم فردي لا يتعدى مجاله شأن علاجي تدفع به اضرار محققة، والتنظيم بهذا المعنى لا يجافي الطبيعة، ولا تأباه الشريعة إن لم تكن تطلبه وتحث عليه، ذلك أن القرآن حدد مدة الرضاع بحولين كاملين، وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يرضع الطفل من لبن الحامل، وهذا يقتضي إباحة العمل على وقف الحمل مدة الرضاع، وإذا كانت الشريعة تتطلب كثرة قوية لا هزيلة، فهي تعمل على صيانة النسل من الضعف، وتعمل على دفع الضرر الذي يلحق الإنسان في حياته، ومن هنا قرر العلماء إباحة منع الحمل ـ مؤقتا ـ بين زوجين ـ أو دائما إذا كان بهما أو بأحدهما داء من شأنه أن ينتقل في الذرية والأحفاد.

ب. في ختان الإناث

وهي قضية أثارت مدادا كثيرا في الصحف، وجدلا في السياسة سئل الشيخ محمود شلتوت عن ختان الإناث فقال: كما جاء في كتابه الفتاوى ـ والذي أراه أن حكم الشرع في ختان الإناث لا يخضع لنص منقول، وإنما يخضع في الذكر والانثى لقاعدة شرعية عامة، وهي أن إيلام الحي لا يجوز شرعا إلا لمصالح تعود عليه، وتربو على الألم الذي يلحقه ... وإنتهى الى أن ختان الأنثى ليس لدينا ما يدعو اليه، والى تحتمه لا شرعا، ولا خلقا، ولا طبا.

ج. في الفائدة

حيث رأى الشيخ جواز الاستقراض بالربح للضرورة والحاجة، وهو رأي يخالف موقفه عام ١٩٥٠ عندما عارض الفائدة بالاطلاق، وقد انتقد البعض الشيخ، واعتبروا رأيه الجديد تراجعا. ونحن لا نناقش موضوع الفائدة قبولا ورفضا، ولا فتوى الإمام محمود شلتوت، تأييدا او نقضا، وإنما نريد فهم فتواه في ضوء منهجه، الذي يعتمد على الدليل كما يراه الشيخ، وعلى اعتباره اليسر وعدم الحرج من المبادئ العامة في الشريعة، ولهذا المنهج تطبيقات كثير في فتاويه، منها قوله بأن مصافحة المرأة لا تنقض الوضوء، وصحة الصلاة لمكشوف الرأس، ولصاحب الرأس المغطاة سواء كان الغطاء عمامة او طاقية او برنيطة، وقال في ذلك (والحق أن أمر اللباس والهيئات الشخصية ومنها حلق اللحية من العادات التي ينبغي أن ينزل

المرء فيها على استحسان البيئة، فمن درجت بيئته على استحسان شيء منها كان عليه أن يساير بيئته، وكان خروجه عما ألف الناس فيها شذوذا عن البيئة) وعلى هذا النهج سار فيما يتعلق بفتاويه في كثير من المسائل ومنها الموسيقى والغناء حيث أفتى بأن سماع الآلات ذات النغمات او الاصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة، او صوت انسان، وإنما يحرم إذا استعين به على محرم، أو اتخذ وسيلة الى محرم، أو ألهى عن واجب.

إن منهج الشيخ شلتوت في الاجتهاد يقوم على أسس ثلاثة:

الأول: الاعتماد على الدليل دون انتماء الى مذهب فقهي لا يتعداه ومن هنا افتى في كثير من المسائل على غير مذهبه، بل على غير المذاهب الأربعة كفتواه بحرمة زواج الكتابية ترجيحا لرأي الشيعة الإمامية.

الثاني: الاستناد الى مبادئ الشريعة الكلية في الوصول الى الأحكام، مثل مبدأ لا ضرر ولا ضرار، وكان هذا المبدأ مستنده الأساسي في فتواه بجواز تنظيم النسل.

الثالث: الفتوى بالأيسر طالما لا تخالف نصا، لأنه يرى ذلك في مصلحة المسلمين، حيث يصبح التشدد موجبا للقطيعة بين المجتمع وأحكام شريعته في عصر القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، ولكنه لا يمد ذلك الى الواجبات العليا، سئل عن رأيه في قضية اللاجئين الفلسطينيين فأجاب في وضوح وحسم (لا حل لهذه المشكلة إلا بأن يعود اللاجئون الى أوطانهم التي منها أخرجوا بغيا وعدوانا، وأن يتخلى الاستعمار عن دسائسه فهو الذي أوجد المشكلة وأثار هذا الخلاف).

وهكذا انطلق هذا العقل الحر المحلق في سماء الاجتهاد الاصولي ليجعل من الشيخ محمود شلتوت من أبرز دعاة التقريب بين المذاهب الاسلامية في العصر الحديث.

ثالثا: في التقريب بين المذاهب

التقريب بين المذاهب لا يكون حقيقة عقلية وواقعية، إلا عندما يتسع صدر الأمة لرأي المخالف، ويرحب عقل الفقيه فيستجيب لقوة الدليل. فلا يتعبد بمجرد الاسناد لرجل او الانتماء الى مذهب. وقد اتسعت الحياة في الازهر المعمور بعد عصر الفاطميين ليصبح جامعة للعلم الشرعي على المذاهب الاربعة، واتسع فقه الأمة ليستوعب كل تراثنا الشرعي في

ميدان استنباط الفروع من أصول الشريعة، وكان الاتفاق في بعض الفروع ضروريا لأن المصادر الاصلية واحدة، وكان الخلاف في بعض الفروع طبيعيا لتنوع الأحكام واختلاف الأزمنة والأمكنة، وكان علماء السلف أدرى بذلك وأعلم فنشأ علم الخلاف، وهو في أحد مفاهيمه فقه مقارن ينتصر الفقيه فيه للأدلة في إطار المذهب الواحد، أو بين المذاهب الفقهية المختلفة، بل والمذاهب العقائدية ايضا، وكان لعلماء القرون الأولى اليد الطولى في هذا العلم بما يشهد لهم برحابة الصدر، وسعة العلم، ووجدت الكتب الفقهية المقارنة منذ القرن الثاني والثالث، وكان لكتابات الكبار من أعلام القرون الخمسة الأولى ومن بعدهم كتب عميقة ومناظرات رصينة بدايتها عند محمد بن الحسن الشيباني والشافعي، ثم كتابات ضخمة لأبي زيد الدبوسي في (الأسرار)، وأبي المظفر السمعاني في (الاصطلام) وأبي المعالي الجويني، والقفال، من أهل السنة، وعند الشيعة الإمامية تراث عظيم في الفقه المقارن بعد عصر الشيخ المفيد، يمثله علم الهدى الشريف المرتضى في (الانتصار) و(الناصريات) من كتبه الموجودة وفي غيرهما من مصنفاته الهامة المفقودة، وشيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي كتابات مطولة في مقدمتها (الخلاف)، وهو كتاب عمدة اختصره الطبرسي، والصيمري ـ، وله (المبسوط) في الفروع وكلاهما كاشف عن تمكن الطوسي في فقه أهل السنة حتى نسبه السبكي في طبقاته الى الشافعية. ولا ننسى العلامة الحلي فله في مقارنة آراء المذهب كتابه (مختلف الشيعة في أحكام الشريعة) وله في مقارنة المذاهب (تذكرة الفقهاء)، و(منتهى المطلب)، ولم تضق المذاهب بالآراء او الأئمة في هذه العصور المبكرة، فقد كان الإمام جعفر الصادق شيخا لعدد من أئمة المذاهب السنية. ولم يتردد الشريف المرتضى وهو يقدم كتابه (الذريعة في أصول الشريعة) أن يعترف لفقهاء السنة بالسبق في التحرير وتهذيب الأدلة، بل إن هذه البيئة العلمية اتسعت للنقد الداخلي حتى لشيوخ المذهب الكبار كما نرى في (سرائر) ابن ادريس وهو يناقش شيخ الطائفة الطوسي، ومثل ذلك عند ابن زهرة في (غنية النزوع) وهذه أمثلة لا حصر فيها، إن هذه البيئة ونظائرها هي الميدان الخصب للتقريب بين المذاهب والذي كان سمة الفقه الإسلامي في عصوره الأولى، ولم تكن الخصومات العقلية، والعصبيات المذهبية إلا تجسيدا لواقع تكمن وراءه الأسباب السياسية، أو عصور التقليد والتكاسل، وعندما هبت رياح

الاصلاح في العالم الاسلامي الحديث، ارتفع الصوت الداعي الى التقريب، وعلا بعلو فكرة الاصلاح وانتصارها، فأصبحت العصبية موضع الاتهام، واتجهت انظار المصلحين الى الخروج من ضيق المذهب الى الآفاق الواسعة للفقه الاسلامي كله، واعتقد أن الاتجاه المقارن دعت اليه مجموعة أسباب:

الأول: إحساس عام لدى كبار الفقهاء في كل المذاهب بضرورة الخلاص من هذه العصبية المذهبية التي فرقت المسلمين الى ملل ونحل، أضعفت قوتهم أمام العدو الغاصب، والمبشر الغازي.

الثاني: اجتماعي مصدره الاستجلاب التشريعي، الذي ايقظ الأمة للدفاع عن شريعتها، والتمسك بهويتها، وكانت تجربة التقنين على المذهب الواحد كما في مجلة الأحكام العدلية، ومجلة الالتزامات التونسية طريقا محفوفا بمخاطر الفشل، فنبتت منهجية التقنين مبدأ أصبح من مسلمات الفقه التشريعي الحديث، وهو النظر الى الفقه الإسلامي باعتباره وحدة متكاملة، كل رأي فيها صح دليله تصح نسبته الى الإسلام.

الثالث: سبب علمي يتمثل في نهضة الفقه المقارن في الغرب باعتباره منهجا للفكر القانوني، وعلما في برامج الدرس، وكان له أعلام كبار من أمثال (لامبير) و(كوهلر) و(أولمان)، وكان تأثير هؤلاء في ابناء الإسلام المبتعثين الى الخارج كبيرا، ولكن التأثير الأكبر جاء على يد الأستاذ (لامبير) الذي كان عميدا لمدرسة الحقوق السلطانية في مصر اوائل القرن الماضي، والذي كون نخبة من التلاميذ قدر لها ـ خاصة من خلال العلامة عبدالرزاق السنهوري ـ التأثير في الدراسات المقارنة في مصر والعالم العربي، بل وفي مسيرة التشريع العربي الحديث منذ اوائل العشرينات، ولا يتسع الوقت في ورقة موجزة لكتابة تفاصيل دقيقة في هذا المجال. ولكن الاستاذ (لامبير) ايقظ فقه الشريعة في نفوس طلابه وقال لهم أكثر من مرة (إن لديكم كنزا لا نظير له عندنا هو فقهكم الإسلامي، وإن القانون المقارن الذي تدرسونه بين يدي له مكان مرموق عندكم بإسم علم الخلاف، وبأمثلة بديعة من النقاش المنطقي، والتحليل النافذ، الذي لا يزيد قارئه علما بموضوع البحث فحسب، بل ويربي فيه ذوقا حقوقيا رفيعا يندر أن يحصل على مثله في كلياتنا الحقوقية).

وقد وجه هذا الاستاذ المقارب للفقه الاسلامي من خلال جمعية الطلبة الشرقيين، الذي جعل منزله في ليون مقرا لها، وجه طلابه الى الدراسات المقارنة بين المذاهب فرجعوا الى بلادهم والدراسة المقارنة منهج أصيل في تكوينهم الحقوقي. وليس معنى هذا أنني اغمط حق الدروس المقارنة في الحوزات العلمية وخاصة في النجف الأشرف، بل أردت أن أضع فكرة التقريب في إطارها العقلي والزمني حتى لا تذوب في دوائر التفسيرات البعيدة والتأويل المستكره.

الرابع: أما السبب الرابع والأخير فكان مذهبيا حيث استقبل الأزهر ودار العلوم طلاب علم من أهل العراق والشام، وكان الأزهر يتسع لهؤلاء على تباعد في المكان والأفكار، فقد روى بيرم الثاني - في رسالته التي وضعها عن الأزهر وقدمها الى مؤتمر المستشرقين في هامبورغ في اوائل سنة ١٩٠٢ - الى ان الجراية كانت تعطى للجميع حتى الذين من مذاهب الشيعة، وتفسير ذلك قد يرجع الى تقليد قديم، او الى شروط الواقفين، او الى الأزهر ذاته باعتباره جامعة العلوم الاسلامية، المهم أن هؤلاء الطلاب القادمين من مذاهب غير سنية وجدوا مكانا وعلما. وقد ارسلت الحكومة العراقية عددا من أبنائها الى دار العلوم العليا ورأوا من أساتذتهم ثناء على علماء النجف واعجابا باجتهاداتهم. ولم يأخذوا عليهم إلا انتمائهم الشيعي، وكان ذلك دافعا للشيخ كاشف الغطاء أن يكتب محاولته التقريبية الأولى في كتابه التصحيحي (أصل الشيعة وأصولها) ليرد ما صدر شفهة وكتابة من شبهات حول الفقه الشيعي. والكتاب لقي من الاصداء ما يستحقه، وعلق على طبعته الأولى شيخ العروبة أحمد زكي، فحيا المؤلف، وطلب منه أن يتفضل في الطبعة الثانية بتجريده مما لا يتفق مع الخطة التي انتهجها المؤلف لزيادة التقريب والتوفيق بين الجماعات الاسلامية، مشيرا في ذلك الى ص١، ٢٤، ٢٥، ولعله من أوائل من استخدموا مصطلح التقريب بالمعنى الذي أرادته جماعة التقريب فيما بعد، وقد راجعت ادبيات هذه الفترة، ورأيت أن المؤلفين في تاريخ التشريع وأدب اللغة العربية، يظلمون المذهب الشيعي بل والمذاهب غير السنية جميعها، وأضرب مثالا لذلك ما جاء في الطبعة الأولى لكتاب (آداب اللغة العربية) الذي كان يدرس في دار العلوم سنة ١٩١٦، لمؤلفه الشيخ احمد السكندري، ولكن الصورة سرعان ما تغيرت بعد مزيد اتصال بفقه الشيعة

وعلمائهم بزيارات متبادلة بين علماء العراق ومصر، شملت حتى غير أهل الفقه مثل أحمد أمين، وزكي مبارك، وفي اعتقادي أن لعلماء مدرسة القضاء الشرعي الدور المجهول في هذا التقريب، وليس غريبا - وفق الحقائق التي تنطق بها الوثائق المتاحة لدي - أن يكون اول من كتب في الفقه الاسلامي مقارنا بين المذاهب الاسلامية شيعية وسنية في مصر هو العلامة الشيخ احمد ابراهيم ليحقق حلم الشيخ الإمام، ويشد من ازر زميله العلامة مصطفى المراغي، وفتح الباب بذلك امام تلميذه النجيب العلامة الشيخ محمد أبي زهرة ليكتب بهذه السعة التي انفرد بها ابي زهرة منذ عام ١٩٣٠ عندما عين مساعدا لمدرس بدار العلم بعد تخرجه من مدرسة القضاء الشرعي وظهر ذلك في اول كتاب له عن ادب اللغة العربية اصدره عام ١٩٣٠ واشار فيه بانصاف الى المذهب الشيعي، ثم عاد عام ١٩٣٥ وهو يكتب دراسته في الوقف، بعد ان عين في كلية الحقوق، ليجعل المذهب الشيعي الإمامي واحدا من المذاهب التي يعتمد عليها في الدراسة الفقهية المقارنة.

لقد كان الشيخ احمد ابراهيم هو الذي انصف مذهب الشيعة في التأليف المعاصر في مصر في كتبه الاصولية والفقهية، وفيما كتبه من مقالات وأبحاث خاصة في الميراث، وفي مذكرته الصغيرة عن تاريخ التشريع، وحقق الانفتاح منذ بداية العشرينات على المذاهب غير السنية، اعلاما ومؤلفات، وتم تصحيح موقعها في دراسات تاريخ التشريع، وسار على نفس الدرب تلاميذه من بعده وفي مقدمتهم محمد أبي زهرة الذي حمل على عاتقه دراسة المذهب الامامي اصولا وفروعا في كتابه عن الإمام جعفر الصادق وكتابيه في الميراث واصول الفقه عند الشيعة الجعفرية، وهي كتابات تناولها اخواننا الشيعة بالثناء والنقد والمراجعة، وهكذا نشأت فكرة التقريب بين المذاهب في مصر باعتبارها الأرض الفكرية الاكبر استعدادا لنشأة هذا الاتجاه.

لقد اتسعت مدارس الفقه فيها لاستقبال التيار الجديد ورعايته، واتيح للشيخ شلتوت في هذا المجال ما لم يتح لزملائه. فقد كان محل ثقة الشيخ المراغي واعتمد عليه في تأسيس مادة مقارنة المذاهب.

١. فكرة التقريب

كان الشيخ المراغي مشغولا بمعركة الازهر بأبعادها السياسية، والاصلاحية، وكان الشيخ محمود شلتوت من أكبر مناصريه، ناصره في مذكرة الاصلاح وكان أول الكاتبين للرد على ناقديه، وناصره في قوانين الاحوال الشخصية وكان يفتي بمثل ما يراه، وناصره فيما كتبه عن ترجمة القرآن، وكتب في مجلة الأزهر عدد صفر ١٣٥٥ هـ بحثا اصوليا دقيقا يحسم فيه قضية الترجمة ويجعل اجازتها فوق مستوى الشك.

فلم يكن افضل من الشيخ محمود ليكون رائد التأليف والتدريس لمادة المقارنة بين المذاهب في كلية الشريعة بعد أن انشئت الكلية واصبحت مقارنة المذاهب من مقرراتها الرئيسية، واللافت للنظر أن المقارنة التي حددتها اللائحة الجامعية عام ١٩٣٥م هي مقارنة بين المذاهب الأربعة واعتبر ذلك تجديدا له شأنه في مجال الدرس الفقهي، ولكن العلامة محمود شلتوت لم يتقيد بمفردات الدرس وإنما انفرد بمنهجه، واستقل بمفردات من صنعه هو، يقول وهو في (مشيخة الازهر).

ولا أنسى أني درست المقارنة بين المذاهب بكلية الشريعة بالازهر، فكنت أعرض آراء المذاهب في المسألة الواحدة، وأبرز بينها مذهب الشيعة وكثيرا ما كنت ارجح مذهبهم خضوعا لقوة الدليل.

وهكذا بدأت فكرة التقريب بين المذاهب تدخل في المنهج الدراسي منذ بدأ الشيخ محمود شلتوت يدرس في القسم العالي بكلية الشريعة أي منذ اوائل الثلاثينيات، وكان الشيخ وقتها، على صلة بفقه الشيعة من خلال متونه الأصلية، وبعلماء الشيعة لقاء ومراسلة، وكانت صلة الشيخ محمود شلتوت بشيخه عبدالمجيد سليم، والذي كان منزله ملتقى لعلماء الإسلام في كل المذاهب وكان هذا الفقيه الجليل ـ كما قال عنه الشيخ محمود شلتوت (ضليعا في كافة علوم الاسلام، محيطا بمذاهب الفقه اصول وفروعا ـ وقد جعلت هذه الصلة الشيخ محمود شلتوت امينا على فكرة التقريب بين المذاهب، وافادته في ترسيخ مبادئها اكبر فائدة.

والشيخ عبدالمجيد سليم هو الذي رسم الخريطة الأصولية للتقريب بين المذاهب على

نحو يجعلها معقولة فقها، ومقبولة واقعا، ويمكن تلخيص خطوطها فيما يلي:

أ ـ أن كل فريق من أهل السنة والشيعة يرى المجتهد الآخر مأجورا فضلا عن أن يكون خطؤه معفوا عنه، فإذا علم أتباع المذاهب الفقهية ذلك لم يكن لهم بد من احترام بعضهم بعضا.

ب ـ أن كل واحد من الفريقين يفتح المجال للنظر والاجتهاد وبذل الوسع في معرفة الحق، فليس المرجع في حكم من الأحكام، أو رأي من الآراء الى أنه مذهب فلان او فلان، ولكن الى خطة من الدليل والبرهان.

ج ـ ثبت من استقراء احكام المذاهب الفقهية، وآراء الفرق الكلامية، أن في كل منها خطأ وصوابا، فلا يوجد مذهب خطأ كله او صواب كله، وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي ان تطغى العصبية على المسلمين، بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما اظهر البرهان صوابه.

وهذه المنهجية سرت في الحياة الفقهية في كلية الشريعة تحت رعاية الشيخ المراغي والاشراف المباشر للشيخ عبدالمجيد نفسه الذي كان وكيلا لكلية الشريعة، وهي مهمة قام بها نخبة من العلماء على قمتهم الشيخ محمود شلتوت ومنهم عبدالله المراغي، ومصطفى حبيب، وفرج السنهوري، وعلى الخفيف، وقد عملوا جميعا على تزويد العقلية الفقهية في الأزهر بالروح الاجتهادية المتصلة بكافة المذاهب، والتي تعرف حق جميع الأئمة دون قيد مذهبي، فاستمر الانتماء وتراجع التعصب، وعندما جاء عام ١٩٤٨ حيث اعلن تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب، كانت الأرض قد مهدت لها بانتاج فقهي، وبيئة علمية، جعلتها تسير على أرض ثابتة رغم هجوم يأتيها من هنا ومن هناك، حيث اعتبرها البعض فكرة شيعية، وكان (محب الدين الخطيب) على عادته جارحا في نقده متطرفا في أفكاره، وكان رد (أبو محمد الخاقاني) والمطبوع في قم سنة ١٣٩١ هـ تحت عنوان (مع الخطوط العريضة) عنيفا في نقده غير موفق في بعض ردوده، ولكن الفكرة كانت قد ترسخت، فسرت في نصوص التشريع، ومقررات الدراسة، وكتابات الفقهاء.

٢. الشيخ شلتوت وفكرة التقريب

لا تعدو الحقيقة إذا قلنا إن الشيخ شلتوت قطع بفكرة التقريب اشواطا لم يقطعها غيره، وحقق انجازات لم يقم بها احد سواه، ليس فقط في مجال الكتابة في الفقه المقارن، بل وهذا هو الأهم في مجال التنظير الاعتقادي، والتنظيم المؤسسي، حتى صدر كتاب يهاجمه في ذلك تحت عنوان (تنبيه العوام لانحراف الشيخ شلتوت عن الاسلام) ولم يكن الشيخ ممن يعبأ بالهجوم، ولا يعنى نفسه بالرد، وإنما يسير في طريقه. ويمكننا تلخيص انجازات الشيخ محمود شلتوت في مجال التقريب بين المذاهب فيما يلي:

أ ـ اهتمامه ـ كما قلنا منذ عام ١٩٣٦ بالمقارنة بين المذاهب، واتسعت المقارنة عنده لتشمل مذاهب الشيعة، والفقه المقارن كما يقول الشيخ محمد محمد المدني ـ أحد فرسان التقريب والساعد الأيمن للشيخ شلتوت ـ هو الفقه على الحقيقة، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة، أما الحافظ للفروع الذي لا يعرف إلا سرد الأحكام فما هذا بفقيه، ومن لم توجد عنده ملكة العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية لا يعد فقيها ولو حفظ أحكام الفروع، ومن وجدت عنده الملكة ولو في بعض المسائل فهو الفقيه، وقد سئل الإمام مالك عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع منها، وقال في ست وثلاثين: لا أدري! ولم يمنعه ذلك من أن يكون فقيها لأن ملكة الفقه وجدت عنده.

ثم إن هذه الدراسة على هذا النهج قائمة على أيدي العلماء في كل عصر، وكتب المذاهب عامرة بها، وكتب الحديث والتفسير والأصول والأمهات، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحاتها، وكم رجح المالكي قولا للشافعي، ورجح الحنفي قولا لغير أبي حنيفة، واصحاب أبي حنيفة وتلاميذه ومن ينتسبون اليه كثيرا ما يقررون غير ما قرره الإمام، لضعف مأخذه عندهم، أو لانكشاف دليل لهم لم ينكشف له، وكذلك أصحاب الأئمة وأتباع المذاهب.

ولاشك أن هذا منهج مستقيم من الناحية العلمية الفقهية، ومن الناحية الاسلامية.

فأما استقامته من الناحية الفقهية فلأن الفقيه المنصف الذي لا هدف له إلا البحث عن الحق، لا يسعه أن يغض الطرف عن قول قاله مجتهد في المسألة التي يبحثها، ما دام لا يصادم

نصا قطعيا من كتاب او سنة، ولا يسعه ان يعرض عن دليله، فقد يكون هذا الدليل سليما، ولو أن فقيها باحثا ارتضى لنفسه أن يغض النظر عن قول غيره ودليل غيره، لكان من الذين قال الله فيهم (ألا إنهم يستغشون ثيابهم ليستخفوا منه) ولاشك أن منهجه حينئذ لا يكون إلا منهجا فاسدا غير معتد به من العلماء.

وأما استقامة هذا المنهج من الناحية الاسلامية، فلأن المسلمين أمة واحدة لا ينبغي التفريق بينهم، بل ينبغي أن ينظر كل فريق منهم الى الفريق الآخر على أنهم جميعا إخوة متعاونون على معرفة الحق، والعمل به، ولا يستقيم ذلك إلا إذا كان أهل القبلة جميعا، وأهل الدين الواحد، والأصول المشتركة احرارا في الادلاء بآرائهم ما دامت في الدائرة الاسلامية، وقد اسفر هذا الاتجاه بعد تأسيس لجنة التقريب بين المذاهب الى ما أطلق عليه مشروع - شلتوت - القمي، والذي استهدف جمع الاحاديث النبوية، ومراجعة السنة المطهرة والتي اتفق عليها علماء الشيعة والسنة، لتكون مصدرا لأبناء الإسلام على اختلاف مذاهبهم الكلامية والفقهية، وهو مشروع لم يقدر له أن يكتمل، ولعل ما قدمه العلامة اليمني علي بن اسماعيل الصنعاني، في كتابه (رأب الصدع)، والذي صدر في ثلاثة مجلدات شرحا وتخريجا وتحقيقا لأمالي الإمام احمد بن عيسى، لعل هذا الكتاب يكون إحياء جزئيا لمشروع شلتوت - القمي، خاصة وأن صاحب الكتاب كان العضو الزيدي في دار التقريب بين المذاهب.

ب - فتواه بجواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية، وهي فتوى كان لها صداها في العالم الاسلامي، وقد كتب إليه بعدها الشيخ احمد عارف الزيني صاحب مجلة العرفان قائلا: (فأنا بإسم علماء الشيعة جميعا في لبنان وسوريا والعراق وايران، أمد يدي مصافحا وأفتح قلبي وصدري داعيا ومؤيدا، وأعدكم أن أعمل في مجلتي، وبنفوذي الديني والدنيوي للوصول بكافة الطرق الى ما تصبو اليه نفسك ونفسنا من العودة بالمسلمين جميعا الى جوهر الدين وتعاليمه السامية، الى كتاب الله وسنة رسوله لا فرق بين سني وشيعي).

فرد على رسالته الشيخ شلتوت قائلا: إن المسلمين يا أخي قد استناموا في كثير من حقب تاريخهم الى سوء حالهم الناجم عن فرقتهم وتقطيع الروابط بينهم، والاستجابة الى نداء عدوهم الماكر المتربص بهم، وقد طال عليهم الأمد في ذلك حتى ضعفوا واستكانوا وظنوا

أنهم قد احيط بهم، لولا أن قيض الله لأمة الإسلام في كل شعب قادة مصلحين ودعاة راشدين .. فكانوا يبصرونهم بعاقبة أمرهم، ويدعونهم الى اصلاح ذات بينهم، والى الوقوف صفا واحدا أمام أعدائهم المهاجمين لبلادهم وثقافتهم ودينهم، وشاء الله ان تنبعث فيهم (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية)، تلك الجماعة التي عرفت كيف تشخص داء المسلمين، وكيف تصف لهم الدواء، فكنت والحمد لله من مؤسسيها الأولين، ووجهت معها نداءها الأعظم المستمد من كتاب رب العالمين (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)، فاستمع اليه الشيعي والسني، واستجاب له العربي والعجمي، وتبادل العلماء في كل شعب رسائل العلم، ورسائل الدين، يبحثونها في ظل الأخوة الإسلامية التي أثبتها الله في كتابه للمؤمنين، لا يهدفون إلا الى الحق، ولا يريدون إلا الوصول الى حكم الله الذي هم به جميعا مؤمنون، لم يعد يقام للعصبية وزن، ولا يحسب للشقاق المذهبي حساب.

لقد كان التقريب بين المذاهب على منهج واضح هو محور فقه الشيخ وعمله وهو ما عبره الشيخ محمود شلتوت بعباراته البليغة (لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها في أمور كثيرة، ولقد تهيأ لي بهذه الأوجه من نشاط العلمي أن أطل على العالم الاسلامي من نافذة مشرقة عالية، وأن أعرف كثيرا من الحقائق التي كانت تحول بين المسلمين واجتماع الكلمة، وائتلاف القلوب على أخوة الإسلام، وأن أتعرف الى كثير من ذوي الفكر والعلم في العالم الإسلامي، ثم تهيأ لي بعد ذلك وقد عهد إلي بمنصب مشيخة الأزهر أن أصدر فتوى في جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر، والمتبعة لسبيل المؤمنين ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وهي تلك الفتوى المسجلة بتوقيعنا في دار التقريب، والتي كان لها ذلك الصدى البعيد في مختلف بلاد الأمة الاسلامية، وقرت بها عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة، ولم يكن الشيخ شلتوت يوم إصداره الفتوى إلا معلنا عما كان يمارسه منذ مارس الافتاء، يقول الشيخ عن ذكرياته وهو يتصدر للافتاء، ولا أنسى أني كنت أفتي في كثير من المسائل بمذهب الشيعة، وأخص منها بالذكر ما نجد الناس في حاجة ملحة إليه وهو فيما يختص بالقدر المحرم من الرضاع، كما أخص بالذكر

ما تضمنه قانون الأحوال الشخصية الأخير ونذكر على سبيل المثال المسائل الآتية:

- الطلاق الثلاث بلفظ واحد فإنه يقع في أكثر المذاهب السنية ثلاثا ولكنه عند الشيعة يقع واحدة رجعية، وقد رأى القانون العمل به.

- رأى قانون الأحوال الشخصية أن الطلاق المعلق منه ما يقع ومنه ما لا يقع تبعا لقصد التهديد أو قصد التعليق، ولكن مذهب الشيعة يرى أن تعليق الطلاق مطلقا قصد به التهديد او التعليق لا يقع به طلاق، وقد رجحت هذا الرأي وكثيرا ما أفتيت به.

ج. دراسة الفقه بجميع مذاهبه المعروفة

كان انجاز الشيخ مصطفى المراغي في الثلاثينيات يتمثل في الالزام بمادة المقارنة بين المذاهب، ولكنها مقارنة على المذاهب الأربعة، على الرغم من أن الشيخ المراغي لا يرى التقيد بها وحدها، ولكن الموقف الرسمي لم يستوعب أكثر من هذا التعديل، وهو في وقته ثورة علمية بكل المعاني، وانتظرت الأمة ربع قرن حتى تصبح المقارنة بين جميع المذاهب الفقهية قرارا جماعيا، دون أن نعزل هذا القرار عن جهود سابقة لعلماء التقريب بين المذاهب قبل الانشاء الرسمي للجماعة وبعدها، تمثل ذلك، في انتصار فقهاء الإسلام في المؤتمرات الدولية للفقه المقارن، والذي اعتبر الشريعة الإسلامية بمذاهبها المختلفة من العائلات القانونية المعترف بها، وظهرت الدعوة الى موسوعة فقهية دخلت فكرتها حيز التنفيذ لأول مرة في مشروع كلية الشريعة بدمشق لموسوعة فقهية جامعة، وجاء الشيخ محمود شلتوت وهو على رأس الأزهر المعمور ليصل بهذا الاتجاه الى غايته، ويعلن انتهاء زمن العصبية المذهبية حيث عرف المسلمون - على حد تعبير الشيخ شلتوت - أن اختلاف الاشقاء لا يمكن أن يدوم او يطرد، فلابد أن يأتي يوم يحققون فيه نسبهم الى أبيهم، وينتمون فيه الى أصلهم الذي انبثقوا منه وتفرعوا عنه، وأخذت هذه الروح تنمو، وتضيق شقة الخلاف بين أهل المذاهب، حتى اقتدى الحنفي بالشافعي، والسني بالشيعي، وتبودلت المنافع بينهم، واتصلت الآراء وأخذ كل ينتفع بما في مذهب الآخر، ومن هنا قر رأيي على أن أعمل على دراسة الفقه الاسلامي في كلية الشريعة بجميع المذاهب الفقهية المعروفة، الأصول البينة المعالم، والتي من بينها دون شك مذاهب الشيعة، إمامية وزيدية، ولاشك أن هذه الخطوة تأكيد للتقريب بين المذاهب من

ناحية، ودعم لرسالة كلية الشريعة من ناحية ثانية. وهي خطوة طالما دعا اليها فقهاء أعلام، فقد كتب الشيخ محمد أبو زهرة في عام ١٩٥٤ وهو يقدم لرسالة (المصلحة في التشريع الإسلامي) يقول (لقد آن لنا أن ندرس الثروة الفقهية الاسلامية كلا لا يقبل التجزئة، فندرس ما عند الشيعة من ذخائر العلم والفقه. كما درسنا ما عند غيرهم، فهو تراثنا. وهو تراث الإسلام، نختار أجوده، ونزجي زيفه، لا يهمنا إلا جيد القول فنلمسه ونبحث عنه أيا كان قائله. ولقد ابتدأ استاذنا المرحوم احمد ابراهيم بهذه الدراسات المقارنة فلم يفرق في دراسته بين سني وشيعي وخارجي) هذا ما يقوله الشيخ أبو زهرة معبرا عما ينقص الدراسات الفقهية، ولو امتد عمر الشيخ احمد ابراهيم المتوفى عام ١٩٤٥ الى حين تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب لكان من أوائل المؤسسين كما كان صاحب المنهج العلمي العملي في التقريب بين المذاهب. ومنهج كلية الشريعة في دراسة مذاهب الشيعة كان خاضعا لعلم الفقه المقارن، فالذي قرره الأزهر بقرار الشيخ شلتوت، ليس دراسة مذهب الإمامية والزيدية على سبيل الاستقلال، وإنما ادخال هذين المذهبين في منهج الفقه المقارن.

ودراسة الفقه المقارن تقوم على أساس ضروري، هو أن يدخل الباحثون فيها غير متأثرين بحكم سابق ضد هذا المذهب أو ذاك. ولذلك يجب أن يخلع الباحث العلمي ثوبه المذهبي قبل أن يدخل قاعدة الدرس، وإلا كان الزعم بأن ما يفعله مقارنة بين المذاهب زعما غير صحيح، وما قرره الأزهر من الاكتفاء بدراسة مذهبي الإمامية والزيدية ضمن منهاج الفقه المقارن، لم يكن مرجعه - كما يقول الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة وقتئذ - أنه يستنكر دراسة هذين المذهبين على سبيل الاستقلال، ولكن لأن الدراسة الجامعية الاصيلة هي الدراسة المقارنة، وليس ما يهم الأزهر أن يزيد مذهبا على مذاهبه الأربعة، كي يدرس مثلها على سبيل الاستقلال، بل لعله يرمي الى مستقبل تكون فيه جميع الدراسات الفقهية في كلية الشريعة، وأقسام التخصص بها دراسات مقارنة.

ولم تكن هذه فقط انجازات الشيخ شلتوت في مجال التقريب، بل إنه كان داعية لنشر التراث الاثني عشري، فقد كتب مقدمة (مجمع البيان) عند نشره، وهو التفسير الدقيق للإمام أبي الفضل الطبرسي احد كبار الشيعة الإمامية. ونشرت وزارة الأوقاف في عهد

مشيخته للأزهر كتاب (المختصر النافع) في الفقه الإمامي، وكانت دار التقريب في بداية عملها نشرت كتاب (الروضة البهية) لزين الدين العاملي، والكتاب يضم بين ثناياه فقه الاثني عشرية من خلال الشهيدين الأول والثاني.

ولو أردنا أن نلخص أثر التقريب في مجال الفقه على السنة والشيعة، لوجدنا أثره في مجال الفقه السني يتمثل في التأكيد على مبدأ الاجتهاد وتوسيع دائرة الفقه الواقعي الذي يلائم مصلحة الناس، ويلبي مطالب التشريع، بعد الخروج من ضيق المذهب الواحد، الى سعة المذاهب الاسلامية المتعددة، أما أثره في مجال الفقه الشيعي فنجده في تجاوز العزلة التي أدى اليها حصر المذاهب في الأربعة السنية المعروفة، وهو حصر أدى ـ كما قال العلامة تقي الدين القمي ـ ببقية المذاهب الى الاعتزال او الاندثار، وكان الاعتزال من نصيب المذهب الشيعي الذي مكنه التقريب من تجسير الفجوة، وانهاء المقاطعة التي عزلت هذا الفريق الكبير من المسلمين عن بقية أخوانهم، ثم مكنت فقه الفريقين من مقاومة الاستجلاب التشريعي، والغزو الثقافي وما أجلها من مهمة وما أصعبها ايضا.

د. التقريب بين ثقافة الأمة

هناك بعد غائب عند الدارسين لفكرة التقريب عند الإمام محمود شلتوت، وهو بعد يتجاوز التقريب بين المذاهب الاسلامية في مجال الفقه، ليكون دعوة الى التقريب بين مناهج التعليم في مصر ليحتل الاسلام فيها مكانا محوريا. وهذا البعد الغائب صرح به الإمام في محاضرة مجهولة ألقاها مساء الأربعاء الموافق ٣٠ اغسطس سنة ١٩٥٠ حيث كان يرأس وفد الأزهر في المؤتمر الثقافي العربي الثاني. في هذا المؤتمر طرحت فكرة إلغاء التعليم الديني وتوحيد مرحلتي الابتدائي والثانوي في الأمة بدعوى التقريب بين فئات الأمة في عقلياتها وتفكيرها، فتصدى العلامة محمود شلتوت للفكرة في مهدها، يقول الشيخ (ليس من شك في أن تقريب الأفكار في الأمة الواحدة، بل في العالم كله، عامل قوي من عوامل السعادة، ألا وإنه ليس من مقتضيات التقريب في الأمة القضاء على الخطوات التي لابد منها في الإعداد الديني الخاص، والذي تطلبه سعادة الشرق خاصة، وسعادة الإنسانية عامة. وليس من مقتضياته ـ أي التقريب ـ أن يدفن تراث هو عصارة أربعة عشر قرنا من تاريخ الإنسانية الفاضلة، وأخيرا

ليس من مقتضياته القضاء على شريعة لم يتح لعقل بشري الى الآن أن ينظم شؤون الإنسان بمثل ما نظمت وتنظم به هذه الشريعة. وقد شهد بذلك مشرعوا الشرق والغرب، وإن كنا عن شهادتهم غافلين، والذي أراه حقا من مقتضيات هذه الغاية النبيلة، غاية التقريب بين الأفكار في الأمة الواحدة ـ وهو في الوقت نفسه يكون عاملا من عوامل الإعداد للمواطن الصالح ـ هو أن نضمن مناهج التعليم العام في كل مراحله بعض المواد مما يتصل بالدين على صورة تتناسب وعقليات الطلاب وتطورهم الذهني تبعا لمراحل النمو والاكتمال، وما دمنا نرى وجوب أن يتضمن منهاجه الابتدائي والثانوني بالمعاهد الدينية المواد التي تمثل جانبا صالحا من أصول المعارف الإنسانية، وتكون عاملا للتقريب من جهة أبناء هذه المعاهد ـ يقصد المعاهد المدنية ـ يكون من ظلم هؤلاء الذين يتجهون الى التعليم العام في سنهم المبكرة، ومن ظلم فكرة التقريب من جانبهم، ومن ظلم أسرهم وأممهم بهم، أن يخلو مناهجهم ما يغرس فيهم روح التدين الراقي من طغيان المادة عليهم وعلى ذويهم وكفانا شرا ما وقعنا فيه ـ تقليدا لغيرنا ـ من المنهاج التعليمي الجاف. والذي يحاول اقتلاع العقيدة من القلوب، ويحاول قطعا عن ماضينا الذي تمتد من اصوله فروع حضارتنا وثقافتنا وحياتنا ... إن العالم يسوده الآن طغيان المادة في جميع جوانبه، ويسوده التعصب الشخصي او الطائفي او الجنسي في كثير من هذه الجوانب. وكلا الأمرين ـ طغيان المادة والتعصب ـ من أقوى أسباب التناكر والتخاذل بين الشعوب والأفراد، والتناكر والتخاذل سببان قويان لما يتقلب العالم اليوم في جمر من ويلات شديدة متلاحقة.

وإن تربية لا تهدف الى توازن القوى المختلفة، في الفرد والجماعة، لهي تربية تقوم على اعتبارات تقليدية فاسدة، او نظريات فلسفية عقيمة لا تمت الى واقع الأمر في الإنسان، فرده وجماعته، ولا منفذ للعالم من هذا الشر المستطير إلا بأن يتضامن الشرق مبعث الهدى والنور على تركيز الروح الديني في النفوس، وإنماء الناحية المعنوية في العالم).

وهذه الكلمات المضيئة التي أطلقها الإمام محمود شلتوت منذ نصف قرن، نحن بحاجة الى تذكرها في عصر العولمة، وقد خرج الشيخ شلتوت من معركة هذا المؤتمر منتصرا للمعنى الحق للتقريب في مواجهة التغريب، وفاز بقرار فتحت فيه لأول مرة الجامعات المدنية أمام

حاملي العالية من أبناء الجامعة الأزهرية، وأعلن الأزهر ساعتها عن التفكير في انشاء معهد للفقه المقارن يقوم على الدراسة الحرة الخالية من التعصب لمذهب بعينه، لينتفع بآثار الاجتهاد، مما يحفز العقل البشري على التقدم لخدمة الإنسانية.

ولعلي أقترب من فهم هذا الاقتراح إذا قرأته في ضوء مذكرة مقدمة الى اللجنة القانونية بجامعة الدول العربية لانشاء معهد للفقه الاسلامي من أهدافه دراسة الفقه الاسلامي مقارنا في مذاهبه المختلفة، ولم يتح للأزهر أن ينشئ للفقه المقارن معهدا، ولكن دراسة الفقه المقارن اتسعت فيه لتصبح قسما كبيرا في مرحلة الليسانس، ويمنح الماجستير والدكتوراه في الفقه المقارن، أما معهد الفقه الإسلامي فقد انشئ بعنوان اوسع هو معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، وقام فيه قسم شرعي قوي، أولاه رعايته الدكتور عبدالرزاق السنهوري، واختار له نخبة من علماء الفقه الاسلامي كتبوا فيه دراسات مقارنة لا تزال مراجع يعتد بها في بابها، وتحققت فيه الدراسة الفقهية الحرة التي رنا اليها الشيخ محمود شلتوت، وأعضاء جماعة التقريب، ونذكر من هذه الدراسات أبحاث الشيخ محمد أبي زهرة وأبحاث عبدالوهاب خلاف، وعلي الخفيف، ومحمد يوسف موسى.

وهكذا انتصر فقه التقريب، ووجد في مصر ارض الإسلام والعروبة، البيئة الخصبة التي لا تنمو الفكرة إلا في ظلال سماحتها الوارقة الظلال، ومن خلال نخبة من أفذاذ العلماء تعتز بهم السلسلة الذهبية لعلماء الإسلام، وقد انعكست على مرآة الشيخ محمود شلتوت آراء هؤلاء جميعا، لأنه كان يعرف اقدارهم سنة وشيعة. ويذكر الجميع بالخير، ويتمنى لو تحدث عن علماء كبار قدمهم الفقه الشيعي فكانوا من أئمة الفكر في العالم الإسلامي، ومن أعلام جماعة التقريب، وفي مقدمتهم، كما روى الإمام محمود شلتوت، الإمام الأكبر الحاج آقا حسين البروجردي، والمغفور لهما الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، والسيد عبدالحسين شرف الدين، والعالم المجاهد تقي الدين القمي الذي أبلى بلاء حسنا في اقامة صرح التقريب إدارة وكتبا ونشرا.

وتبقى كلمة أخيرة في هذه الورقة الموجزة

لقد حاول خليل علي حيدر في كتابه (تيارات الصحوة الدينية) ربط دار التقريب إنشاء

وغاياتا بمناسبات سياسية، وليس في وثائق الفكرة، وسجلات المؤسسة ما يدعم دعوى عريضة كهذه، بل إن هذه الدار في سياقها الفكري وليد طبيعي لبيئة ملائمة، وعلى أرض هيأت لها مقومات النجاح، وقد تجاوزت المعارك الخاسرة للتعصب المذهبي الضيق الأفق - على حد تعبير علي شريعتي - وآثار دعوة التقريب ستظل فاعلة باقية، بما يتاح من كتب، وما صدر من موسوعات فقهية، وما أنشئ من معاهد دراسية، لقد تحولت من فكرة الصفوة الى حياة المجتمع، وأظنها امتزجت بحياته العقلية مركبا لا يقبل الفصل او التجزئة، وأحسب أن الشيخ محمود شلتوت، وجسده الطاهر يرقد في تراب الكنانة الخالدة. يرسل من وراء الغيب تحية لايران ومصر وقد تلاقت خطواتهما الواثقة من أجل حياة أفضل للمسلمين في عالم لا يعترف إلا بالأقوياء.

والسلام عليكم ورحمة الله

دور الأزهر في حركة التقريب

بين المذاهب الاسلامية

الدكتور عبد المعطي محمد بيومي

عميد علية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة / وعضو مجمع البحوث الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام – كما هو معروف – دين عالمي، وعقيدته عقيدة أممية تنشئ أمة واحدة مع الاعتراف بخصائص الشعوب الثقافية الا أنها تصهر الشعوب في اطار واحد على أسس واحدة من العقيدة ومن الشعور بالوحدة والانتماء.

فأساسيات العقيدة الإسلامية لا تصادر التعددية لأن اطارها يحتوي كل خصائص الانسان وثقافات الشعوب ولا يجعل من هذه الخصائص الفردية أو الثقافات الشعبية او العادات والتقاليد عوامل تفرقة.

واذا شئنا قلنا دون أن نعدو الحق ان الاسلام يقدم نظاما يقوم على نظام التعدد في اطار الوحدة أو التنوع في اطار العموم.

فنرى الله تعالى يقول: «وان هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون» (الأنبياء) .

فالايمان بالوحدانية لله والنبوة الخاتمة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والايمان بالبعث والنشور في اليوم الآخر ايمان يتسع لمفهوم الامة الواحدة ولا يتعارض مع أي ثقافة تؤمن بهذه الأسس الوحدانية – الرسالة – اليوم الآخر وتترك بعد ذلك للانسان وللشعوب في هذا الاطار أن تتمذهب بما تشاء دون حرج ودون خروج على مفهوم الأمة الواحدة. وهذه بدهية من بدهيات الاسلام، وامكانية كبرى من امكانيات التوحيد والعالمية للبشر والرسالة.

وقد عمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على تأكيد هذه السمة وتركيزها في المجتمع الاسلامي بكل ما استطاع من وسائل الدعوة والبناء للأمة.

ولنأخذ من عمله (صلى الله عليه وسلم) مظهرين أساسيين في هذاالمجال:

توحيده (صلى الله عليه وسلم) على أساس مفهوم الأمة في أول عمل له لاقامة الدولة

الإسلامية في المدينة عن طريق:

ـ مؤاخاته اولا بين المهاجرين والانصار، وازاحة الخلافات والنعرات القديمة بين الأوس والخزرج، وطرحه للعصبية الجاهلية التي كانت تفرق بينهم على أساس قبلي طائفي وقال عن هذه العصبية الجاهلية «دعوها فانها منتنة».

ـ ادخاله عليه الصلاة والسلام في عقد الوحدة للأمة غير المسلمين في مفهوم الأمة الواحدة بالوثيقة التي أبرمها (صلى الله عليه وسلم) مع يهود المدينة وجعلهم ضمن الأمة الواحدة مع احترام رغبتهم فيما يدينون وتركهم عليه.

أورد ابن هشام في كتابه «السيرة النبوية» قال:

قال ابن اسحق «كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم، واشترط عليهم».

ثم أورد نص الكتاب: فقال «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي (صلى الله عليه وسلم) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس.

وجاء فيه «وان ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

كما جاء فيه «وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عزوجل، والى محمد (صلى الله عليه وسلم)، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، الا من ظلم وأثم، فانه لا يوتغ (يهلك) الا نفسه وأهل بيته، وان ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف، وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

وراحت الوثيقة تعدد قبائل اليهود، وتعطيهم ما تعطى لبني عوف.

ولكن الذي يلاحظ في الوثيقة بعد ذلك تأكيده (صلى الله عليه وسلم) وتكراره على أن أي حدث أو اشتجار بين أهل الصحيفة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض أو بين المسلمين

واليهود أو بين اليهود واليهود ممن شملهم مفهوم الأمة الواحدة في هذا النص المبكر في تاريخ الاسلام يجب أن يعود فيه المشتجرون حتى قبل فساد مابينهم ووصوله الى مرحلة يتعذر معها الاصلاح أن يردوه الى الله عزوجل. والى محمد (صلى الله عليه وسلم). فيطرحوا خلافهم على القرآن والسنة فينزلوا جميعا على حكم الله فيما شجر بينهم جاء في الوثيقة: «... وانه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فان مرده الى الله عزوجل، والى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره».

ومضى المسلمون أمة واحدة على هدي هذه الوثيقة بعد هدي الله سبحانه في قوله «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» وقوله سبحانه «وما اختلفتم فيه من شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» وقوله تعالى «وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله».

لعلنا نلاحظ تكرار القرآن الكريم وتأكيده على الرجوع الى الله ورسوله عند اشتجار المؤمنين واختلافهم في أي شيء والأخذ بما يقول الله ورسوله في موضع الخلاف الذي يتنازعون فيه.

لكن الأمور لم تمض على هذا النحو طويلا، فانصدعت الوحدة الإسلامية بدءا من عهد عثمان (رضي الله عنه) ومرورا بعهد على كرم الله وجهه وما تلا ذلك من عهود انشعبت فيها الآراء وتشققت المذاهب وذهب كل فريق مذهبا لا يلوي على الآخر. وعمد أصحاب المذاهب الى القرآن والسنة يطوعون آيات الله ويخضعون أحاديث رسوله الى مذاهبهم، ويضربون الكتاب بعضه ببعض، ويقتل بعضهم بعضا مع نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك في آخر بيان عام له يوم حجة الوداع «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

وكان المذهبان الكبيران اللذان برزا من هذا الخلاف هما مذهبا أهل السنة والشيعة، وقد

جرت بين أتباعهما مقاتل كثيرة أضرت بهم جميعا كما أضرت بمفهوم الأمة الواحدة، ومكنت لأعداء الاسلام والمسلمين الشيء الكثير في الماضي والحاضر خاصة بعد ما أنهكت الحروب والمقاتل الداخلية الأمة الإسلامية ومكنت لأعدائها المتوالين عبر التاريخ من التتار والصليبيين وحملات الاستعمار وهي جديرة في حال استمرارها أن تمكن من الأمة الإسلامية حملات التغريب المستمرة منذ قرون، وحملات العولمة وما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

ومع أننا لا نريد بهذه المناسبة أن ننكئ الجراح القديمة بأن نسرد بعض تفاصيل هذا الصراع المقيت ولا أسسه المذهبية فاننا نريد أن نذكر هنا بالفضل والاشادة أن هذا الصراع المذهبي الدامي لم يخل من أناس كبار النفوس والقلوب وكبار العقول كان لهم من سماحة الصدر ورحابة الأفق وسعة العلم والحدب على الأمة حاولوا التوفيق في الخلاف والتقريب بين المسلمين لترد الأمة ما اشتجرت فيه الى الله ورسوله ولتتفرغ جهودها الضائعة في الخلاف فيما بينها الى التوحيد والتركيز في مقاومة مايتحداها من خارجها وهو أولى بالمقاومة وأجدر بتجميع الصفوف وتوحيد الجهود.

من هؤلاء الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الامام محمد عبده.

فقد كان الرجلان أسرع من تنبها الى ضرورة توحيد الأمة في مقاومة الاستعمار بشتى أشكاله السياسية والثقافية والاجتماعية والعسكرية، وأن هذا التوحيد لن يتحقق الا بالاتفاق على الأصول العامة للاسلام ومبادئه الأساسية التي تحتفظ للمسلم باسلامه ولا يضر بعد ذلك الخلاف فيما سواها لتتوحد الأمة تحت راية الاسلام وتتعاون فيما بينها على صد المحاولات الأجنبية التي تريد أن تستعبد المسلمين في ديارهم وتجتث أصول دينهم من قلوبهم لتتركها فراغا تملؤه بعد ذلك بما شاءت من أهواء وأفكار.

وقد كان جمال الدين يرى أن السياسة في الحقيقة لا الدين هي التي أزكت نار الخلاف بين السنة والشيعة «فالملوك من السنيين — كما قال — هولوا وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت، ليتسنى له بذلك تحزيب الأحزاب، وتجييش الجيوش ليقتتل المسلمون بعضهم بعضا، بحجة الشيعة والسنة،

وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى أمة واحدة).

ولم يكن جمال الدين الأفغاني يرى مبررا — في عصرنا للخلاف بين المسلمين من أجل الخلافة في عصور مضت بكل مافيها.

قال: «أما مسألة تفضيل الامام علي والانتصار له يوم قتال معاوية وخروجه عليه، فلو سلمنا أنه كان في ذلك اليوم مفيدا أو ينتظر من ورائه نفع لاحقاق حق أو ازهاق باطل، فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمة قد خلت ليس فيها الا محض الضرر وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية».

ثم قال: «لو أجمع أهل السنة اليوم، ووافقوا المفضلة من الشيعة من عرب وعجم وأقروا وسلموا بأن علياً بن أبي طالب، كان أولى بتولي الخلافة قبل أبي بكر، فهل ترتقي بذلك العجم أو تتحسن حالة الشيعة؟ أو لو وافقت الشيعة أهل السنة بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الامام علي بحق، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنيين وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان.

أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟ ومن هذا الموت قبل الموت؟

ياقوم وعزة الحق إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعة، اذا هم قاتلوا أهل السنة أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر ، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم، والناس أبناء مايحسنون.

وكذلك أبو بكر، فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه وإن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها، والتي تخالف روح القرآن، الآمر أن يكونوا كالبنيان المرصوص».

ولابد هنا أن نسجل بكل الحيدة والانصاف أن الأزهر كان له الدور الأكبر منذ وقت مبكر منذ بدء الحملات الفكرية الاستعمارية التي أرادت أن تلعب على وتر الفرقة بين المسلمين واستغلال الانقسامات المذهبية والوقيعة بين فصائل الأمة خاصة بين السنة والشيعة.

فالبرغم من أنه قام أصلا على دراسة المذهب الشيعي منذ انشأه الفاطميون في مصر،

وتحولت مسيرته الى دراسة المذهب السني الا أنه في معظم عصوره لم يكن يلجأ الى تكفير المسلمين الا المغالين الذين ينكرون نصوص القرآن أو يطعنون مباشرة في ثوابت الدين أو ينتقصون بالسب أو القذف أحدا من أنبياء الله ورسله أو صحابته المشهود لهم بالعدالة أوالولاية في القرآن الكريم.

والذي يفحص منهج الأزهر عبر تاريخه الطويل في دراسته للعقائد يدرك بوضوح وجلاء أن هذه الدراسة تعتمد على عرض الأقوال والجدل بينها في أمانة وموضوعية في الأغلب الأعم، ويتدخل شيوخه تدخلاً حاسماً كل بقدره عندما تترامى سهام الألفاظ أحياناً في بعض الكتب التي ألفت في عصور تأثرت بالفتنة، أو نضح عليها بعض آثار الانقسام.

ولقد انتج منهج الأزهر عبر تاريخه استعدادا وتهيئ لدى أساتذته وطلابه، لكلمة الحق في المذاهب الاعتقادية والفقهية على حد سواء طالما تجردت للحق وخلت من الغلو والتطرف وبرئت من الأطماع السياسية التي تعلو عليها عقائد الاسلام النقية التي هي فطرة الله التي خلق الناس عليها لأن تلك العقائد التي لا تقبل التطرف والشركة في الألوهية والتزييف في الربوبية كما لا تقبل المادية البغيضة التي لا تعترف بالأديان وما تحتوى عليه من الألوهية والنبوة واليوم الآخر.

ولذلك لم يكن الأزهر بعيدا عن التقريب بين المذاهب الإسلامية بل كان يمارس التقريب في كل يوم في محاضرات أساتذته وشيوخه وتكوين عقول طلابه.

وما أن تلقف دعوة التقريب بين السنة والشيعة على يد مجموعة من كبار علمائهم مثل الشيخ محمد تقي القمي والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء حتى وجدت في أرض الأزهر نبتة صالحة أقبل عليها كبار علمائه من الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر نفسه والشيخ علي الخفيف والشيخ عبد العزيز عيسى والشيخ محمد المدني والشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق وقد كانت جهودهم امتدادا لجهود الشيخ محمد عبده والشيخ محمد مصطفى المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ عبد المجيد سليم وغيرهم.

وقد سارت مدرسة محمد عبده في الأزهر في ضوء هذه القواعد الأساسية التي أرساها

فجعلت من الأزهر أكثر تسامي وموضوعية في وزن وتقييم المذاهب الإسلامية.

ولقد كان للروح الجديدة التي بثها محمد عبده في الأزهر أثر في خلق تيار جديد أكثر اقداما على الاجتهاد والتجديد وادراك الظروف السياسية والاجتماعية الناشئة من الفرقة في الأمة الإسلامية.

وكانت فكرة الشيخ محمد عبده الأساسية في أن عقائد الاسلام الأساسية التوحيد والنبوة والايمان باليوم الآخر اذا وجدت لدى أحد من المسلمين فردا أو جماعة كان على الاسلام الصحيح والدين الحق ولا يضر بعد ذلك الخلاف في الفروع التي وراء الايمان بهذه الأصول.

فهو يقول عن التوحيد ‹‹نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو افراده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعة فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر . . . وأن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء فراق مع الدين وبعد عن سنته، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشرية ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها، وسار الكافة في مراشدهم اخواناً، بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين (رسالة التوحيد ٤٤٦ – الأعمال الكاملة).

ويقول في النبوة ‹‹بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وانه انما يخبر عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديقه والايمان بما جاء به، ونعني بما جاء به ماصرح به في الكتاب العزيز وما تواتر به الخبر تواترا صحيحا مستوفيا للشرائط وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب. عادة في أمر محسوس››.

ومن ذلك أحوال مابعد الموت من بعث ونعيم في جنة وعذاب في نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ماهو صريح في الخبر.

ويقول ‹‹من اعتقد بالكتاب العزيز، وبما فيه من الشراع العملية. وعسر عليه فهم الغيب على ماهي في ظاهر القول، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد

بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة في التليف كان مؤمناً حقاً».

ولقد تنبه لدور الأزهر وضرورة هذا الدور في نجاح حركة التقريب العلامة المصلح الشيخ محمد تقي القمي بعبقريته الفذة وأدرك أن هذه الحركة الاصلاحية لا تنمو نموها الطبيعي الا في تربة الأزهر حيث ينقلها الأزهر بدوره وبتأثيره المتعاظم الى أنحاء الاسلام الرحبة.

فما أن أسس هذه الدعوة مع زملائه في إيران الأئمة الحاج أغا حسين البروجردي ، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي حتى هاجر من إيران الى مصر واتصل بعلماء الأزهر.

وقد وصف الامام الأكبر الشيخ شلتوت عبقرية هذا الرجل في اختيار مصر والأزهر منطلقا لدعوة التقريب فقال:

«كنت أود لو كتب قصة التقريب أحد غير أخي الامام المصلح محمد تقي القمي ليستطيع أن يتحدث عن ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسه ولا عما لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول من دعا الى هذه الدعوة وهاجر من أجلها الى هذا البلد. بلد الأزهار الشريف. فعاش معها والى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله، وظل يتعهدها بالسقي والرعاية بما آتاه الله من عبقرية واخلاص وعلم غزير وشخصية قوية ، وصبر على الغير، وثبات على صروف الدهر حتى رآها شجرة سامقة الأصول باسقة الفروع، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها، ويستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون في هذا البلد وفي غيره».

وكان الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق قد مهد الأجواء لحركة التقريب بمهاجمته القوية للأهواء التي تفرق الأمة. فقد كان يقول: «يجب العمل على ازالة الفروق المذهبية، أو تضييق شقة الخلاف بينها، فان الأمة في محنة من هذا التفرق ، ومن العصبية لهذه الفرق، ومعروف لدى العلماء إن الرجوع الى اسباب الخلاف ودراستها بعيدة عن التعصب يهدى الى الحق في أكثر الأوقات.

ثم يقول: ((أيها المسلمون: غضوا الطرف عن الفروق الطائفية والمذهبية ولا تجعلوا تلك الفروق سببا في الفرقة وسلاحا بين عدوكم يخرب به بيوتكم ولا تخشوا أحدا في اظهار شعائر الاسلام والانتصار له)).

كما كان شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم مقتنعا تماما بوجوب التقريب بين المذاهب الإسلامية ((واسهم بكل طاقاته المادية والروحية في انشاء جماعة التقريب ودعا الى تأييدها بقلمه ولسانه)).

وقد أشاد الشيخ شلتوت رحمه الله بدور سلفيه الراحلين شيخي الأزهر السابقين الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ عبد المجيد سليم فقال: ((كنت أود لو أستطيع أن أبرز صورة الرجل السمح الذكي القلب العف اللسان رجل العلم والخلق المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق. وصورة كصورة الرجل المؤمن القوي الضليع في مختلف علوم الاسلام. المحيط بمذاهب الفقه أصولا وفروعا، الذي كان يمثل الطود الشامخ في ثباته، والذي أفاد منه التقريب في فترة ترسيخ مبادئه أكبر الفائدة، المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم رضي الله عنه وأرضاه)).

وكان الشيخ شلتوت بعد ذلك أكبر دعم لحركة التقريب عن طريق اتخاذه موقفين أساسين في دفع الحركة الى الامام وهما:

١. فتواه وهو شيخ للجامع الأزهر بجواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية لمن يرى صحة ذلك ونص هذه الفتوى: ((قيل لفضيلته: ان بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة الامامية ولا الشيعة الزيدية فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على اطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مثلا؟

فأجاب فضيلته:

١. ان الاسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل نقول: ان لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا، والمدونة أحكامها

في كتبها الخاصة، ومن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل الى غيره — أي مذهب كان — ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

٢- أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات».

وقد بعث الشيخ شلتوت نص هذه الفتوى المهمة الى محمد تقي القمي ليسجلها ضمن وثائق دار التقريب، في خطاب نصه مايلي:

السيد صاحب السماحة العلامة الجليل الأستاذ محمد تقي القمي

السكرتير العام لجماعة التقريب ين المذاهب الإسلامية

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

أما بعد.. فيسرني أن أبعث الى سماحتكم بصورة موقع عليها بامضائي من الفتوى التي أصدرتها في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية، راجيا أن تحفظوها في سجلات دار التقريب بين المذاهب الإسلامية التي أسهمنا معكم في تأسيسها ووفقنا الله لتحقيق رسالتها.

والسلام عليكم ورحمة الله.

٢ـ الموقف الثاني: تقرير دراسة فقه المذاهب الإسلامية الشيعية مع المذاهب السنية في الأزهر وفي كلية الشريعة على وجه الخصوص.

وكانت فكرة الشيخ شلتوت أن يكون من بين ما تعنى به كلية الشريعة في منهجها الجديد دراسة الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية على الأسس التالية:

أولا.. أن تكون الدراسة على مختلف المذاهب، لا فرق بين سنة وشيعة، ويعنى بوجه خاص ببيان وجهة النظر الفقهي، حكما ودليلا، لكل من مذاهب السنة وهي الأربعة المعروفة

والامامية الاثنا عشرية والزيدية.

ثانيا.. يستخلص الحكم الذي يرشد اليه الدليل دون التفات الى كونه موافقا أو مخالفا لمذهب الأستاذ أو الطالب حتى تحقق الفائدة من المقارنة، وهي وضوح الرأي الراجح من الآراء المتعددة، وتبطل العصبيات المذهبية المذمومة.

وفي أصول الفقه يعنى بوجه خاص ببيان المواضع الأصولية التي وقع الاختلاف فيها بين المذاهب الستة السابقة الذكر، مع بيان أسباب الخلاف.

وفي علم مصطلح الحديث ورجاله تشمل الدراسة ما اصطلح عليه أهل السنة، وما اصطلح عليه الامامية والزيدية، كما تشمل دراسة الرجال المشهورين، وأصحاب المسانيد ومسانيدهم، في كل من الفريقين.

هذا بالاضافة الى التوسع في هذه الدراسة تفصيلا في الدراسات العليا بكلية الشريعة .

والواقع أن الموقفين اللذين صدرا من الشيخ شلتوت كانا ترجمة وتطبيقا لبند من بنود العمل في جماعة التقريب حيث كانت تتضمن في لائحتها الأساسية المادة الثالثة.

(العمل على أن تقوم الجامعات الإسلامية في جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتى تصبح جامعات اسلامية عامة) بالاضافة الى نشر الكتب والرسائل، والدعوة بطريق الصحف والمناظرات والاذاعات ، وتبادل النشرات مع الجماعات الدينية والثقافية في مختلف الهيئات الإسلامية.

وقد استقبل الشيخ محمد تقي القمي – شريك الشيخ شلتوت في انشاء دار التقريب – هذا العمل العلمي بالتقدير الشديد فنراه يقول في وصفها «لم تكن الفكرة ارتجالية. بل كانت مبدأ نادت به الجماعة منذ نشأتها فلما قدر لرجل صالح مصلح من رجالها المجاهدين – له مركزه الديني الكبير – أن يجلس على كرسي مشيخة الأزهر كان من الطبيعي أن ينفذ ماعاهد الله عليه لخير الاسلام وصالح المسلمين».

ويقول: «ولقد زلزل هذا القرار كثيرا من الانتهازيين وقضى على آمال كثير من المتربصين، ولكن التاريخ لا يخدع، وقد سجل هذه الخطوة كحدث هام في تاريخ الاسلام

والمسلمين، لم يكن سجل مثله منذ بدأ الخلاف بين الطائفتين الى اليوم».

كما علق الشيخ القمي على اقتران هذه الخطوة العلمية في الأزهر بفتوى الشيخ شلتوت بجواز التعبد بمذهب الشيعة الامامية بأن هذه الفتوى كانت ثمرة يانعة من ثمار التقريب، صدرت من رجل عظيم ذي مركز خطير في الاسلام اعتنق الفكرة من أول يوم وأيدها بقلمه وعلمه ومشكور سعيه في كل مناسبة».

ولم يكن موقف الشيخ شلتوت من حركة التقريب فورة عاطفية أو مجاملة لصديقه الشيخ القمي أو صديقه الآخر الشيخ البروجردي، وانما كان موقفا عقليا نابعا من اقتناعه الذاتي لضرورةالتقريب بين المسلمين وكان على حد ماقال بالحرف — منهجا قويما وايمانا راسخا تجلى في تفسيره للقرآن الكريم الذي استمر ينشره في مجلة رسالة الاسلام التي تصدرها حركة التقريب.

قال: «لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم. وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة كان منها تلك الفصول المتتابعة في تفسير القرآن الكريم التي ظلت تنشرها مجلتها (رسالة الاسلام) قرابة أربعة عشر عاماً، حتى اكتملت كتابا سوياً، أعتقد أنه تضمن أعز أفكاري، وأخلد آثاري، وأعظم ما أرجو به ثواب ربي ، فان خير ما يحتسبه المؤمن عند الله هو ما ينفقه من الجهة الخالص في خدمة كتاب الله .

وقد كانت الدعامة الأساسية التي يقوم عليها منهج الشيخ شلتوت في تفسيره هي: التحرر من التأثر بالعصبيات المذهبية على خلاف مادرج عليه أصحاب المذاهب من تحميل القرآن الكريم لمذاهبهم وتطويع الآيات القرآنية لتؤيد اتجاهاتهم.

قال الشيخ شلتوت: «حدثت بدعة الفرق والتطاحن المذهبي والتشاحن الطائفي وأخذ أرباب المذاهب وحملوا رايات الفرق المختلفة يتنافسون في العصبيات المذهبية والسياسية.

وامتدت أيديهم الى القرآن فأخذوا يوجهون العقول في فهمه وجهات تتفق وما يريدون» .

ويقودنا البحث بطبيعة الحال الى سر تفاعل الشيخ شلتوت وانعطافه بهذه الدرجة مع حركة التقريب وتأييده لها. ونرى أسباب ذلك في عدة عوامل:

١ـ ان الدعوة نفسها منبثقة من آية كريمة فعدها حركة التقريب هي أساس الحركة ومنهجها وثمراتها وهي قوله تعالى «انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون».

فالجملة الأولى من الآية الكريمة تقر حقيقة الأخوة الايمانية على سبيل الحصر «انما المؤمنون أخوة» وهي شبيهة في هذا الأسلوب – كما تقول مقدمة قصة التقريب – بقوله تعالى «إنما الله اله واحد» فليس للمسلمين بعد هذا أن يرموا الى هدف يخالف هذا الهدف، ولا أن يخرجوا من مقتضيات هذه الأخوة لأي سبب من الأسباب.

والجملة الثانية: تأمر باصلاح ذات البين أي بأن يدرأ المسلمون عن أنفسهم كل ما يفسد علاقة الأخوة التي قررها الله بينهم – وفي ذلك تحذير رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، اذ يقول: «إن فساد ذات البين هي الحالقة».

والجملة الثالثة تأمر بأن يكون الاصلاح بين المسلمين في ظل من تقوى الله، فتحذر من اتباع الهوى والتواء القصد.

والجملة الرابعة: وهي جملة الختام يوجه الله فيها رجائنا الى ثمرة هذه الدعوة فيقول: «لعلكم ترحمون» لتحقق الرحمة للمسلمين وما الرحمة في هذا المقام الا تيسير اليسرى لمن استقام على الطريقة المثلى.

٢ـ ان العلاقة بين الفريقين السنة والشيعة سادها الكثير من الظلام الموحش الذي جعل كلا من الفريقين لا يرى أحدهما الآخر – كما يقول الشيخ القمي – الا شبحا تحوطه الظلمة.

والكتب المؤلفة من أبناء الفريقين كانت تحتشد بالطعن والتجريح على الآخر فكبرت الخلافات وسادت الشكوك حتى وصلت المصحف فقيل ان لدى الشيعة مصحفا يسمى مصحف فاطمة يختلف عن المصحف الذي يتداوله المسلمون ويقول الشيخ القمي «ومع ذلك لم يكلف أحدهم نفسه مؤونة التقليب في نسخة من ملايين النسخ التي في متناول يده، ولو أنهم فعلوا ذلك، لذهب الشك وحلت المشكلة، ولكنهم حكموا على الموجود المحسوس ماليس

فيه اعتمادا على قول مؤلف مغرض مات قبل قرون».

٣- جهود المستشرقين التي أذكتها السياسات الأجنبية في الطعن على الفريقين كليهما من كتب الآخر مما أعطى الفرقة الشرعية ومكن لخصوم الاسلام نفسه من المسلمين.

٤- ثم أن هناك سببا يراه الشيخ القمي وهو ان الأسر التي حكمت باسم الخلافة الإسلامية قرونا طويلة (يشير الى الأمويين والعباسيين) كانت ترى في آل علي كرم الله وجهه المعارض الوحيد الخطير عليها فكانت تسيء الى شيعة آل علي وتستخدم الاقلام والألسنة ضدهم حتى أوجدوا حول الشيعة كثيرا من الخلط وكثيرا من التشويش، وكان يمكن لأي مصلح يتصدى للدفاع عنهم أن يدرأ عن المسلمين شر التفرق، ولكن القوة بيد الخلفاء ومقاومة بعض الحكام من الجانب الآخر كلاهما سخر الأقلام والضمائر ضد كل محاولة من هذا القبيل وقضى عليها.

كل ذلك – قطعا – كان في ذهن الشيخ شلتوت باعتباره رجلا عالما أزهريا مفكرا مصلحا يستوعب القرآن وأهدافه وغاياته في رأب الصدع بين المسلمين واعادتهم الى مفهوم الأمة الواحدة الذي طبقه رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

٥- على أنه كان في نهاية الأسباب وقمتها التي دفعت الشيخ شلتوت لمناصرة حركة التقريب، هي نفس المبادئ التي قامت عليها الحركة وكانت كفيلة بأن تغريه بالمشاركة في تأسيسها والعمل الدؤوب في دعمها ونشرها ونشر روحها بين المسلمين كافة.

يقول الشيخ القمي في تلخيص مبادئ هذه الحركة وكيف حددوا هذه المبادئ بوصفها خطة عمل وأنجح طريقة لتحقيق الغاية.

«هكذا بدأنا في التفكير في التقريب، ثم سلخنا بعد ذلك شهورا نبحث في سبيل العلاج ، فدرسنا الدعوات التي سبقتنا وأفدنا منها كثيرا، ودرسنا المشاكل الطائفية برمتها ، والكتب المعتمدة عند كل فريق لنحدد الطوائف التي تتفق في الأصول الاسلامية، ودرسنا الخلافات الفرعية الفقهية ومبلغ ما وصلنا اليه، ثم حددنا أنجح طريقة للوصول بفكرتنا الى الأعماق.

وقد أدى بنا التفكير الى أن هذه الدعوة:

*- يجب أن تقوم بها جماعة بدل أن يقوم بها فرد يتعرض لكثير من الأخطار.

*- وأن تكون الدعوة الى التقريب بين أرباب المذاهب، لا الى جمع المسلمين على مذهب واحد فيبقى الشيعي شيعيا والسني سنيا.

*- وان يسود بين الجميع مبدأ احترام الرأي الذي يؤيده الدليل.

*- وأن تكون الجماعة ممثلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنة ومذهبي الشيعة الامامية والزيدية، وان يمثل كل مذهب علماء من ذوي الرأي والمكانة فيه.

*- وأن تكون الجماعة بمعزل عن السياسة.

*- وأن تكون محددة الأهداف.

*- وأن يكون سعيها على أساس البحث والعلم كي تثبت أمام المعارضة وتكسب الأنصار عن سبيل الاقناع والاقتناع، ولكي تستطيع بسلاح العلم محاربة الأفكار الخرافية الطفيلية التي لاتعيش الا في ظل الأسرار والأجواء المظلمة، ولكي تتمكن في الوقت نفسه من مقاومة الطوائف والنحل التي ليست من الاسلام في شيء والتي يحسبها الشيعي سنية والسني شيعية، بينما هي في حقيقتها حرب على الاسلام.

*- ولم تكن سنة التدرج تفارق الفكرة.

هكذا كانت فكرة التقريب التي شهدت ازدهارها في منتصف هذا القرن الهجري (في الستينات من هذا القرن الميلادي) ودور الأزهر فيها بعامة ودور الشيخ شلتوت بخاصة وكان من نتائجها كما يقول الشيخ القمي:

- تبين بوضوح أن المسلمين لا يختلفون في كتابهم ولا في صلواتهم ولا في صومهم ولا في حجهم، بالاضافة الى اتفاقهم المطلق في أصول العقائد وأصول الدين والتوحيد والنبوة ، وليس يضيرهم أن يكون لبعضهم أصول مذهبية خاصة، كالولاية عند الشيعة الذي يرون أن عليا (ع) وأولاده أحق بها من غيرهم.

لقد قرأ السني عن الشيعة ابحاثهم واستنباطهم وأعجب بالكثير منها.

وقرأ الشيعي عن السنة أن أهل البيت مجمع بينهم على حبهم واكرامهم وان ماصدر

عن بعض الظالمين لا يمثل رأي أهل السنة في أهل البيت.

وعرف أهل السنة أن الشيعة يعتبرون الغلاة نجسا ويحكمون بكفرهم ويحكمون بخروج أصحاب الحلول كذلك.

واذن فشتان بين الشيعة على حقيقتها، والشيعة التي تصورها المتصورون، وشتان بين الناصبي الذي كان يناصب أهل البيت العداء، وأهل السنة الذين يرون في حب أهل البيت عبادة، ويصلون عليهم في تشهدهم «اللهم صلى على محمد وآل محمد... وبارك على محمد وآل محمد».

وتبقى نتيجة أخرى من نتائج التقريب لم يكتب للشيخ القمي ولا للشيخ شلتوت أن يرياها، وهي أن أخلاف الشيخ شلتوت وتلاميذه الذين يمثلون امتداد الرائد العظيم الأستاذ الامام محمد عبده داعية التجديد للاسلام والتقريب بين المسلمين يملأون ساحات الأزهر وأروقته ويشغلون قمته. وهم على استعداد تام وتأهيل كامل ووعي متعاظم بالرسالة الكبرى لعودة بهذه الأمة الى الينابيع الأول والوثائق الأساسية التي أوحاها الله الى رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليعيدوا على أساسها تجديد الاسلام والتقريب بين المسلمين.

تجربة التقريب بين المذاهب

فهمي هويدي

بسم الله الرحمن الرحيم

من أسف أن نقرأ غير قليل أن المسلمين مشغولون بالتفريق وليس بالتقريب، وليس ذلك مقصورا على عوام المسلمين وحدهم، ولكنه ينطبق أيضاً على النخبة من المثقفين وأهل العلم. ولعل الجدل الذي يثار في وسائل الإعلام بين الحين والآخر حول الموضوع، يعد نموذجاً لتجليات التفرىق التي مازالت مترسبة بين أصحاب المذاهب الإسلامية.

-١-

ومما يلاحظه المرء فيما يخص أهل العلم أنهم في السابق – الأربعينيات مثلا – كانوا أكثر حماساً للتقريب بين المذاهب، من أقرانهم في التسعينيات، الأمر الذي يدعونا إلى التفكير في الأسباب التي أدت إلى ذلك.

لن أعمم، لكني سأضرب مثلا بعلماء الأزهر الشريف، الذي هو أقدم وأعرق جامعة إسلامية. حيث أزعم أنني قريب من أجوائه في مصر. بحكم الاعتبار الجغرافي على الأقل. وإذا ألقينا السؤال: لماذا كان حماس أهله في الأربعينيات للتقريب أكبر وأوضح منه في التسعينيات؟ فإن الإجابة الحاضرة في ذهني الآن هي:

إن الفرق بين المرحلتين يكمن في اختلاف طبيعة العلاقة بين العلماء والسلطة في كل منهما. ففي ذلك الوقت المبكر كان الأزهر وعلماؤه يتمتعون بقدر من الاستقلال سمح لهم بأن يتخذوا مواقف ويعبروا عن آراء حرة يبتغون بها وجه الله، دون أن يكون للسلطة شأن بها. وكان ذلك بعضا من تجليات المرحلة الليبرالية النسبية التي عاشتها مصر آنذاك. في التسعينيات، في ظل استمرار تراجع الهامش الديمقراطي وتعاظم دور الدولة، لم يكن

بمقدور العلماء أو الأزهر أن يتحركوا بعيدا عن سلطان الدولة ولا سياساتها. ولذلك فإن الخلاف السياسي مع إيران أدى تلقائيا إلى تراجع عملية التقريب، بل وفتح الباب في أقطار عربية عدة، وليس في مصر وحدها، لتعميق التفريق وتقديم التخاصم والتقاطع على التلاقي والتفاهم. وكانت النتيجة أن تراجعت علائق السنة والشيعة عما كانت عليه قبل نصف قرن مضى.

بكل المقاييس فأوضاع التسعينيات أفضل بكثير من أوضاع الأربعينيات، فهذه الأخيرة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. كانت مسكونة بأجواء الإحباط واليأس. كانت الخلافة الإسلامية قد ألغيت في تركيا، وكان العالم العربي كله تقريبا يرزح تحت الاحتلال، وبدا الغرب في أوج قوته، منتصرا في الحرب ومستعلياً كنموذج حضاري. ومع ذلك فقد انتعشت حركة التقريب على نحو مدهش كما سنرى بعد قليل.

في الثمانينيات كانت المشاعر الدينية قد تعالت مؤشراتها، وسرى الانتعاش بدرجة أكبر في المجتمعات الشيعية، التي استقبلت بحفاوة حدث الثورة الإسلامية في إيران. ورغم أنه من المفترض في هذه الأجواء أن تكون الظروف مواتيــة للتقريب بدرجة أكبر، إلا أن ذلك لم يحدث للأسف الشديد، لأن رياح السياسة وضغوطها أصبحت أقوى، الأمر الذي لم يوفر لجهود التقريب الدفعة القوية المرجوة.

وسواء اتسمت جهود التقريب بالبطء والحذر الآن، أو أن أصوات دعاة التفريق مازالت تجد من ينصت إليها ويتسجيب لها. فإن تجربة التقريب التي تمت في الأربعينات، وتواصلت حتى أوائل التسعينيات، تظل تجربة رائدة جديرة بأن نستحضرها ونتأملها مليا.

وقبل استحضار تلك التجربة فإنني ألفت النظر إلى أن ماذكرته عن أوضاع التقريب في الوقت الحاضر يصف الوضع على جملته. الأمر الذي لا ينبغي أن يصادر أصواتاً وجهودا دافعت بإخلاص عن التقريب وعن وحدة الأمة الإسلامية. غير أن هذه الجهود ظلت استثنائية، وتعبر عن مواقف أفراد لا مؤسسات، وبالتالي فإن ثمارها ظلت محدودة الأثر والنطاق.

-٢-

يستوقفنا في تجربة الأربعينيات أنها بدأت بجهود أحد العلماء الإيرانيين. هو العلامة محمد تقي الدين القمي، الذي قدم من إيران إلى مصر لأول مرة في عام ١٩٣٧م، والتقى بكبار شيوخها. خصوصاً الشيخين محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر وعبد المجيد سليم الذي كان مفتياً، ودرّس في الأزهر لمدة سنتين، وشجعه اللقاء مع شيوخ الأزهر على طرح فكرة التقريب، التي خرجت إلى حيز الوجود حين عاد الشيخ القمي إلى مصر لكي يتسقر بها في سنة ١٩٤٦م، ويؤسس مع نخبة ممتازة من الشخصيات المصرية، دار التقريب بين المذاهب.

لقد شكل أول مجلس إدارة لدار التقريب في عام ١٩٤٧م، وضم عشرين عضوا من تلك الكوكبة التي التقت على الفكرة وتحمست لها في مصر، وكان معهم عدد آخر من العلماء يمثلون الشيعة الإمامية والزيدية.

رأس الجمعية في أول تأسيسها أحد كبار المصلحين في مصر آنذاك، هو محمد على علوية باشا الذي كان وزيرا في عدة حكومات (للأوقاف والمعارف) وعينته مصر أول سفير لها في باكستان. وكان من بين الأعضاء الشيخ عبد المجيد سليم رئيس هيئة الفتوى بالأزهر، (صار شيخا للأزهر فيما بعد) والشيخ أحمد حسين مفتي وزارة الأوقاف، والشيخ محمود شلتوت الذي كان عضوا بهيئة كبار العلماء (صار بدوره شيخا للأزهر) والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر والشيخ عيسى ممنون عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية. والشيخ حسن البنا رئيس الإخوان المسلمين، والشيح عبد الوهاب حلاف والشيخ على الخفيف، وهما من كبار أساتذة الفقه والتشريع بالجامعة. والشيخ محمد المدني الأستاذ بالأزهر (أصبح وكيلا للأزهر فيما بعد).

وإلى جانب هؤلاء كان من بين الأعضاء الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين. والشيخ محمد تقي القمي ممثلا للشيعة الإمامية. وعلي بن إسماعيل المؤيد. والقاضي محمد عبد الله العمري. عن الشيعة الزيدية.

وإلى جانب نخبة العلماء الممتازة التي أسست جمعية التقريب وتصدرت أول مجلس إدارة

لها، فقد بين النظام الأساسي للجمعية أنها تتطلع إلى ما هو أبعد من جمع كلمة المسلمين باختلاف طوائفهم ومذاهبهم. إذ لم يكتف المؤسسون بذلك الهدف الجليل، وإنما طمحوا لأن يصبح الكيان الجديد بمثابة رابطة أو جامعة للشعوب الإسلامية تتجاوز حدود مصر. فقد نصت المادة الخاصة بأغراض الجماعة على أن من تلك الأغراض (السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما) و .. (عقد مؤتمرات اسلامية عامة تجمع زعماء الشعوب الإسلامية في الأمور الدينية والاجتماعية). فضلا عن ذلك فإن الجمعية أرادت أن تقوم بدور في الدعوة إلى الإسلام عن طريق «نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إليها».

-٣-

ما الذي فعلته هذه الكوكبة من الرجال الذين التقوا على فكرة التقريب بين المذاهب، وراودهم حلم توحيد الأمة وجمع كلماتها؟

إن كل من تحدث في موضوع التقريب لابد أن يتوقف أو ينطلق من الفتوى التي أصدرها الشيخ محمود شلتوت بعدما صار شيخا للأزهر. وهي الأولى من نوعها — في حدود علمي — التي أجازت التعبد على مذهب الشيعة الإمامية والزيدية. وكثيرون ينسون ان الشيخ شلتوت — رحمه الله — كان من مؤسسي جماعة التقريب بين المذاهب، وأن الفتوى من ثمار جهد علمائها الذي تواصل حثيثا لمدة عشرين عاما تقريبا.

إلى جانب الفتوى، فإن جماعة التقريب أصدرت مجلة جامعة باسم «رسالة الإسلام»، ظلت تصدر طيلة أربعة عشر عاما. كما أنها اعتمدت تفسير للقرآن اجتمع عليه علماء السنة والشيعة هو تفسير «مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي»، الذي استغرق تهيئته للنشر مدة عشرين عاما. وأشرف على هذه العملية ثلاثة من أكابر علماء الأزهر هم الشيوخ: عبد المجيد سليم ومحمود شلتوت ومحمد المدني. وفي حدود علمي فإنهم شرعوا في تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها بين السنة والشيعة، وقطعوا شوطا طيبا في هذا الصدد، رغم أن هذا الجهد لم ير النور بعد.

وإذا ألقينا نظرة ثانية على ما حققته اللجنة في عمرها القصير، نلاحظ مايلي:

ـ أنها أحيت فكرة التقريب، وجمعت من حولها كبار علماء السنة والشيعة، وكان عملها هذا أهليا محضا، حركته الغيرة على الإسلام والمسلمين، ولم تكن لهذا العمل علاقة بأي نظام سياسي أو مؤسسة رسمية.

ـ أنها طرحت مشروعها من خلال مجلة «رسالة الإسلام» ، التي ظلت تخاطب المسلمين كافة طيلة أربعة عشر عاما.

ـ أنها نجحت في ضم الفقه الشيعي إلى المذاهب الإسلامية الأخرى التي تخضع للدراسة في منهج الفقه المقارن بالأزهر الشريف.

ـ أنها قطعت شوطا كبيرا بإصدار تفسير للقرآن متفق عليه، وسعت إلى تحقيق الفكرة نفسها عن طريق تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها أيضا.

معنى ذلك أن جماعة التقريب أنجزت خطى بالغة الأهمية على صعيد تحويل التقريب من حلم وفكرة، إلى عمل مشترك جاد، تبلور في مجموعة من الآثار العلمية التي بقيت لأجيال المسلمين إلى يوم الدين.

-٤-

إذا كان تفسير الطبرسي نموذجا للعمل العلمي الذي ترجم عملية التقريب، فإن الأفكار التي طرحتها مجلة «رسالة الإسلام» تمثل صلب المشروع، وتعكس كيفية رؤية أصحابه له، ولذلك فإنها تعد بحق صوت التقريب، الأمر الذي يجعلها جديرة بأن تصبح مادة للدراسة المعمقة. ولذلك فهي بحاجة إلى وقفة أطول.

إن قارئ أعداد المجلة يلاحظ أنها ظلت طيلة الأربعة عشر عاما تتحرك على محاور عدة، في مقدمتها خمسة، سنعرض لها بالتوالي هي:

ـ استنكار فرقة المسلمين.

ـ الدفاع عن الحق في الاختلاف.

ـ رفض توحيد المذاهب.

ـ الأصول المتفق عليها بين أهل السنة والشيعة ومن ثم السعي الدؤوب للتنبيه إلى مساحة المشترك بين الطرفين.

ـ رد الشبهات التي تتردد في أوساط أهل السنة بشأن الشيعة ومذهبهم.

ـ فيما يتعلق باستنكار فُرقة المسلمين وتمزقهم. فإنه لايكاد نص في المجلة يخلو من تعبير عنه. وكان البيان الذي أصدره مؤسسو دار التقريب عقب أول اجتماع لهم (٣٠ ربيع الثاني عام ١٣٦٦هـ) هو أوضح إعلان عن الفكرة. فبعد أن أشار البيان إلى ثراء الفقه الإسلامي، انتقد ممارسات المقلدين والمتعصبين للمذاهب، الذين كلّت هممهم عن حمل ماكان يحمله سلفهم في العلم والنظر. وهو ما صادف عهود الضعف السياسي وانقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة ولا تجمعها جامعة. ومن شأن الضعف السياسي إذا أصيبت به أمة، أن يخيل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة وعلما وتفكيرا، وأنه تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره- اضاف البيان — تأثر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم في زمانهم بأنهم ليسوا أهلا للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله. ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد. وإن تعصب كل منهم لرأى إمام، وزعم أنه الحق وأن ما سواه باطل، وأسرفوا في ذلك إسرافاً بعيدا حتى كان منهم من لا يصلي وراء إمام يخالفه في مذهبه، ومن لا يزوج ابنته لفلان، أو يتردد في اكل ذبيحة فلان، او قبول قضاء فلان، لمجرد أنه يخالفه في المذهب. ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتباعهم في عدد معين. وهكذا ضاق أفق الأتباع والأشياع مما اتسع له أفق المتبوعين.

توقفت عند مقالة في الموضوع نشرها الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان «على أوائل الطريق»، استهلها بكلام للمستشرق المجري جولد تسيهر ذكر فيه أن الملك «نادر شاه» (المتوفى سنة ١٧٤٧م) سَعى جادا كي يعقد مع الأتراك صلحاً ينقي الجو بين الشيعة والسنة، ويضع حدا للخلاف القائم بين الفريقين. ووضع لذلك مشروعا جيدا كاد يخرج إلى حيز

التنفيذ، لولا أن المنية عاجلته فمات دون أن تتحقق أمنيته. وقد أشارت كتابات الفقيه السني عبد الله بن حسين السويدي، الذي كان معاصرا لتلك الفترة، إلى أن نادر شاه عقد مجمعا دينيا جمع فيه فقهاء الفريقين. وقد اتفق هؤلاء الفقهاء على ضم التشيع إلى المذاهب السنية، وجعله مذهبا خامسا يقبل به المسلمين كافة. وقد صارت من السهل بعد قليل — بموجب هذا الاتفاق — أن يخصص مقام خامس للمذهب الجعفري في دائرة الحرم المكي بجوار مقامات المذاهب الأربعة السنية. وصار لزاماً منذ ذلك الوقت الإقرار بسنية هذا المذهب.

امتدح المستشرق المجري هذه الخطوة لكنه قال إن حلم التوفيق بين الطرفين كان أمنية بعيدة. ذلك أن «الحقد المتوارث الذي يحمله كلا الفريقين للآخر والضغائن التي شطرت فقهاء المذهبين شطرين، جعلتهم بعد موت نادر شاه لا يتصوبون سياسة التسامح والوفاق».

علق الشيخ الغزالي على ماكتبه جولد تسيهر قائلا: لقد أحسست وخزا في فؤادي وأنا أقرأ كلمة الإسلام الشيعي والإسلام السني، التي ترددت على لسان المستشرق المجري مرارا. وتساءل: ما الذي حدث حتى نكب الإسلام بهذه الفرقة؟ - في رده قال: الحقيقة أن هناك أناساً لا يتقون الله في دينهم ولا في أمتهم، أطلقوا غيوماً داكنة من الإشاعات والظنون، كانت العملة الدفينة في تمزيق الشمل، وملء الرؤوس بطائفة من التصورات الباطلة والمشاعر المنحرفة. وجماهير العامة - للأسف الشديد ضحايا لتجاذب متبادل لا أساس له، ويوم ينكشف الغطاء عن الحقيقة، سيحزن كثيرون لما أرسلوا من أحكام وأطلقوا من عبارات.

في هذا المعنى كتب الشيخ محمد تقي القمي يقول: كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن. فالشيعي والسني كل كان يعتزل الآخر. وكل كان يعيش على أوهام ولدتها في نفسه الظنون، أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكام، أو زيفتها له الدعاية المغرضة.

.. كان يسود الفريقين جو من الظلام، فلا يرى أحدهما في صورة الآخر إلا شبحاً تحوطه الظلمة، ولا يتكلم عنه إلا بما توحى به الظلمة، ولا يقرأ عنه إلا ما تسمح به حلكة

الظلام.

أضاف أن الفرقة بين المسلمين: ظلت غذاء مناسباً للحكم والحكام قرونا عدة. دأب فيها كل حاكم على استغلالها لتثبيت سلطانه، وتحطيم عدوه. ثم جاءت السياسات الأجنبية فوجدت في هذه الفرقة خير وسيلة لتدخلها، وبث نفوذها ودعم سلطانها وفرض سيادتها.

- ٥ -

- الحق كل الحق أنه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، فإن الاختلاف سنة من سنن الإجماع. ولكن الضرر كل الضرر في أن يفضي بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيز، لا على أنها شيء يؤمر به المؤمنون، ولكن على أنها حقيقة واقعة، رضى الناس بها أم أبوا.

هكذا كتب الشيخ محمد تقي القمي في الأعداد الأولى لمجلة رسالة الإسلام. في مقالة بعنوان «نقط على الحروف – أو مزيد من الإيضاح».

هذا المعنى عاد الشيخ القمي إلى التأكيد عليه في مقالة أخرى بعنوان «خلاف نرضاه وخلاف نأباه» . وفيه قال:

«هناك فرق بين خلاف وخلاف: هناك خلاف تمليه طبيعة التفكير وتقضيه سنن الاجتماع. ونحن نقبله ونرضاه. وهناك خلاف يصطنع اصطناعاً، ونحن نرفضه ونأباه».

إننا نقبل الخلاف الفكري مادام في دائرة معقولة. ونرحب بالخلاف المذهبي لأنه وليد آراء اجتهادية مرجعها الكتاب والسنة أو ما أعطاه الكتاب أو السنة قوة الحجية. ونرحب بما عند الشيعة وأهل السنة، لأنهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به، وإن اختلفتنا في مسائل فقهية. وتميزتا في مسألة الولاية والخلافة. ونرحب كذلك بالمعارف الكلامية، لأنها ميدان من ميادين التفكير للمسلم أن يجول فيه.

نحن نرحب بهذه الخلافات كلها، بل نعتز كمسلمين بالكثير منها: لأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرية الفكرية. ولأنها إن أحسن النظر أليها، تسعد الأمة وتكفل رقيها وتبقى على سلامتها. إن هذه الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق. فهي ترتبط

بأصل واحد هو الكتاب والسنة.

وليس معنى هذا أن في الكتاب خلافاً، فالمسلمون بحمد الله متفقون في كتابهم مجمعون على مابين الدفتين، وهذا فخر ليس فوقه فخر تنفرد به هذه الأمة دون غيرها من سائر الشعوب.

وكذلك ليس معناه أن في السنة خلافاً، بمعنى أن البعض يقبل ماصدر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والبعض لا يقبله، معاذ الله، فالمسلمون يتفقون في وجوب الأخذ بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولكنهم قد يختلفون في الفهم أو التفسير أو في أن هذا صدر عن الرسول الأعظم أو لم يصدر. أما من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم.

فالآراء الاجتهادية إذن، يجمعها الكتاب والسنة، وليس بعد هذا من وفاق.

أما الخلاف الذي لا نرحب به ولا نقبله، بل نرفضه ونقاومه، فهو الخلاف الذي تمليه الكراهية والبغضاء، وتغذية الشبه والأوهام، ويوجد البلبلة في صفوف الأمة، ويؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين.

ذلك خلاف لا يتفق والخلق الإسلامي، ولا يستند إلى المعارف الإسلامية، حمل لواءه مؤلفون كتبوا قبل التثبت تارة، وبداعي الغرض والهوى تارات، فسودوا صحيفة الشيعة في نظر أهل السنة، وسودوا صحيفة أهل السنة في نظر المتشيعين بعضهم خلط بين أهل السنة والنواصب، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة، وبينها وبين الفرق البائدة، وألقصوا بها آراء لاتمت إليها بصلة، بل الشيعة منها براء.

-٦-

أثارت جهود التقريب جدلا كبيرا ، حيث شاع بين قطاعات ليست قليلة من المسلمين أن مقصدها في نهاية المطاف هو توحيد المذاهب، باعتبار أن هذه هي الصيغة المثلى لفض الاشتباك وإنهاء الخلافات. لذلك دأبت مجلة رسالة الإسلام على نفي هذه الفكرة، والإلحاح على أن هدف التقريب مختلف إلى حد كبير.

في البيان الأول لدار التقريب أثيرت هذه القضية. حين تلقت الجمعية تساؤلات من بعض الحجازيين عن حقيقة مهمتها، وهل تتناول إدماج المذاهب الإسلامية بعضها في بعض، كما يردد أهل العلم في الحجاز. واختار البيان أن يرد من خلال اقتباس نصوص من رسالة بعثت بها الجمعية إلى الملك عبد العزيز آل سعود، حين أرادت أن تقدم نفسها وتشرح أهدافها. وقد جاء في الرسالة مايلي:

١ـ أن «جماعة التقريب» لا تريد المساس بالفقه الإسلامي، ولا إدماج مذاهبه بعضها في بعض، بل هي على النقيض من ذلك، ترى في هذا الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين، لأنه دليل على خصوبة في التفكير، وسعة في الأفق، واستيفاء وحسن تقدير للمصالح التي ما أنزل الله شريعته إلا لكفالتها وصونها. وكل ما تبذله الجماعة من جهود في سبيل الفقه الإسلامي إنما هو في دائرة خدمته وتنميته وتسليط نوره الوهاج على شؤون الحياة الإسلامية كلها، وبحث المشكلات التي جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها.

٢- ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية التي تعتقد العقائد الصحيحة التي يجب الإيمان بها.

٣- وهي ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية يجعلون لبعض المعارف والآراء التي لاصلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنابز بالألقاب، ونسيان ما جمع الله عليه القلوب، وألف به بين المسلمين وترى أن أعداء الإسلام والطامعين في استعمار بلاده وادلال أهله، يتخذون من هذه الخلافات أبواب يلجون منها إلى مقاصدهم الباغية، ويعملون كل مافي استطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربوهم جميعا.

٤- وتؤمن إيمانا عميقا بأن من أهم الواجبات الدينية على كل ذي علم ورأى في شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبم الإسلامية، العمل على تبصير المسلمين بدينهم، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ببيان ماهو عقيدة يجب الإيمان بها، وماهو معارف لايضر الخلاف فيها، وأن من بين هذه المعارف مايظن أنه من العقائد وهو ليس منها.

٥- فالغرض من تأليف «جماعة التقريب» بين المذاهب الإسلامية هو: أن تكون مركزا إسلاميا لهذه الفكرة، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها في أنحاء العالم، شرقية وغربية، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وأراؤهم في رفق وحسن تقبل، فيتهيأ لها جو من البحث العلمي الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة، وحينئذ تنجلي أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها، ويصلون في المسائل والنظريات الخلافية نفسها، إلى الرأي الصحيح الذي يهدي إليه المنطق والدليل، فإذا بقي بعد ذلك مالم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به البراهين، كان أمره بعد ذلك هينا لا ينبغي أن يفضي إلى التقاطع والتناكر والتقاذف، وإنما هو الخلاف في الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضا ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين.

وقد جسدت دار التقريب موقفها من المذاهب المختلفة حين طبعت ووزعت في موسم الحج جدولا مفصلا عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة: الحنفي، والمالكي، الشافعي، والحنبلي، والإمامي، والزيدي، وقد راج هذه الجدول في البلاد المقدسة رواجا عظيما، ولفت أنظار كثير من المسلمين، إلى أن آراء فقهائهم في فروع عبادتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم.

تنبه إلى أهمية هذه المسألة العلامة محمد حسين آل كاشف الغطاء، فكتب في المجلة مقالة تحت عنوان: «بيان إلى المسلمين»، قال فيها: من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلامية إزالة أصل الخلاف بينها، بل أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء، الغرض تبديل التباعد والتضارب بالإخاء والتقارب.

-٧-

في معنى التأكيد على المشترك بين السنة والشيعة كتب الشيخ حسنين مخلوف مفتي مصر في «رسالة الإسلام» يقول: إنني من المؤمنين بفكرة التقريب، العاملين على أن يدرك المسلمون جميعا مزاياها وما تؤدي إليه من جمع كلمتهم وتوحيد أهدافهم.. فالإسلام هو دين الوحدة كما هو دين التوحيد. وقد حرصت شريعته على أن تقر في الناس أسس

التضامن والتكافل الاجتماعي والتعاون على البر والتقوى، وعلى أن تنزع من بينهم أسباب العداءات والضغائن. وما ينزع به الشيطان بينهم ليفشلوا وتذهب ريحهم.

وهذه هي القواعد الخمس التي بني عليها هذا الدين المتين أثرت كلها إلى توطيد أمر المسلمين على الوحدة والألفة واتفاق الغاية.. فالمسلمون جميعا يقيمون الصلاة في أوقات خمس مكتوبة. ليست ستة عند فريق ولا أربعة عند فريق. وهم متفقون عليها بأعيانها، ومتفقون على أعداد ركعاتها، وعلى قبلة المصلي فيها. وقد شرعت فيه الجماعات والجمعات والصلوات العامة في المناسبات، كصلوات العيد والاستسقاء والكسوف ونحو ذلك من كل مايراد به إشعار المسلمين بالوحيد والألفة واتفاق المصالح والاستواء أمام ربوبية الله حل وعلا.

وما يسري على الصلاة يسري بذات القدر على الشهادتين، وعلى الزكاة والصيام والحج. وهذه الأركان التي لا يختلف عليها المسلم تشكل أساسا متينا للتوحيد والوحدة بين أبناء الأمة.

وفي مقالة أخرى عن «الإسلام والأزهر والتقريب» كتب الشيخ محمد عبد اللطيف دراز داعيا إلى ضرورة «العمل على جمع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتصفية الخلافات بينهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله، وماكان عليه السلف الأول من المؤمنين». ثم أضاف أنه: سوف يظهر أنهم في الحقيقة متحدون غير مختلفين. فالأصول واحدة، والوسائل واحدة، وما الخلاف إلا في التطبيق. ولعمري إذا جاز اختلاف المسلمين في الفقه والفروع، فكان منهم الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي والزيدي والإمامي، وأزال الله في هذا العصر ماكان بينهم من عداوة وبغضاء، فلم لا يجوز بينهم اختلاف هادئ عفّ، فيما هو وراء الأصول المتفق عليها من ألوان المعارف الفكرية التي ليست من العقائد.

وقد ذهبت فكرة البحث عن المشترك إلى ماهو أبعد. في اقتراح نشرته المجلة للشيخ عبد العزيز عيسى، أحد علماء الأزهر، ودعا فيه إلى إنشاء معهد خاص في إطار الأزهر. لدراسة المذاهب والأفكار الدينية في كافة الأقطار الإسلامية، بحيث «يمكننا في سهولة ويسر أن

نعرف أوجه الوفاق والخلاف على صورة محدودة، وأن نصلح ما أفسده الدهر، وتحقيق مازوره التاريخ، وتنشر في ربوع كل دولة ما عند الأخرى، فيتبادل المسلمون الثقافة الصحيحة، ويعرف بعضهم بعضا على حق، وتزول من بينهم الجفوة والقطيعة، ويأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التي لا يصلح أمرهم إلا عليها».

-٨-

في تصويب صورة الشيعة الإمامية في الذهن الإسلامي العام، نشرت المجلة مقالات عدة لفتت الأنظار إلى ضرورة التفرقة بين مدارس الاعتدال والغلو في الساحة الشيعية، ومقالة العلامة الدكتور محمد جواد مغنيه «الغلاة في نظر الشيعة الإمامية» نموذج لذلك. وفيها ذكر أن علماء الإمامية متفقون على نجاستهم وعدم جواز الزواج منهم أو تغسيل ودفن موتاهم – وعدم توريثهم. وهؤلاء هم الذين زعموا أن جزءا إلهيا حل في جسم علي بن أبي طالب، وبه يعلم الغيب، والرعد صوته والبرق تبسمه، وغيرهم يقولون بأن جعفر الصادق هو إله الزمان، أو أولئك الذين زعموا أن الله جل جلاله خلق الأئمة، ثم اعتزل تاركاً لهم خلق العالم وتدبير شؤونه.

سلط الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء الضوء على بعض خلافات السنة والشيعة، فقال أن أعظم تلك الخلافات وأهمها على الاختلاف هو قضية «الإمامة»، حيث ذكر أنه الطائفتين وقعتا منها على طرفي نقيض، فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين، وهي رديفة التوحيد والنبوة وأنها منوطة بالنص من الله ورسوله، وليس للأمة فيها من الرأى والاختيار شيء، كما لا اختيار لهم في النبوة بخلاف أهل السنة، فهم متفقون على عدم كونها من أصول الدين، ومختلفون بين قائل بوجوب نصب الإمام على الرعية بالإجماع ونحوه، وبين قائل بأنها قضية سياسية ليست من الدين في شيء لا من أصوله ولا من فروعه.

أضاف الشيخ كاشف الغطاء متسائلا: «مع هذا التباعد الشاسع بين الفريقين في هذه القضية، هل تجد الشيعة تقول أن من لا يقول بالإمامة غير مسلم (كلا ومعاذ الله) أو تجد

السنة تقول أن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام – لا وكلا – إذن فالقول بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجماعة الإسلامية وأحكامه من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ووجوب أخوته، وحفظ حرمته وعدم جواز غيبته، إلى كثير من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه».

ثم ذهب إلى أبعد في المصارحة، فقال إن أحد أسباب المشاحنة بين السنة والشيعة، ما يتردد من أن الشيعة ترى جواز المساس بكرامة الخلفاء أو الطعن، وفند تلك المقولة بحج عدة منها:

أولاً: فليس هذا من رأى جميع الشيعة وإنما هو رأى فردي منه بعضهم. وربما لا يوافق عليه الأكثر. كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانياً: أن هذا على فرضه لا يكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام. بل اقصى ماهناك أن يكون معصية، وما أكثر العصاة في الطائفتين. ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعا.

ثالثاً: قد لا يدخل هذا في المعصية أيضا ولا يوجب فسقا إذا كان ناشئا عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطئ أجرا وللمصيب اجرين، وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وهم وإن أخطئوا في اجتهادهم، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم، وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم. فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه – أي مع الاجتهاد – تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة.

اعتبر الشيخ محمد المدني تدريس فقه الشيعة في كلية الشريعة بجامعة الأزهر بمثابة «رجَّه البعث»، وكانت هذه الخطوة قد أثارت لغطا في أوساط العلماء، قام الشيخ المدني بتفنيد ما تردد، وقال: إن بعض الناس تساؤلوا: كيف تدخلون فقه الشيعة في الأزهر، مع أن هذا المذهب هو مذهب الذين يعتقدون أن جبريل إنما بعث بالرسالة إلى علي فأخطأه ونزل

بها على محمد. وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله. وقال في الرد على السؤال مايلي:

إن كلمة «الشيعة» تطلق على عشرات المذاهب التي تنسب إلى الإسلام حقا أو باطلا. وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلامية، وبعضها مستمسك بما يجب الإيمان به، مثله في ذلك كمثل مذاهب السنة، وإن خالفهم في بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التي هي من قبيل المعارف الكلامية.

والفريق الأول من المسلمين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون، لا يعدون من أهل الإسلام وإن ادعوه، لأن العبرة في ثبوت الإسلام إنما هي بالإيمان بأصول العقائد الإسلامية، وعدم إنكار ماثو معلوم من الدين بالضرورة. وهؤلاء ليسوا كذلك وقد انقرضوا ولم يعد لهم أثر في العالم الإسلامي، ولو فرضنا أن لهم بقية في كهف من الكهوف أو طرف من الأطراف فليسوا منا ولسنا منهم، وهم كفار خارجون على ملة الإسلام. ملعونون من أهل السنة ومن الشيعة.

أما الشيعة الذين تقرر إدخال فقههم فهم:

١. الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، وقد لقبوا «بالإمامية» لأنهم يقولون بأن إمامة علي ثابتة بالنص، ولقبوا «بإثنا عشرية»، لأنهم يسوقون الإمامة إلى اثني عشر إماما. أولهم علي بن أبي طالب. وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الملقب بالحجة.

وهم يسكنون إيران والعراق وسوريا ولبنان والباكستان والهند، وغيرهم من البلاد العربية والإسلامية ويؤمنون بأصول الإسلام كلها ولا يستطيع أحد من أهل القبلة أن يحكم بكفرهم. وكل مابينهم وبين السنة من اختلاف. إنما هو فيما وراء الأصول التي يجب الإيمان بها لتحقق مفهوم الإسلام، وينسب فقههم إلى أئمتهم من أهل البيت النبوي، واشتهر باسم الفقه الجعفري نسبة إلى أحد هؤلاء الأئمة، وهو جعفر الصادق بن محمد الملقب بالباقر.

وهؤلاء الشيعة الإمامية يلعنون أهل المذاهب المنسوبة إلى الشيعة من الغلاة في شأن علي، ويتبرءون منهم، ويحكمون بكفرهم ونجاستهم.

ولهم كتبهم في العقائد والفقه والأصول وأسرار الشريعة والأخلاق والتصوف، وعلوم اللغة العربية وغيرها. وقد نبغ منهم كثير من الفقهاء. وأهل الحديث والرواية، والأدباء، والأصوليين، والمتكلمين، وغيرهم، ولهم أثر واضح في العلوم الإسلامية في مختلف العصور.

٢- الشيعة الزيدية، وهم يسكنون اليمن غالبا، ومذهبهم منسوب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين. وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى مذاهب السنة.

ولا ينازع أحد في شأنهم مع كونهم أيضا ملقبين بلقب «الشيعة».

ثم أضاف: إذن ، فلا يستقيم القول بأن الشيعة كلها تقول برسالة علي أولوهيته، أو تغالي في شأنه، فإن هذا القول على إطلاقه خطأ، ويجب التفريق بين الشيعة المهتدين، والشيعة الضالين أو المنحرفين، كما يجب الحذر عند سماع أي نقل عن الشيعة، والتحري عن القائل منهم بذلك حتى لا يحمل قول ضال على فرقة مهتدية لم تقله.

أيضا ردَّ الشيخ المدني على من انتقد تقليد غير المذاهب الأربعة عن أهل السنة، خصوصا الشيعة الإمامية الذين يعتقدون أن القرآن، قد دخله النقصان، ويروون عن فاطمة أن الذي بقي منه نصف الذي نزل أو ما في معنى ذلك.

قال في رده: إن تقليد غير الأربعة جائز شرعا، وواجب المسلم إذا تعذر عليه أن ينال الأحكام من أدلتها أن يسأل أهل الذكر، وليس عليه أن يلتزم مذهبا معينا، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة. قال شارح مسلم الثبوت: «فإيجابه تشريع شرع جديد» ثم قال: «ولك أن تستدل عليه بأن اختلاف العلماء رحمة بالنص، وترفيه في حق الخلق فلو ألزم العمل بمذهب معين كان هذا نقمة وشدة».

ثم قال: وأما أن الإمامية يعتقدون نقص القرآن فمعاذ الله، وإنما هي روايات رويت في كتبهم كما روى مثلها في كتبنا. وأهل التحقيق من الفريقين قد زيفوها وبينوا بطلانها. وليس في الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك، كما أنه ليس في السنة من يعتقده.

ويستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب (الإتقان) للسيوطي السني ليرى فيه أمثال

هذه الروايات التي نضرب عنها صفحا.

وقد ألف أحد المصريين في سنة ١٩٤٨ كتابا اسمه «الفرقان» حشاه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمة المدخولة المرفوضة، ناقلا لها عن الكتب المصادر عند أهل السنة، وقد طلب الأزهر من الحكومة مصادرة هذا الكتاب بعد أن بين بالدليل والبحث العلمي أوجه البطلان والفساد فيه فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصادرت الكتاب، فرفع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضا، فحكم القضاء الإداري في مجلس الدولة برفضها.

أفيقال: إن أهل السنة ينكرون قداسة القرآن، أو يعتقدون نقص القرآن لرواية رواها فلان، أو لكتاب ألفه فلان؟

فكذلك الشيعة الإمامية، إنما هي روايات في بعض كتبهم كالروايات التي في بعض كتبنا، وفي ذلك يقول الإمام العلامة السعيد أبو علي الفضل ابن الحسن الطبرسي، من كبار علماء الإمامية في القرن السادس الهجري، في كتابه «مجمع البيان في تفسير القرآن»، وهو بصدد الكلام عن الروايات الضعيفة التي تزعم أن نقصا ما دخل القرآن - يقول هذا الإمام ما نصه: «روى جماعة من أصحابنا، وقوم حشوية العامة، أن في القرآن تغيير او نقصانا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات، وذكر في مواضع: إن العلم بصحة نقل القرآن، كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار والوقائع العظام، والكتب المشهور، واشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه، لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ علوم الشريعة، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلفوا فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فيكف يجوز أن يكون مغيرا أو منقوصاً، مع العناية الصادقة، والضبط الشديد؟».

«وقال أيضا — قدس الله روحه : إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في صحة نقله، كالعلم بجملته، وجرى ذلك مجرى ماعلم ضرورة من الكتب المصنفة، ككتاب سيبويه والمزني، فإن

أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما. حتى لو أن مدخلا ادخل في كتاب سيوبه بابا في النحو ليس من الكتاب، لعرف وميز وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المزني، ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء».

(وذكر أيضا ـ رضي الله عنه : أن القرآن كان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مجموعا مؤلفا على ماهو عليه الآن، واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان، حتى عين جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنه كان يعرض على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتلى عليه، وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهما ختموا القرآن على النبي (صلى الله عليه وآله) عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموع مرتباً غير مبتور ولا مبثوث، وذكر أن من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد مجموعا، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخبارا ضعيفة ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته).

فهذا كلام صريح واضح في الدلالة على أن الإمامية كغيرهم في اعتقاد أن القرآن لم يضع منه حرف واحد، وأن من قال بذلك فإنما يستند إلى روايات ظنها صحيحة وهي باطلة.

لقد كانت دعوة التقريب في رمانها إضاءة مهمة حققت الكثير، ولايزال الجهد الذي بذلته بحاجة إلى من يواصل مسيرته. وارجو أن تثبت الأيام أن مجمع التقريب في طهران قد حمل راية الرسالة وأسهم في إيصالها إلى مرادها بإذن الله.

كلمة الأستاذ فوزي فاضل الزفزاف

وكيل الأزهر الأسبق، وعضو مجمع البحوث الإسلامية

ورئيس اللجنة الدائمة للأزهر الشريف للحوار بين الأديان السماوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين.

سماحة الإمام رئيس المؤتمر

السادة الحضور.

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

فإن في حياة الأمم والشعوب رجال عظماء أعلام. فرضوا أنفسهم على التاريخ فدّون وسجّل سيرهم وحياتهم ومواقفهم وآراءهم في كثير من الأحداث التي غيّرت مجرى الحياة في مجتمعاتهم، وحلّت كثيرا من المشاكل التي كانت تواجه مجتمعاتهم كأفراد أو كمجتمعات باجتهادهم في بعض المسائل الفقهية والدينية. وتركوا للأجيال التي أتت من بعدهم تراثاً غالياً، ودروساً مملوءة بالعبر المواعظ والمواقف الشجاعة ينتفعون بها على مر العصور والأزمان.

ومن هؤلاء الرجال الأعلام فقيد الاسلام والمسلمين المرحوم فضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق – طيّب الله ثراه، وجزاه خير مايجازي به عباده العلماء العاملين الصالحين على ماقدّم للإسلام والمسلمين من علم ينتفع به الى يوم الدين.

لقد تجمّعت في الإمام الراحل مزايا كثيرة متعددة في جميع جوانب حياته الإنسانية والأخلاقية والفكرية والفقهية والعلمية والثقافية والاجتماعية والإصلاحية... أنتجت هذه المزايا من الإمام الراحل عالماً فذاً، ألحقته بمدرسة الفكر الحر التي تنهج في فكرها إيثار

التجديد على الجمود، وترجيح جانب الاجتهاد على جانب التقليد، التي أنشأها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بما سنَ من حرية فكرية، واجتهاد علمي، يستمدان أصولهما من كتاب الله وسنة رسول (صلى الله عليه وسلم)، وأراء ذوي الإصلاح الديني ممن أورثوا الفكر الإسلامي خصبا ونضارة، ومعرفة وثقافة.

فقد كان – طيب الله ثراه – ذا بصيرة ملهمة في فقهه للقرآن الكريم، وتفسيره لمعانيه ومقاصده وأحكامه، وأسباب نزول بعض آياته، وفي فهمه للحديث الشريف، والبحث عن طبيعة المواقف التي قيل فيها..، والإلمام الكامل بأقوال السلف الصالح في أي موضوع فقهي يبحث ، يختار منها الرأي المناسب دون أن يتقيد بمذهب من المذاهب، أو بإمام من الأئمة.

وبهذا تكونت عنده ملكة حرية الفكر والرأي وإصدار الفتوى.. ، ولذلك كان إذا اطمأن الى رأي شرح الله صدره له، واقتنع به عقله، واطمأن اليه قلبه أعلنه على الملأ بصراحة وجرأة، مؤيدا ومعللاً رأيه بالأدلة والحجج والبراهين، من الكتاب، والسنة، وأقوال السلف الصالح، وتعليله الشخصي، غير عابئ بمخالفة المخالفين، أوجمود فكر المقلدين مع احترامه لرأي مخالفيه . وسعة صدره لأقوالهم.. وكتابه (الفتاوى) يضم كثيرا من هذه الأحكام التي يتيمز بالفقه الدقيق، والرأي المستنير، والاجتهاد السليم، والحجج المقنعة ،والعقل المرتب الراجح، والتعليل المنطقي الذي يتفق مع فطرة الخالق جل وعلا.

كما كان – رحمه الله – واسع المعرفة، بليغ الأسلوب، قوى الحجة، حطيبا بارعا، دا صوت مميَز معبَر، يجذب الانتباه، ويشد السامعين.

على أن مواهب إمامنا الراحل الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – وجهاده واجتهاده لم تكن محدودة في ميدان معين، أو موجهة لغرض محدد، أو تسعى لتحقيق هدف واحد، بل كانت أعم وأشمل من ذلك بكثير.

فقد أدرك إمامنا بفكرة الإصلاحي . وثورته الاجتماعية، وإلمامه بمشاكل الأمة الإسلامية أن الضعف الذي أصاب المسلمين وجعلهم لقمة سائغة لأعداء الإسلام، يرجع سببه

الأساسي الى تفرق شملهم بعد أن مزقتهم العصبيات الجنسية، والفرق المذهبية والخلافات الطائفية، فاقتحم ميدانا جديدا من ميادين الجهاد والاجتهاد لتحقيق الوحدة الاسلامية، وهو ميدان: التقريب بين المذاهب الإسلامية. وكان ذلك في منتصف القرن العشرين، فشارك مع بعض إخوانه من العلماء الأفاضل في تكوين «جماعة التقريب بين طائفتي السنة والشيعة» وكان مقرها مدينة القاهرة، بعد أن رأوا أن الاستعمار قد وسّع عامدا متعمدا شقة الخلاف بين الطائفتين ليتمكن من تقطيع أوصال المسلمين وتسخيرهم لخدمة أغراضه. فدعا – رحمه الله – مع إخوانه إلى التقريب قائلا:

«إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا مرية فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: هذا مذهبي، وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست أبيح لأحد تقليدي واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلتُ ما قلت، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتي، والحديث إذا صح فهو مذهبي. . . لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة.

ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الأزهر أن أصدرتُ فتواي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، وقرت بهذه الفتوى عيونُ المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة، وظلت تتوارد عليَ الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل للمتوضحين، أو أردّ به على شُبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر، أو حديث يذاع أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والالتفات حول أصول الإسلام ونسيان الضغائن

والأحقاد حتى أصبحت – والحمد الله – حقيقة مقررة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة بعد أن كان المرجفون في مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي، يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل . وهاهو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرّر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان. . . ».

هذا هو نص كلام إمامنا الراحل في جماعة التقريب بين طائفتي السنة والشيعة، وهو كلام واضح وصريح يبين إيمانه القوي بضرورة تحقيق التقريب ، خدمة للإسلام والمسلمين، وطريقاً لجمع كلمة المسلمين ولمّ شملهم وتوحيد صفوفهم، واستعادة عزتهم وقوتهم.

وقد قدم إمامنا الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – إلى هذه الجماعة الدعم الفكري، والبحث الفقهي، والجهد المتواصل مادفعها إلى الامام لإنجاح مهمتها، وتحقيق هدفها، ومن الذين بذلوا جهودا كبيرة في تأسيس الدعوة لإنشاء هذه الجماعة وتنظيمها العالم الجليل سماحة آية الله البروجردي، والعالم الجليل الشيخ محمد تقي القمي. سكرتير عام الجماعة، والمسلم الغيور محمد علي علويه باشا، والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، والإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم. والإمام الشيخ اية الله الكبرى محمد الحسين آل كاشف الغطاء ،والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي طيب الله ثرى الجميع.

وإذا كانت جماعة التقريب قد توقف نشاطها بعد انتقال مؤسسيها إلى رحمة الله فإنني أناشد جميع المشتركين في المؤتمر الدولي العمل بإخلاص على إحياء جماعة التقريب بين طائفتي السنة والشيعة لتحقيق أهدافها السامية التي من أجلها أنشئت الجماعة، وأرجو أن تصدر توصية من المؤتمر بذلك ضمن توصياته.

ولأن أهل العلم يقدّر بعضهم بعضا، ويعرف كل واحد منهم مكانة ومنزلة وقدر

صاحبه، لاسيما إذا كانوا ينتمون لمدرسة واحدة، مدرسة التجديد والاجتهاد والرأي والفكر الحر، الذين يستنبطون أصول اجتهادهم من كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وآراء ذوي الفكر الإسلامي الناضج ، الذين ينظرون إلى مشاكل المجتمع الإسلامي المعاصر التي لم يعرفها مجتمع الصحابة. ولا مجتمع التابعين، ولا مجتمع ائمة المذاهب الفقهية الذين نتبعهم ونقتدي بهديهم ونعمل بآرائهم. ويبحثون في حل هذه المشاكل في نطاق إيمانهم أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وأنها الشريعة التي اختارها الله وارتضاها لتكون خاتمة الشرائع السماوية، فهي بالضرورة فيها حل لكل مشاكل المجتمع الإسلامي التي تطرأ على ساحته إلى أن تقوم الساعة، فشريعة الإسلام خالدة ثابتة عامة، لا تضيق بالحضارة، ولا تنفر من العلم النافع، ولا تصطدم بالتطور المحمود البناء، فهي أصيلة من وحي الخالق جل وعلا وليست مأخوذة أو مقتبسة من الشرائع الوضعية التي تتأثر بالمكان وتتغير بالزمان.

من هذا المفهوم الشامل عدّ فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر. عدّ فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر من أعلام الاجتهاد في العصر الحديث، وتحدث عنه في كتابه: «الاجتهاد في الأحكام الشرعية» وذكر كثيرا من مناقبه، ومؤلفاته العلمية، وأشار إلى بعض الفتاوى التي أصدرها في حل المشكلات المعاصرة من وجهة نظر الإسلام مثل: فتواه بحل عائد إيداع الأموال في صناديق التوفير. وفتواه بحل تنظيم النسل.

رحم الله العالمين الجليلين اللذين نحتفل بذكراهما اليوم في هذا المؤتمر الدولي، ورحم الله علماءنا الأفاضل، أئمة الإصلاح، وقادة التجديد، الذين قدموا لنا العلم النافع، ووجهونا إلى حرية الانطلاق في البحث والتحصيل، والاستدلال والتعليل، والرأي والفكر، واحترام الرأي الآخر المخالف، والالتزام معه بأدب المناقشة والحوار الإسلامي، الذي نستمده من القرآن الكريم وأحاديث الرسول (عليه الصلاة والسلام).

وختاما أقدم خالص الشكر والتقدير إلى دولة إيران المسلمة رئيساً وحكومة وشعباً على رعاياتها لهذا المؤتمر الدولي، وعلى حسن الاستقبال وكرم الضيافة الذي قوبلنا به منذ وصولنا.

وفقنا الله جميعا الى كل مافيه الخير لديننا وامتنا الإسلامية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

برغم غياب العلاقات الدبلوماسية

أكبر وفد من الأزهر الى ايران

مؤتمر للتقارب الديني قد يكون بداية للتقارب السياسي

د. كرم شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

انتهت منذ ساعات في طهران اعمال اهم مؤتمر شهدته العاصمة الايرانية، والذي قد يكون هو البداية الصحيحة لتنقية الاجواء بين مصر وايران واعادة العلاقات السياسية بين البلدين بعد قطيعة زادت على العشرين عاماً، فشلت خلالها كل محاولات رأب الصدع وإعادة المياه الى مجاريها بين أكبر وأهم دولتين اسلاميتين.

واللافت للانتباه في مسألة ازمة العلاقات بين البلدين أنها في كل مرة اوشكت على الانفراج كانت تعود فتتعقد لأسباب لازالت مجهولة تماماً، والمعروف أن ايران كانت قد وافقت اخيراً على طلب مصر في تغيير اسم (الاسلامبولي) الذي اطلقته على احد الشوارع في العاصمة احتراماً لمشاعر المصريين واحتراماً لرموز مصر السياسية والوطنية، وكانت تنوي اطلاق اسم (عز الدين القسام) على ذلك الشارع بدلاً من اسم الاسلامبولي.. ثم ما لبث هذا الأمل أن خفت وتلاشى هو الآخر، وإن كان يتردد الآن أنهم قد يطلقون على الشارع اسم (محمد الدرة).

واخيراً يأتي هذا المؤتمر ليلوح في افق العلاقات بين البلدين امل جديد، خاصة لأنه ينعقد تحت شعار الإسلام، ويتخذ من موضوع (التقريب) بين المذاهب الإسلامية، وتوحيد كلمة المسلمين وصفوفهم هدفاً له، وإذا كانت اميركا قد اتخذت من لعبة (كرة الطاولة) مدخلاً لبدء الحوار مع الصين للمرة الاولى في تاريخ البلدين، فإن الإسلام ادعى بطبيعة الحال ليكون الوسيلة الأمثل لجمع الطرفين - مصر وايران - على كلمة سواء، سيما وأن فكرة (التقريب) هذه لها تاريخها الراسخ بين البلدين منذ الثلاثينات، بذل خلالها علماء الأزهر الشريف جهودا فقهية عظيمة، حمل لواؤها اعلام من شيوخ الأزهر، كان في مقدمتهم الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ عبدالعزيز عيسى، وغيرهم من مصر، ومن أئمة الشيعة في ايران اية الله القمي واية الله البروجردي.

كانت مصر هي المهد الذي ولدت فيه فكرة التقريب بين المذاهب الاسلامية لنبذ الخلافات وتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم، وكانت مصر ايضاً هي التي احتضنت الفكرة ورعاها أزهرها وعلماؤه، ومن ثم ظهرت هيئات وصدرت مجلات وانعقدت مؤتمرات حققت للأمة الإسلامية أجل الخدمات والفوائد. وقلصت خلافاتها واستبدلت الصعب بالممكن، إذ كرست جهودها في مساحة الاتفاق بين المذاهب وهي مساحة واسعة تبلغ ٩٥٪ تقريباً، ونأت عن النبس في المسائل الخلافية التي تمثل الـ ٥٪ الباقية، تاركة ذلك لمزيد من الاجتهاد، وايراد الأدلة التي تطمئن كل طرف على صواب ما يعتقده.

وإذا كانت فكرة التقريب تلك، قد نشأت للمرة الأولى إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية وكانت بمثابة رد فعل لها، وحاجة المسلمين الماسة آنذاك الى نبذ خلافاتهم والدخول كقوة بارزة الى عالم ما بعد الحرب، فإن الدعوة الى هذا المؤتمر من قبل ايران (وهي التي تملك مجلسا أعلى للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية)، تأتي في وقت تشتد فيه الحاجة الى تأليف المسلمين وتقاربهم ووحدة صفوفهم، وهي الوحدة التي تحاربها قوى الغرب وتبذل كل جهودها للحيلولة دونها ... ومن ثم كان طبيعيا أن تتجه الأنظار من ايران صوب الأزهر الشريف، وهو المؤسسة الوحيدة في العالم الإسلامي القادرة على جمع كلمة المسلمين وحققت التقارب بين المذاهب الإسلامية عندما اجازت تدريس كافة المذاهب الفقهية ضمن البرامج التعليمية في المعاهد الازهرية وجامعته الأزهر، وتقديمها في حيدة تامة

وموضوعية كاملة.

وعندما تلقى شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي الدعوة الايرانية لعقد مؤتمر التقارب في طهران، وجد فضيلته ـ ومعه علماء مجمع البحوث الاسلامية في الازهر، أهمية المشاركة في هذا المؤتمر خاصة وأن انعقاده يأتي في مرحلة احوج ما تكون فيها الأمة الإسلامية الى توحيد كلماتها، والتصدي للهجمة الضارية التي تشن ضد الإسلام والمسلمين. وبدأ الإعداد بدعوة عدد من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بإعداد البحوث والدراسات في الموضوعات الجديرة بالمناقشة، وتشكل الوفد برئاسة وكيل الأزهر الشيخ محمود عبدالغني عاشور نائباً عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، وضم عدداً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ورئيس المجمع. وكان ذلك هو أكبر وفد من الأزهر بل أكبر وفد مصري يزور ايران على مدى العشرين سنة الماضية.

ايران .. شيء مختلف

وجدت ايران شيئاً يختلف كل الاختلاف عن الصورة التي كانت لها في ذهني.

بدا واضحاً منذ البداية أن كل شيء يوحي بالأهمية القصوى لهذا المؤتمر، فهناك كلمة موجهة من قائد الثورة الاسلامية الى المؤتمرين. وهناك آية الله هاشمي رفسنجاني الذي افتتح المؤتمر بما يشبه المحاضرة الدينية والسياسية التي تناولت امورا عدة على قدر كبير من الأهمية، فقد تحدث عن فكرة التقريب واهميتها، وتحدث عن أحوال الأمة الإسلامية وواقعها، وعرج على ما يجري في فلسطين مؤكداً على أنه لو كان الحال بين مصر وايران مختلفاً. وكانت الأمور بين البلدين على ما يرام، لكان الحال في فلسطين أفضل مما يجري الآن، لأن مصر ـ كما قال ـ هي قلب الأمة الاسلامية وحصناً من حصون الإسلام، وأن ازهرها الشريف هو رائد التقريب بين المسلمين وحامل لوائه.

وتحدث عدد آخر من آيات الله ـ وجميعهم من الشخصيات الدينية التي تربت في الحوزة الدينية في قم والذين يحتلون مواقع ومكانة خاصة في سدة الحكم، منهم آية الله الحكيم رئيس المجلس الأعلى للتقريب بين المذاهب الاسلامية. ومنهم محمد واعظ زادة الخراساني الامين العام للمجمع، ومحمد علي التسخيري رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الاسلامية، واية الله احمد الجنتي عضو مجلس صيانة الدستور، والدكتور عبدالكريم الشرازي رئيس جامعة المذاهب الاسلامية واخرون.

وعلى الجانب المصري، كانت كلمة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر والتي احدثت صدى قوياً داخل المؤتمر وخارجه، عندما اشار الى أن الأزهر الشريف كان أول من دعى للجهاد في فلسطين إذا ما فشلت محاولات السلام التي يتفاوض بشأنها الفلسطينيون مع الاطراف الأخرى. ثم كانت اوراق العمل التي قدمها الدكتور محمد رأفت عثمان عميد كلية الشريعة، والدكتور عبدالمعطي بيومي عميد كلية أصول الدين، والدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الاسلامية، والدكتور محمد ابراهيم الفيومي عضو المجلس، والشيخ علي فتح الله رئيس قطاع المعاهد الأزهرية ثم كان البحث الذي قدمه الكاتب الصحفي فهمي هويدي، والذي أرخ فيه لفكرة التقريب بين المذاهب ونشأتها ومؤسساتها والظروف التي عملت في اطارها، وكانت تلك هي اهم الأوراق التي حظيت باهتمام واضح في جلسات المؤتمر ومناقشاته.

البيان الختامي للملتقى الدولي

لتكريم آية الله البروجردي

والامام محمود شلتوت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

بدعوة كريمة من المجمع العالي للتقريب بين المذاهب الإسلامية زار طهران وفد رفيع المستوى من الأزهر الشريف بجمهورية مصر العربية الشقيقة ممثلاً لمجمع البحوث الإسلامية. حيث أوفده الإمام الشيخ سيد طنطاوي شيخ الأزهر الشريف. وقد ضم الوفد الكريم وكيل شيخ الجامع الأزهر الشريف ومفتي الديار المصرية وعددا من اعضاء مجمع البحوث الإسلامية وذلك بمناسبة انعقاد الملتقى التكريمي للعالمين الكبيرين آية الله العظمى الإمام البروجردي والعلامة الامام الشيخ محمود شلتوت رضوان الله عليهما وقد استمرّ الملتقى ثلاثة أيام ابتداء من تاريخ ١٢ شوال المكرم ولغاية ١٥ شوال المكرّم عام ١٤٢١ في طهران وقم. وقد افتتح برسالة هامة من قائد الثورة الإسلامية الإيرانية الإمام الخامنئي حفظه الله حيث اكّد فيها على:

أنّ الهدف من هذا التكريم هو ما قدمه الإمامان، البروجردي وشلتوت من خدمة عظيمة للأمة الإسلامية التي هي اليوم بحاجة أكثر من أيّ وقت مضى للوحدة والتقريب. وأن رجال العلم والسياسة لو كانوا قد واصلوا تلك المساعي بجد لما شاهدنا الخلافات المؤلمة بين المسلمين، ولما حلت مأساة فلسطين بهذا الشكل المرعب، ودعا سماحته إلى بذل الجهود امام امواج الفتن بالتمسك بالقرآن الكريم وسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) القطعية. وقد اعتبر المؤتمرون هذه الكلمة وثيقة من وثائق المؤتمر.

هذا وقد ضمّ اللّقاء اضافة الى ممثل السيد رئيس الجمهورية جمعا من كبار العلماء والشخصيات الثقافية وأساتذة الجامعات الإيرانية كما القيت مجموعة من الكلمات وخلاصة للدراسات والأبحاث وتخللتها ندوتان الأولى حول التقريب والوحدة والثانية حول الانتفاضة المباركة في فلسطين وقد جرت مداولات في جوّ من الموضوعية العلمية والأخوة الإسلامية كانت نتيجتها ما يمكن إجماله بما يلي:

بارك المجتمعون اللقاء الهام والتاريخي بين الازهر الشريف والعلماء في حوزة قم المشرفة وطهران ورأوا فيه ضرورة ملحة لأثراء الثقافة والفكر والفقه الإسلامي وتعميق فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية وتبادل الخبرات في مختلف المجالات الفكرية والإجتماعية والاقتصادية بما يحقق وحدة المسلمين وعزتهم وكرامتهم وتبوا المقام الحضاري المطلوب.

كما أعربوا عن تقديرهم لجهود العالمين المرجعين الكبيرين الإمام البروجردي والإمام

شلتوت لما بذلاه من جهود عظيمة لوحدة المسلمين واعتبروهما نموذجا ورمزا يقتدى بهما. وطالبوا بنشر افكارهما ومؤلفاتهما بالإضافة الى الرعيل المتقدم في مجالات الفكر التقريبي من علماء المسلمين ومفكريهم. كما انهم وجهوا التحية للانتفاضة المباركة في فلسطين وطالبوا بدعمها وتأييدها بكل وسائل الدعم كما ادانوا محاولات انتقاص حقوق الشعب الفلسطيني في تحرير كامل ترابه وخاصة القدس الشريف. وطالبوا بمقاطعة منتجات الداعمين الرئيسيين للكيان الصهيوني الغاصب وتثقيف الأمة على روح المقاومة والإرادة القوية لمواجهة الاحتلال والانتهاك للمقدسات الاسلامية في فلسطين.

وقد اثنوا على جهود المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية في ايران ونشاطاته المختلفة في المجالات العلمية والثقافية لتوطيد أواصر الأخوة بين المسلمين وباركوا له انشاء جامعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران وتمنوا توسعيها وكذلك انشاء مثيلات لها في المراكز العلمية الأخرى ليتعرف المسلمون على تراثهم العلمي المشترك. كما اثنوا على تجاوب مجمع البحوث الإسلامية لجهوده في مجالات التقريب ودعم الوحدة الإسلامية. كما رحبوا بجهود المراجع الدينيين والعلماء الرواد والمعاصرين في مجال الوحدة الإسلامية . ودعوا الى نشر افكارهم واشاعة ثقافة التقريب وروح الأخوة والتفاهم بين المسلمين وفي المجال العلمي دعوا الى المزيد من العمل المشترك لتأليف موسوعات علمية مقارنة تشمل حقول التفسير والفقه وغيرها وتمنوا على الازهر الشريف ان يتكرر هذا الملتقى في القاهرة عام ١٤٢٣هـ بمرور أربعين عاما على وفاة المرحوم الامام شلتوت بمشاركة المجمع العالمي للتقريب والازهر الشريف. لتكريمه مع الرعيل الاول لهذه الحركة التقريبية أمثال الأئمة عبد المجيد سليم وعبد العزيز عيسى ومحمد المدني والشيخ كاشف الغطاء والسيد شرف الدين وغيرهم واكدوا على ضرورة تبادل الأساتذة والطلاب والكتب والمناهج بين الجامعات والمؤسسات. وأخيرا قدموا بالغ الشكر والتقدير للامام الشيخ سيد طنطاوي على اهتمامه البالغ بموضوع الوحدة والتقريب ومتابعاته لمشاكل ومسائل المسلمين وقد قدم وفد الازهر الشريف الشكر والتقدير للامام القائد آية الله السيد علي الخامنئي على رعايته للمؤتمر وكلمته العظيمة في افتتاح الملتقى كما قدموا شكرهم للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب وأمنيه العام آية الله الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني والمجلس الأعلى للمجمع والمسؤولين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية على حسن الوفادة والاستقبال الأخوي سائلين الله تعالى أن يمنّ على المسلمين بالعزة والكرامة واتباع كتابه وسنة نبيّه والرحمة والرضوان لكل العلماء الماضين سيّما الامام الخميني الذي كان الرائد العظيم للوحدة الاسلامية من هذا العصر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.